مارون عبّود

في المختبر

تحليل ونقد لآثار الكتّاب المعاصرين

دار الثقافة

دار مارون عبّود

مارون عبّود

في المختبر

تحليل ونقد لآثار الكتاب المعاصرين

دار مارون عبود

بيروت
ص.ب
٥٤٣

دار الثقافة

جميع الحقوق محفوظة

طبعة جديدة
١٩٧٩

المعركة الأدبيّة في مصر

النزاع الذي قام بين أدباء مصر ، — والنزاع عنوان الحياة — قام ويقوم مثله في كل عصر وزمان ، فمن يستعرض تاريخ الأدب يعلم أنه لم تشن غارة أدبية كالتي شنت على المتنبي ، فقد تألب على أبي الطيّب فحول شعراء زمانه ، وناصبه العداوة حذّاق النقاد من ابناء جيله ، فكانت حملات تلتها حملات على الشاعر العظيم ، فارس حلبة الأدب في ذلك الدهر ، والدليل قوله :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني ، قصير يطاول

ومنذ أعوام حرّضت فئة لا يستهان بها على « مناوشات » أشبهت على ضؤولتها ، تلك الاغارة ، فحملت على الشاعر احمد شوقي عصابة عقد لواؤها للمازني والعقاد ، وكان الشاعر حافظ ابراهيم ، ندّ شوقي ، من ابطال خنادق الوقعة ، فتترّس « بليالي سطيح » .

وانضم الى « الأحلاف » فارس مغوار تعمّد شاعر تلك الساعة ، بدهائه وارانا أنه غير مفترض ، فما سلم من طعناته أحد ، بيد انّ منها ما آلم واثخن ، ومنها ما أشبه الملاكمة بقفازات هشّة ، لا خوف منها حتى على حدقة العين. عقدوا مقالات وفصولاً جمعوها كتباً مليئة بالنعي على الشاعر . نعوا على شوقي تقليده ، وسرقاته وسيره على سكة القدماء المعبدة ، فما أشبه الليلة بالبارحة .

ثم علا صوت من وراء البحار فاشتدّ به ازر « الاحلاف » — واميركا اعتزلت الحرب الكبرى ثم غاصت فيها حتى الآذان — . فنصبت الموازين والغرابيل على « بيدر » شاعر زمانه ، واستحال النقد هدماً وتدميراً ، والتشذيب تشويهاً وتمثيلاً ، حين رأوا شوقياً براع من النقد ، فطارت للنقّاد شهرة ما عتّمت أن أشبهت السيطرة على اسواق الادب العربية فاخذوا يقوّمون بضاعتها بالاثمان التي تتراءى

لهم وتواتيهم ، فمن كان على هواهم نادوا على محصوله فراج ونفق ، ومن كان لهم فيه مآرب اخرى شال في ميزانهم ، كما قال شاعر بني أميــة . ولم يكن وكدهم غير شوقي .

واعتد الناس بكل كلمة تذيل بتواقيعهم ، وعوّلوا على آرائهم ، حتى اوشكوا ان يطبعوا الادب الحديث بطابع خاص ، ففرضوا على الادباء والمتأدبين اراءهم ومذاهبهم فرضاً ، فكادوا يسنّون النواميس والشرائع للكتّاب والشعراء ، فمن خرج عليهم ، او تجاوز تخوم جمهوريتهم السعيدة ، كان العتيق المنبوذ ، ولو صام لتحريره الف غاندي .

فمثّل شبح الارهاب واتّقى حملة الأقلام شر هذه الحملة المنظّمة ، التي جلبت أعتدتها من مصانع الغرب ، وما تلك غير اتجاه جديد في مناحي التفكير ، وتغيير لمقاييس المثل العليا ، فجعلوا الذراع متراً ، والفرسخ كيلومتراً ، حتى عابوا على امرىء القيس والمتنبي ، مثلاً ، تزييهما — في ذلك الزمان — بالكوفية والعقال ، واستغربوا كيف انهما لم يلبسا القبعة ، والطوق القائم ، وربطة العنق ، والسراويل المزّمكة ، كبودلير ، ومالرمي ، ورمبو ، وبريدون ، وفرلــين ، وفالري . كأن الظواهر الجوية لاتختلف في صحراء العرب عنها في جبــال الألب ، وكأن الجاهلية لا حساب لها ، وكأن التفكير يجب ان يكون واحداً في كل امة وقطر .

وتقمّصوا لباس «انصار الجديد» فلبق بهم لأنهم مجددون حقاً ، وخلعوا على من ناوأهم جبّة القديم ، فكانوا متطرفين ، ولم يكونوا لو لم يعيّروه بها . واشتد النضال وحمي الوطيس وكان يوم له ما بعده ، صراع بين القديم والجديد تطوع فيه « سنت بيف » لتحرير الادب العربي ، تطوع لافاييت لتحرير اميركا . . .

وما ابصر الناس «سنت بيف» بين الصفوف حتى استصرخوا سواه ، فصارت الجبهة الادبية المصرية عربية اعجمية ، وقف فيها القديم من الجديد — في هــذا الحين — موقف السنّة من المعتزلة — في ذلك الزمان . تدرّعت المعتزلة بالفلسفة ، وجرّدت سيف المنطق ذا الحدّين ، فدارت الدائرة على السنّة ، في جبهة الجدل ، حتى كان الغزالي ورهطه وسبطه .

وسكنت الارض بين أيدي دعاة الجديد ، وآمن الناس بكل ما انزل على اقلامهم ، وشد إزرهم الشباب ، والشباب نزاع لكل جديد ، فقوي ظهرهم .

ثم مات شوقي وصار في ذمة تاريخ الادب ، فلم نسمع بعد موته نقداً وهذا أوان النقد النزيه. واشتد ساعد الشباب فحاولوا ان يشاركوا «الآباء» في آرائهم ويروهم كفاءتهم لصيانة التراث واغنائه ، لعلهم يستعمرونهم في بقاع مملكتهم الواسعة ، فلم يعترف « الآباء » لهم بشيء من ذلك ، سجية الأب المستأثر. فظنّ الأبناء بالاباء شراً ، وقالوا ان هنالك كيداً ، بعد ما رأوا كل ثناء الآباء عليهم « بارك الله عليك » . . وان استحسنوا شيئاً من طرفهم عبّروا عن استحسانهم بتلك الابتسامة الابوية الغامضة الفاترة التي رأيناها صغاراً على ثغور آبائنا .

فعلت الصيحة حول « الملاح التائه » و « وراء الغمام » ، فانفجرت القنبرة بين الشيوخ والشباب وكان الذي خِفْتُ ان يكون .

ما نفخ في الصور ولم تقم القيامة فجأة، بل هنالك مقدمات حسر عنها اللثام « سيد قطب » في مجلة الاسبوع ، اما انا فكنت ارقب قيام الساعة في مصر الأدبية ، وقد بدت لي اشراطها حين غادر الدكتور طه حسين « الرسالة » وحل بطن « الوادي » وتربّع الرافعي على عرشه في الرسالة .

علمت ذاك الحين ان في صدور الشباب براكين تتقد حنقاً على الشيوخ المستأثرين فأخذت اتوّقع الساعة فإذا بها قد أزفت ، وكال الشباب لشيوخهم بالكيل الذي كالوا به هم للرافعي وأنصاره .

ألم يطلق دعاة الجديد امس ، وشيوخ الادب اليوم ، على الرافعي ولفّه لقب انصار القديم ؟ وهذا ما فعله ادباء الشباب . لقد شيّخوا طه، والعقاد، والمازني، قبل الأوان .

الله الله ما هذا المصير ، كيف استعجلوا الشيء قبل أوانه، مسألة فيها نظر، فالأب شيخ في نظر بنيه ولو فتياً .

ما قلت ابتهاراً انني ترقبت قيام الساعة بل سمعت بأذني ورأيت بعيني ان حملة تجهّز، فهناك فؤوس تشحذ، ومعاول تحدّد، ومناجل تسنّ، وشيوخ الأدب على

عروشهم يصدرون المراسيم. الامويون في غفلة والخراساني يبث الدعوة العباسية.

تربعوا على عرش النقد، والنقد «اعسر امره ميسور» ما دام تهكماً واستهجاناً وتطلب كمال لم يخلق بعد، ودعوة الى « موضة » بطلت من اسواق بلادها.

ينقّبون عن السيئات بالمجهر، ويرون الحسنات فجّة، ويطلبون من البلبل تغريد الحسون، ومن العربي شعور الفرنجي، ولكل منهما ظروف واحوال.

وبعد، فما لنا ولهذا الآن، فان ساعته لم تأت بعد، وستأتي ان شاءت آلهة الأدب. يقول الناس «الكنة وحماتها» خصمان أزليّان، ولا يبحثون عن السبب حتى عدّوا مخاصمتها غريزة، واذا اعترضهم شذوذ عن القاعدة وقفوا حائرين، ولو تبصّروا لأدركوا ان ذلك الخلاف الأزلي في كل مكان وزمان لم يكن لولا التنازع على السيادة والاختلاف في الرأي.

إنه لصورة جلية من صور تنازع القديم والجديد، فالكنّة التي تنقاد لحماتها ملك كريم، اما التي تعارضها او تخشى الحماة منها كيداً لسلطتها فهي شيطان رجيم.

الكنة وحماتها، والشباب والشيوخ شيئان متشابهان كأنهما حبتا عدس، فمن ساير الكهول واعترف لهم بالسيادة المطلقة، وأثنى عليهم ثناء ابي نواس على خمرته وقدسهم تقديسه لها كان من نوابغ الادب وكانت تآليفه «خطرة» — تعبير جديد اقرأه للناقد ادمون جالو، دار على ألسنة اقلام نقادنا حديثاً — ومن انتبذ منهم مكاناً شرقياً وركب رأسه هاجموه بالنبال وأعدّوا له القيود الدهم في الليالي القمراء، وفيما حدث بين طه حسين وتوفيق الحكيم، منذ عهد غير بعيد، دليل صدق، وعند «الأسبوع» و «الوادي» و «الرسالة» الخبر اليقين.

ودرج فرسان النقد المغاوير، او شيوخ الادب في لغة الشباب، على «تقارض» التقريظ والثناء والاشادة بالذكر حتى اصبح شعارهم: اثن عليّ اثنِ عليك، حكّ لي أحكّ لك، فعجّت بفصولهم صدور كتبهم، وفاضت بها انهار الصحف، وجاشت غوارب المجلات.

رأى ذلك منهم زكي مبارك فغاظه. مرّوا بتآليفه القيّمة مرور الكرام، فتولى بنفسه تقديم كتابه « النثر الفني » وقال عن نفسه في مقدمته ما قاله بولس

الرسول في بولس الرسول في رسالته الثانية الى اهـــل كورنثس : « ان كانوا عبرانيين فأنا ايضاً عبراني، وإن كانوا من نسل ابراهيم فأنا ايضاً كذلك، بالضرب افضل منهم، بالجلد افضل منهم، بالحبس افضل منهم، وبالوثوقات افضل منهم. جلدني اليهود كذا، وضربت كذا الخ... » وكأن لسان حال الدكتور زكي يقول: ما حكّ جلدك مثل ظفرك .

شطّ القلم ولم اقل لك كيف عرفت بهذه الثورة قبل نشوبها، واجهت في حلب اتفاقاً سفيراً من سفراء الشباب او رائداً من روادهم ، يبشر كراهب الحرب الصليبية ، ويعلن ان الشباب من أدباء مصر سيصدرون مجلة يذيعون بها ادبهم على الناس، وان الشباب يريدون ادباً غير منقول ولا منحول . ينشدون ادباً مبتدعاً، شرقي الأصبغة والالوان، يريدون ان يطهوا للجيل ادباً غير ملتقط عن موائد الغرب، يريدونه ادباً ملتوتاً بالادام العربي ليزدرده العرب، ثم صرح بعد هذا التعريض بذكر نفر لم يكونوا شيّخوهم بعد، فاتهمهم بانتحال شيء كثير .

وشاء القدر حين بارحنا حلب أن يجمعنا القطار، فسرنا على بركة الله، وبعد أن انتهينا من التلويح بالمناديل ، قعدنا للحديث، فتذاكرنا أدباء مصر المالكين سعيداً في القاهرة، وطال حديثنا حتى مللناه ونمنا .

واستيقظت قبـــل صاحبي فانكببت على مطالعة كتاب « خطر غريزة المرأة » للمازني ، تفضّل به علي تلميذي الصديق اورخان ميسّر من ادباء حلب الشباب ، ليخفّف بـه عني سأم الانفراد وضجر السفر في القطار النعسان ، فما جئت على نصف الكتاب حتى أفاق صاحبي من نومه ، واللوث بادٍ عليـــه ، ففرك عينيه قليلاً ثم التفت فوقع نظره على عنوان الكتاب فنشط وقال : تطالع « غريزة المرأة » للمازني ؟

قلت : نعم .

فهز رأسه ثم قال : أقرأت ابراهيم الكاتب ؟

قلت : لا ، ولكنني سمعت به .

فهز رأسه وكاد يتبسم ، ثم رسم على شفتيه الفاظاً يجسّدها المنطق فافهمها .

ودار حديث المسخ والسلخ والنسخ ، فتذكرت ابن الاثـير ، ولئن صح مـا اتهم به صاحبي ادباء الساعة ، لكان أولى بالاجانب ان يكتبوا «السرقة ممنوعة» بدلاً من جميع « الحقوق محفوظة » .

وكان موعدنا بعلبك فنزلنا ، وفي الغد تلاقينا على رأس العين ، وكان آخر العهد بـه . وانطوت الايام واذا بي اذكره في الشتاء ، حين قرأت في مجـلة « الاسبوع » وصف حفـلة اقامها شباب الادباء في القـاهرة للمستر جبّ المستشرق الكبير ، اكراماً له واعترافاً بجميله لعنايته بالقصة المصرية ، ودرسه لها في كبرى جامعات انكلتره .

وكان حديث بين المستر جبّ والمحتفين به من الشباب ، لم يخـل من عتاب سوف يأتيك خبره . فصبراً يا قارئي العزيز ، فالليل طويل وانت مقمر .

أدب القصة بين العقاد والرافعي

كاد يبطل التمويه بالقصدير ، وقـــلّ عدد « المبيّضين » ، وصار الادب « الشكولاهي » ، غـــير مرغوب فيه ، فهو يناع اذا أحرّ النقد ، ولا تستر عورته تلك الأكسية اللمّاعة البراقـة التي لا تفتن الا الصغار . وسوف تطرح الصحف الخطيرة الغثّ والهراء ليذهب به الكناسون ، فلا نقرأ في قابـــل الا رصيناً ، ولا نجسّ الا سميناً . ومن يهـــد الينا مثـل شاة « فتى منقر » نعلق في جيدها جلجلاً ولا نستحي . « كبشّار » الذي ما استحيا قط الا تلك المرة ... امـــا الذين يكبسون بيوت « ادباء الغرب » ليسبوا بناتها وينهبوا خرثيّها فنشهرهم تشهيراً ، وهذا هو الحد الذي يقام على لصوص الادب .

ان لطه حسين يداً في هـــذا التطور الادبي ، وان اقتبس كثيراً واحتذى اكثر . فلا ضير عليه ما دام قد ابدع شيئاً مذكوراً . لا يضره شيئاً مشيه على ضوء « تين » ولا يشينه تعكّزه على « سنت بيف » ، ففي كل آداب الشعوب عناصر شتى تفاعلت فكوّنتها . لقد وجّه طه طريق الادب العربي الحديث ، وعـلّم من لم يعلموا ادب الغرب كيف يفكرون . إلا ان طه واخوانه من ادباء الساعة في مصر اصبحوا كالدجاج العجوز تبيض قليلاً ، وتقوق كثيراً ، فتشين عطاءها بالمن والسأم ... ويبرم الناس قوقها .

فمن يتفيّش ويفتخر كالمتنبي اضبح ممقوتاً ، ومن يقل للناس كالبحتري: لماذا لا تقولون أحسنت ، صار مبغوضاً ومنبوذاً ، وان كان لا يزال بعض ادبائنـــا يفعلون كالمهرّجـــين والمغنّين اصحاب التخوت من ناقري الدفّ المخشخش ، والبربط ، فيسترفقون جوقـــات للتصفيـق و « التطبيب » والهيشة ، كأن منتديات الأدب عرس رعاع .

ثم لا ادري ما اقــول « بنفر » توقـّحوا حتى خطوا بأيديهم « التوطئات والتمهيدات والتقاريظ » لما ينشرون ويذيعون ، وكلفوا الصحف والمجـــلات نشرها . وان استنكرت واستسمجت فعلتهم هـــذه خبّروك وما استحوا ان « شوقي » كان يفعل هذا . فمن أنبأ هؤلاء العقلاء ان كل ما كان يفعله المرحوم شوقي حسن ؟ ؟

فما أرى هذه التقاريظ الا صياح باعـة في السوق ، فلا يبطل زعمهم الا نار المطبخ ، فالطهي يبدي الدسم ، والكير يبدي عن خبث الحديد .

وهناك معشر يحردون على النقـّاد ، كما فعل العقّاد . حرد وسخط لأن سيّد قطب قال ان قالبه الشعري قاس ، وجمع بينه وبين ابي شادي في مقال حين نقد او قرظ ديوانيها : الينبوع ، وهدية الكروان .

فالعقّاد ، كما صرّح سيّد قطب ، «يكره ان تنعقد في أذهان الناس صلة بين فنه وفن ابي شادي ولو في الاسماء . بل هو يستنكف ويأنف من مثل هذه الصلة» (الاسبوع عدد ٣٥ ص ٢٢) .

أرأيت الآن ايها القارىء ، ارستقراطية زعماء الأدب في مصر ؟ أصدّقت ان فيهم المنبوذين والانجاس ، كما في الهند ؟ فإلى الصوم ايها الغانديون .

غفر الله لطه حسين ، فمن جهتين لا جهة اساء ، فقد جمّم ويجمّم مكاييل الثناء للعقاد ، ونصره على شوقي ، كأن شعار طه أنصر اخـــاك ظالماً كان او مظلوماً . وهـــو لو عدل لاتأد في نقد شوقي ، ووقف منه موقف النصيح لا المندّد ، ولكن كما قال طه : حب الشهرة عدو الفن ، والمرء مؤاخذ بإقراره .

وما عتم طه والعقاد ولفهما ان صاروا كشوقي ، يعدّون النقد ، ان مسهما ، تهجماً وحمقاً ، كأنهم بابا رومـــة ، فمن يناقشه يكفر كلامنيه . فهل لطه ان يتبصّر ، فلا يكون « المروان » سيّقة يقوده حيث يشاء بعد جلال السن . ان في الذين حاول طه وجماعته ان يقتلموهم ، ساعة طرّوا ، من هو أصلح للغد ... أليس الادب دولة كما يقولون ؟ فماذا يحل بدولتنا اذا لم يكن فيها «جنود فجيش احتياطي » متى أقعدت السن هؤلاء المارشالات العظام ؟ .

لست اخال طه ، وهـــو قد نصح الشباب ان يطالعوا ، الا قـد طالع في « النوفـــل ليترر » مقال هنري دي رنيه الشاعر الفرنسي ، واحـد الاربعين الخالدين . خبّرنا هذا الشاعر كيف عرف برونتيير الناقد الافرنسي الشهير ، واحد الأربعين ايضاً ، ومدير مجلة العالمين ، وقدم له قصيدة من نظمه فأذاعها له في المجلة وعقّب عليها بما أغمّ دي رنيه ، في البداءة .

وذكر دي رنيـه كيف قابلت المجـلة عينها الشاعر بودلير يوم اتى ببدع في الشعر ، فهان عليه الامر وأسلس قياده بعد شماس ، فاطردت رسالته الأدبية ، وخطر لدي رنيـــه ان يقفز من النظم الى النقد — وفي راسين ايضاً — فقابـله برونتيير بكل فجاجـة وقال له : اما النقد يا سيد ، فحقاً لا . اني اؤجلك في هذا عشر سنوات .

هكذا يا شيخنا الجليل ، يفعل الناقد النزيه بالشباب . ولكن الولد معجب مزهو ، وفي الأب صلف وعرام ، وماذا يفعل طه؟ فالعقاد جن بالامارة ، وطه يمهد لها ولا تأتيه منقادة تجرر اذيالها ، ولهذا تراه يحاول تهشيم كل اديب ، ولا فرق بـــين الاقطار ، ليسلم راس « الامـــير » ، والعقاد مخيّم في الشاطىء كأبي منذر . .

إن النظم ، تقليداً ومحاكاة لا يخلق شاعراً ، ، فالتبرّج غير الحسن والجمال، والانشاء سجيّة . وهل من جنـــاح علي اذا سألت شعراءنا المتنطّسين وادباءنا المتزمّتين ونقّادنا المتحذلقين :

احاكى حزقيال واشعيا وارميا وايوّب وسليمان وداود وهوميروس ، غيرهم من الشعراء ، ام قالوا هم الشعر فصار شعرهم فنّاً .

وهذه الأجرام أتحـــلم بالانظمة ام تسير ، فجعلنا سيرها نظاماً ، فليفترض انشتين ما شاء ، اما انا فلا يعنيني من الكون الا ما فيه من فتنة تحيّرني .

واكاد اقسم بالله ان شكسبير الجماعة لم يفكـّر قط بما يقوله النقّاد كل يوم ، وان فرجيلهم لم يحلم ابداً بما يقولون لنا عنه بعد عصر اليوافيخ ، وان المعري لم

يفت علمه علم قروم جيله ، وان قال : واني وان كنت الاخير ... ولكنه تمرد وصاح ، فاخلد وقـُدّم .

وهذا الأدب القصصي الروسي الذي فتن العالم أطبع على غرار ؟ اكانت له مقاييس خاصة ؟ ام كان فصار فنـّاً يقاس عليه ؟

الا فاتركوا النوابغ يخلقون فنهم ، فلا نبوغ حيث لا خلق . ارفعوا من سبلهم عليقكم وقندولكم فهو يدمي ارجلهم ، ويمزق اذيالهم ، فالنوابغ فقراء « بالمعنيين » .

واعجبا ! أتندّدون بالتقليد والمقلّدين ، والتقليد تفعلون ؟ لقد قللتم شعراءنا القدامى في اعيننا ولم تبدعوا كما ابدعوا بل رحتم تقلدون الافرنجي والانكليزي والالماني ، ماسخين سالخين ناسخين .

قد تكون السيطرة في كل شيء ، امّا الادب فهو شخصي ، ومن لا شخصية له في أدبه فهو البوّ .

ان الحسون لا يحفل بسلالم فاجنر ، والبلبل لا يبالي بمعازف الموصلي ، اتشوّشت اوتارها او اصلحها. والكروان الذي فتن العقاد لا يصغي الى الفارابي، فهو لا يضحك ولا يبكي ولا ينام ، مهما لعب ابو نصر بعيدانه وافتنّ في تركيبها. الطير تستقبل النور وتغني على الغصون ولا تصغي الى من في الظلال ، ولو كانوا يستمعون الى « اسطوانات بتهوفن » التي ردها طه حسين الى توفيق الحكيم حين كانت بينهما مغايظة . الطيور الموهوبة تغنّي ولا تكون حديًّا احد ، ومتى امتلأت نفسها غبطة ولم يعد عندها ما تقوله طارت . انها ليست ككثير من الشعراء ... انها لا تهب الا عن فيض .

والأدباء المطبوعون كالطيور ، فدعوهم وشأنهم ، واحملوا براجركم وفوادنكم فما تهبه الطبيعة لابنها « البار » لا يقاس ، ولا يكال ، ولا يزان ، فكل شيء يزان الا العبقرية .

وقصارى الكلام ان الادب البارع شهي ، أأدب قصة كان أم ادب مقالة أم

ادب قصيدة أم ما يخلق النوابغ . الادب كالاثمار التي تخلقها جنينتي . لكل ثمرة طعم ولذة .

●

سئل العقاد عن رأيه في القصة فقال :

« ليس خلو ادب امة من القصة دليلاً على نقص في ادب الامة ، او في ادب الفرد ايضاً » .

لا بدّ لي من كلمة قبـــل المناقشة ، ان في العقاد لباقة الخائط ، ذاك يرفو الثياب وهذا يرفو المقاييس الادبية ، لتطابق هيكله طولاً وعرضاً ... فما اشبهه بصاحب المثل السائر ، الذي كأنه لم يؤلف هذا الكتاب الا ليدلّنا على نفسه ، تارة بقلتُ ، وطوراً بأما انا فقلت ...

ادرك العقاد ان شعره كالدينار الأخرس،لا نغمة له ولا ايقاع ، فأخذ يتمدّح « بساطة » الشعر الانكليزي والالماني ، وعدّ فكتور هيغو مجلجلاً بلا رحمة ولا هوادة ، ونسي نكتة الجاحظ في سينيّة ابي نواس : هـذا شعر لو نقر لطنّ .

ولما سئل عن رأيه في القصة ، ورأى ان ادبه خلو منها اخـــذ يتمطّط في الحديث وينافح بالسيف والترس عن ادب الامم والشعوب والجماعات والافراد.

امّا الامم يا استاذ ، فاول أدبها القصص ، والمشترع ، ولو وثنيّاً ، يفكرّ بقصة الخلق قبل عرض دينه على البشر . فكم عندنا وعندكم من قصص !! الحياة كلها قصة ، ووجودي ووجودك اليومَ قصة — أحسن الله الخاتمة — فلا تخف ان يخلو الادب العربي منها اذا خلا ادبك ، « لا سمح الله ، امـا عندك مذكرات ابليس » .

ثم قـــال : ان كثيراً من اكبر الشعراء والكتاب نظموا ونثروا دون ان يخطر لهم في بال أن يساهموا في كتابة القصص » .

إذا أردت القصص كما نعرفها اليـــوم ، فالجواب نعم . امّا خلوّ ادبهم من القصص فهذا شيء ندر ، فلم يخلد عمر ابن ربيعة لانه كان « يحفل بتجويد اللغة » كما ستقول ، ففي المتأخرين والمتقدمين من جوّدها اكثر منه .

ان قصيدته « أمن آل نعم ... » هي اقصوصة اليـــوم الفنيّة لو أحسن خاتمتها ووقف عند :

وآخر عهد لي بها حين اعرضت ولاح لها خـــد نقيّ ومحجر

ولكن مرض العصر الجاهلي راوده عن فنه فأغواه ، كما اغوت الحية حواء بمكرها ، وما اراه وصف ناقته الا ليفتننا بهذا البيت :

فقمت الى مفلاة أرض كأنها اذا نظرت مجنونة حين تنظر

ياليتك لم تقم اليها يا عمر! ابعد ذاك الفن الممتع تسمعنا هـــذا اللغو – لغو الصيف – بل ليتك سمّرت في ارضك كإمرأة لوط ، تراقب الخد النقي والمحجر ولم تخربش قصيدة كأنها العافية في البدن .

فمن علمّ عمر القصص يا استاذ ؟ ان النابغة يخلق الفن ، ولن تخلق الجرومية فناناً . انقلد شعراء الغرب ونقول بالتجديد ؟ لا وآلهة الفن، ان التجديد إلهام، ولا يتأمم الناس الا من يأتي بدعاً .

وقال : « ولولا سهولة القصص، ولاسيما عند الذين لا يحفلون بتجويد اللغة ، لما كثرت الدعوة اليها بين الكسالى الناشئين » .

قلت : جاء يوحنّا لا يأكل خبزاً ولا يشرب خمراً فقلتم ان به شيطاناً، وجاء ابن البشر يأكل ويشرب فقلتم هوذا انسان أكول شرّيب للخمر محبّ للعشارين والخطأة» . جوّد البعض اللغة وامامهم الرافعي والزيات والمازني، فقلتم الرافعي عتيـق يعيش في الجاهليـــة ، وعيّر طه صديقـه الزّيّات بسجعه ، وعـــدّ سلامه موسى المـــازني قديماً . وكتب الناشئون فقلتم كسالى لا يحفلون بتجويد اللغة .

أأمست النصيحة تعييراً ، وصرتم ، يا رجـــال الادب كأمراء الاساطيل تحيّون بعضكم بقنابر المدافع .

قال المحدّث : وهنا سألت العقاد لماذا لا يعالج القصة ليرينا شيئاً « مثالياً » في هذا الفن ينسج على منواله الناشئون الذين يصفهم بالكسالى ، ولماذا يخلو ادبه من القصة ؟

فاجاب : « ان كتابتي لم تخل من القصة لانني كتبت فصولاً مختلفة بعنوان مذكرات إبليس قبل نيف وعشرين سنة ، ولم ينشر من هـذه المذكرات غير مذكرة واحدة عن اغواء فتاة ... الخ » .

قلت : لقد قرأت كثيراً عن شيطان العقاد الذي فتن أخيراً صاحبه طه حسين حتى عدّ قصيدة العقاد ملحمة . ليرحم الله صاحب فاوست ، وشتّان ما بين اليزيدين ...

وقال : « على انني لا اهتم كثيراً بكتابة القصة – قلت: ولا قليلا ، ولا هذا عيب ، ولماذا كل هذا التنصّل – لأنني اعتبرها نوعاً من انواع الادب التي يكثر فيها الاسفاف ويقل السمو ، وهي غير مطلوبة لذاتها ، بل مطلوبة في الأكثر لأنها أيسر منالاً عند الجماهير التي لم تألف دراسة الادب الرفيعة ، ولن ترى في كل ألف قصة وقصة تظهر ، واحدة جديرة بالقراءة والبقاء » .

امّا كثرة الاسفاف وقلة السمو فهذا صحيح بالقياس الى طغيان ادب القصة ، ولكن أليس الامر كذلك في كل فن ؟ اما في الشعر اسفاف ... هلا ذكر الاستاذ كثرة المواليد وقلة النوابغ ؟.. فهل ينصح النساء ألاّ تحبل وتلد ؟ ! فليكتب هو شيئاً سامياً ، فمثل العقاد لا يسعى لنا في اطفال الشؤون .

ان المتمشرقين ينظرون الى القصة كأنها الادب كله ، وما ظفروا حتى الساعة بقصّة مصرية بل عربية تستأهل الجلوس على الرف بين طرائف البيت . فما يصد العقّاد عن هذا وهو ذو فن يطمح الى اخلاده بكل قواه ؟ وامّا ان الرواية ايسر منالاً عند الجماهير التي لم تألف الآداب الرفيعة ، فلمن كتب تولستوي ، ودوستفسكي ، وتورغنيف ، وغوته ، وملتون ، وفلوبير ، ودانت ، وبو ، وفرانس ، وماريه ، وكبلنغ ، وشو ؟ وأخيراً جول رومان الذي احتفيتم به في هذا الشتاء « وشغل المثقفين من سكان مصر اسبوعاً كاملا كأنه عيد من اعياد الثقافة العليا ، وكأنكم بتحدثكم اليه قد تحدثتم الى العقل الافرنسي كله » ، الى ما هنالك من كلام صاحبك طه .

مسكين طاغور يكلف نفسه كتابة القصة وهي ليست من الآداب الرفيعة يكثر فيها الاسفاف ويقل السمو ، بل مـا أغبى جماعة جائزة نوبـل ، كيف يمنحون القصصيين ذلك المبلغ الضخم !

والآن كما بدأنا هـذا الامر نعيده : وان مقاييس العقاد في الكم والكيف مفصلة عليـه ، فما خلا منـه أدبه فذاك شيء لا يعتد به ، وليس من الآداب الرفيعة فهب يا استاذ ان ما تكتبه منزل ، فما شرط هـذا على الرسل ليؤدوا رسالتهم ، ولا يتدللوا على الله مثـل هذا التدلل . نوّرنا يا استاذ ، نوّر الله وجهك ، حقاً انك متعنّت .

وبعد ان وعـد الاستاذ ، لو توافر له الوقت ، بتدوين كثير من تجاريبـه وملاحظاته بقالب قصة – نتمنى الا يكون قاسياً – قال : « اما الآن فحسبي ان أؤدي في امانة الادب ما انظم من شعر وما اكتب من فصول او مؤلفات » .

قلت : يا ليته قدم النثر على الشعر فنثر العقاد أشعر من نظمه .

اقول هـذا ، ولا ابالي ، اغضب العقاد ام رضي ، فقد واثقت نفسي يوم اقدمت على تدوين هذه الفصول ان اكتب للدهر العتيد ، وبدأت بمن لا اعرف حتى اذا جاءت نوبة من اعرفهم عذروني وتأسّوا .

●

وسأل المخبر عينه مصطفى صادق الرافعي لماذا لا يكتب في القصة ، فأدلى اليه بمقال عنوانه « فلسفة القصة ، ولماذا لا اكتب فيها » (الرسالة عدد ٤٠) .

افتتح الاستاذ مقاله بأنه وضع كل كتبه ومقالاته في قصة بعينها هي قصة العقل الذي في راسه ، والقلب الذي بين جنبيه ، ثم شارك زميله العقاد في تقريع كتّاب القصة بمصر فقال :

« فقام عندنا المتابعون في الرأي والمقلّدون في الهـوى والضعفاء بطبيعة التقليد والمتابعة » . ثم قال : « انا لا أعبأ بالمظاهر والاعراض التي يأتي بها يوم آخر » . الى ان قال : « ولذا لا أمسّ من الآداب إلّا نواحيها العليا » .

وأدب الرواية ماذا يا استاذ ؟ حقاً ان عنب هذه الدالية مزّ ...

وقال ايضاً : « ثم يخيل اليّ انني رسول لغوي بعث للدفاع عن القرآن وفنه وبيانه » .

الحمد لله لم يؤمر العقاد ، فلو أمرناه لكنت رأيت يا رافعي . . . لكان والله فعل في وادي النيل ما فعله لؤلؤ نائب الاخشيد في بادية السماوة ...

فلا تتعنّ الدفاع عن القرآن، فالذي حفظ الأمة واللغة ، حتى سمعناك ناطق بها ، يغلب وحده كل جيش من لحم ودم . ألم يأتك نبأ فتحة اليابان ، فقد آمنوا به ، وما اطلعوا على كتابك « اعجاز القرآن » ! !

ثم قال : « أنا من أجل ذلك أراني الى الآن مع الأدب العربي في فنه وبيانه اكثر مما انا مع الحكاية ولغيها وعواطفها . فاكبر عملي اضافة الصور الفكرية الجميلة الى أدبنا وبياننا ، متحاشياً جهد الطاقة ان انقل الى كتابتي دواب الارض ودواب الناس الخ » .

حاشاك يا استاذ ، ولكن كيف غابت عنك وانت الرسول اللغوي ؟ ان الله لا يستحي ان يضرب مثلاً ما بعوضة ! الا فاسلم لادبنا وبياننا والصور الفكرية الجميلة. بحسبنا منك دواب الارض ودواب الناس.حقاً انها لصورة فكرية جميلة.

اما ما سقته في مقالك عن القصص الرديئة فرأيك كرأي كل ذي لبّ، وكل إنسان يعرفه بالبديهة ، فالأدب كالطبيعة فيها الترياق وفيها السم . وفي الاديان ـ وكلها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ـ ما هو إلهي وما هو غير إلهي ، فكيف بالأدب !

ثم قال ،ويا ليته قال هذا واراحنا : «ان في القصة ادباً عالياً ...ولا ينبغي ان يتناولها الا الافذاذ من فلاسفة الفكر ، والاعلام من فلاسفة البيان » .

ألست انت منهم ؟ فقد كتبت والعقاد مقالات فلسفية حملت المازني انيقول في صددها: والآن فلنتفلسف،وفلسفتنا هذهجديدة،الا انها مستمدةمن سوانا... (قبض الريح ص ٦٢) .

ثم تلوّى الرافعي ولدغ كتّاب القصة بقوله : « اما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص فهم في الادب رعاع وهمج ، كان من اثر قصصهم ما يتخبط به

العالم من فوضى الغرائز » .

الغرائز غرائز يا استاذ ، بقصة وبلا قصة ، والغرائز هي التي خلقت القصة ، ألا فاكتب لنا انت ما يكبت هذه الغرائز ويتسامى بها ويخمد فوضاها ، فانت من سراة الادباء ، ولا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ...

وبعد ، فما تقول بقصة يوسف ، وقصة بوعز ، وقصة داود «ابو التسع والتسعين» وقصة سوسنة ، وقصة راحاب ، وقصة يهوديت ، وقصة دليلة ، وقصة قوم لوط ، وقصة تامار ... اما كل هذه في التوراة ، والتوراة كتاب مقدس ؟

ولكن الرافعي كزميله العقاد يريد ان يطعن في كتّاب القصة المصريين ، فكلهم شباب ما خلا بضعة نفر ، ولهذا ختم فلسفته الطريفة بقوله الرائع :

« اذا قرأت الرواية الزائفة أحسست في نفسك بأشياء بدأت تسفل ، واذا قرأت الرواية الصحيحة أدركت من نفسك اشياء بدأت تعلو » .

اللهم غفرانك ! أيخطر في بال غـــير المهلوس العقل ان يلتمس منك ومن العقاد بابة تسفل ؟ فحانيكما بعض شيء من بابة تعلو ، وانسفا هذه الآداب ، آداب تسفل ، حتى لا نرى فيها عوجاً ولا أمتاً .

ألآن ادبك خلا من القصة ، اللهم الا قصة عقلك وقلبك ، يصبح كتّـاب القصة — الا من استثنيت — رعاعاً وهمجاً ، ويتنزه قلمك عن وصف دواب الناس؟ فما هكذا ينظر كبار الكتّـاب مثلك الى الناس. لقد كان اجمل بالصحف ان تتنزه عن عرض هذه الحضارة الرديئة لتبيعها من الناس كأنها طازج . ولكن ما الحيلة في اسواق لا تراقبها بلدية ولا «صحيّة» ؟ بل ما العمل بكم ؟ ففي عنقكم رقية الشهرة فاستعصيتم على النقد . دامت لكم خرزة العين .

●

هذان رأيان لكاتبين كبيرين من ادبائنا ، وشاعرين ايضاً ، بل نموذجان من ادبنا العصري ، واحد عتيق وآخر جديد ، ثكلتني أمي — رحمها الله — ان كنت اعرف الجديد منهما .

حاشية : هوّنها الله علينا فحاول الرافعي — ولعل العقاد حاول ايضاً ولم أدر —

كتابة قصة (الرسالة عدد ٥٦) إلا انها لم تخرج بعد عن قصة عقله وقلبه ...فهي ليست من الفن القصصي .

ان هذا الفن يحتاج الى اداتين : الطبع اولاً والمزاولة ثانياً . اما المزاولة فلا اضمنها، فقد فات الوقت، إلا اذا كتب قصة حياته فقد يجيدها كما اجاد طه حسين «الايام» . واما الطبع فيما تحسّسته ، وقد تكون الاولى منه فخدعتني عن نفسه، اقول هذا ولا أقطع ، وأترحّم على القائل : ما اهون الحرب على النظّارة .

القصة المصرية بين الشبان والشيوخ

ان القصة المصرية تنشب جذورها في تربة الادب المصري في ثبات، مهما صادفت من صعاب ونكران

جميل جب

كيف تستأصل شجرة غارسها ضعيف ومقتلعها عنيف! أنـّى يكون لنا هذا وعلى بصائر متزعمي الادب غشاوة صفيقة، وفي ابصـارهم قصر لا تصلحه الف زجاجة مقعرة من مصنع «زيس»... ان في نفوسهم لصبوة بجنونه الى «الكليـّة»، فهم، كما يتوهمون، شعراء وكتاب ونقاد، ومؤرخون وفلاسفة وعلماء في كل فن حتى اللاهوت. وصحافيون وسياسيون ودكاترة وشيوخ في آن واحد، بله التبريز والاستاذية. فكيف نحتال لهم لنقنعهم ان العصر عصر اختصاصيين او اخصائيين على لغتي الشيخين: البستاني والمغربي.

فاذا قلت امامهم ان ادب القصة نافقة سوقه حاولوا ان يقطعوك بالحجة، وجبهك الرافعي «بشيء يعلو وآخر يسفل». ويا ليت هذه الكلمة التي راح يمضغها كانت من عنده، ولكنها للعم «لابروير». نقلهـا الرافعي الى لغته فتبنـّاها كما يتبنى هو وغيره من اعلام ادبنا «بنات الموالي»... ولولا يعترفون بالتسري ويقفون عند حد لهان علينا الامر، ولكنهم يحركون من يناضل عنهم كلما هبـّت زوبعة، ويحاولون افهام الناس ان الريح راكدة، بينما العاصفة تكاد تقتلعهم لولا تماسكهم.

فما يضرّ العقاد لو انصرف الى النثر، وفي ابحاث لا يتعداها، واذا كان يجهلها او يتجاهلها دللناه بالاصبع عليها. أيغصب نفسه على الشعر؟ «فمالرب» قضى العمر ناحتاً وما أخرج تمثالاً تتردد فيه روح الفن والعبقرية... والعقـاد رغم اخلاصه لفنه وتضرعه لربة الشعر لم يوحَ اليه بعد ببيت يدور على ألسنة الناس.

ربما لا تكون الرواية دليلاً قاطعاً على الادب الرفيع في نظر العقاد ، وهو ينتظر الخلود المخبّأ — بعد اطول العمر — بين ثنايا الاجيال العتيدة ، اما نحن فرأينا : ان العيون تنم عن الحيوية المتقدة، وعيون شعر العقاد ينقصها البريق والفتون، فلا بريقها يغري ولا فتونها يغوي ، فحرام ان ينصرف عمره في هذه الرياضة، فهو لن يصير من الجبابرة .

وما ضرّ طه حسين لو انصرف الى الترجمة «جهرة» ، والنقد العـــام لا التطبيقي ، والدراسات الفردية — كما اشار عليه المازني منذ اعوام — واختص بتأريخ الادب العربي وتمحيص الرواية ، ولو غوى مع الكثيرين من المتمشرقين وهام في أودية مرغليوث ...

وما ضرّ المازني لو لزم اسلوبه الفكاهي وقفّى على آثار مارك توين وأضرابه؟ فلا خوف على شهرته ولا هو يحزن اذا أدّى رسالته بامانة .

وما ضرّ حسين هيكل لو جاور انقاض هياكل ايزيس وأبيس وسميراميس واختصّ بأدبه الفرعوني وقصصه ، ولو طلست الوانه المصرية وشاهت لهـــذا التعمّد وتتالي الاصباغ .

وما ضرّ سلامه موسى لو اختص بأبحاثه الحديثـــة فأتم رسالة الشميّل وصرّوف ونمر ؟

وما على الرافعي لو ظل « تحت السلاح » للدفاع عن التقاليد والعادات يردي من يتخطى التخوم رشاش مدافعه وبندقياته... ثم لا يتزحزح من مكانه؟ فمقاله « لحوم البحر » ممتع حقاً .

فلو حصر كل واحد من هؤلاء الادباء نفسه في نطاق لا يتعداه لترك في الادب العربي أثراً . هذا اذا اقلعوا عن خطتهم المعهودة وفكروا كثـــيراً . فأدبهم « الانشائي » بل انتاجهم الشخصي ضئيل جداً، وكلما تقدمت بهم السن شاخت فكرتهم وقلّت بضاعتهم وتبخرت بحيراتهم ونصل صباغهم وأنسلوا ذرية ضعافاً — بينما هتلر وعلماء الاجناس يقولون بالتعقيم — فماذا يكون لو بلغوا أرذل العمر ؟

لقد مللنا حديثهم، فما كتبوه — إلا أقله — لا يخرج عمّا يقول لنا الدليل حول

الاهرام ، وبين انقاض قلعة بعلبك ، وأنس الوجود ، وليس هذا بالادب الخالد. ان ما ينقلونه الى لغة العرب يعثر عليه كل طالب ألمّ بلغة أجنبية. فكرت طويلاً فلم أجد لهذا الجمود سبباً الا عصمتهم البابوية ، وتوهمهم ان قراءهم مغفلون يلهونهم بزجاجة حمراء او قطعة ارجوانية، كما كان يفعل الفينيقيون بالاوربيين، رحم الله ذاك العهد . لقـــد توكأوا على الشهــرة ، والشهرة كالسياسة تفسد الفن ، فقلّ اخلاصهم لفنهم وتفه محصول كهولتهم ، رزقهم الله شيخوخة خصبة .

فبينما يقول المتشبرق « جب » مستنبطاً ومتابعاً : ان الشعر الافرنسي والايطالي متأثر بالشعر العربي الاندلسي، وان غوته متأثر بالادب الشرقي، يقوم فينا مقلّدو غوته وغيره، فيقولون: ماذا قال شعراء العرب؟ ان أدبنا سطحي.

أليس عندنا يا اخوان مؤونة شياطينية؟ فمن عندنا هاجر شياطين غوته وغيره من الذين تتمطقون بذكرهم . التوراة والانجيل بين ايديكم وفي متنـــاول كل منكم . أليس شيطان ايوب وشيطان المسيـح افضل من شيطان فوست؟ أليست رؤيا يوحنا أمرع من ملهـاة دانتي ؟ ان في كتبـكم التي تؤمنون بها موحى دونه جبال برناس ، ومرعى خصيب للنفوس الجائعة فأين روادكم ؟

ليس ما ترك الاولون سطحياً ، انما نحن كمن يسكن قصراً دهرياً كان حديث عصره وآية زمانه ، فتركناه على قدامته ، ولم نفتح به باباً او شباكاً او نافذة ، نطلّ منها على الدنيا ، ثم اخذنا نشكو ثقل الهواء ، وعفونة المسكن ، وتداعي الجدران واحداً بعد واحد . هجرناه وتركناه للناس يقلّدون طرازه وينقّحون فيه منقّبين في صحونه وجدرانه عن نقوشه وفسيفسائه ، وقـــد حيّرتهم هندسته وبراعة بنائه ، فأدهشهم الفن الحي .

هجرناه لنسكن بيتاً جديداً مبنياً بالآجرّ ، هجرناه وقد اغلق علينا سرّ فنه . هجرناه لاننا لا صبر لنا ولا جلد على الترميم . يعوزنا العزم لنصلح ما افسده الدهر . فما اشبهنا براعٍ وجد في خرائب جبيل ديناراً اثرياً قال له الاخصائيون هذا فلس ، فصدقهم وباعه بما باع به عيسو بكوريته . ويضرب الله الامثـــال للناس لعلهم يتذكرون .

يقرر جيمس بريستد المنشرق العظيم « ان انخذال المسلمين في اسبانيا كان بمثابة انهزام المدنية امام الهمجية» . ويقول السر تشارلس بارتيس في آخر تاريخ اسبانيا : «ان عصر الآداب الاسلامية فيها كان من ازهى عصور امتزاج العناصر في تاريخ الحضارة » ويقوم اصحابنا يندددون ويهدمون القصور الشامخة ليبنوا بحجارتها « مواقدهم » . يرحم الله ابن خلدون » .

ويقرر المستر جب : «ان النثر العربي اخرج نثر اوروبا في القرون الوسطى من جموده وصرامته التقليديين ، بما منحه من خياله الذي يشبع الحواس » . ونقرر نحن ان الخيال العربي ضعيف متابعين اوليري ، ناقلين عنه ، متمسكين باهدابه كالاعمى بقائده ، ناسين ان جاحظنا كان يخطيء ارسطو كما كان يكذب الاعرابي متى لاحت له في شبهات البحث بارقة يقين .

ويقول الاستاذ جب : « اسمع العرب اوروبا حكايات السندباد البحري وما اليها ، فكانت خميرة للادب الخيالي الاوروبي الجديد الذي زحزح الادب التقليدي وحل محله فنشأت في اوروبا الروايات الرومنتية» . ويقول العقاد : « لا ضير على ادب الامة او الفرد اذا خلا من القصص » . والقصة بكل انواعها عندنا ، حتى الشعر المطلق الذي يحاول أدباء اوروبا اليوم ان يوجدوه ، عمله ابن العميد ومتابعوه ، وان اخرجه المقلدون عما وضع له ، فكتبوا كل شيء بالسجع حتى التاريخ ، فساءت صنعته . الا ان آفة الفن التقليد .

ويقول جب : « ان قصة الف ليلة وليلة التي ترجمت سنة ١٧٠٤ كانت اقوى عضد للادب الخيالي ، ففتنت اوروبا وقلدها كتابهم في قصصهم فاشبعوا نفوس الامة وميول العالم ، واتلدت منها قصة روبنصن وجيلفر الخ.. . اما نحن فخبصنا صحيح الآراء بفاسدها ، والخبيصة اكلة عربية تشتهى .

أيشبع الناس من الفتات المتساقط عن موائدنا ونحن اجوع من البعازار ؟ أيقوم كبار كتابنا ويقولون لا ضير على أدبنا اذا خلا من القصص وادبنا كله قصص؟

اذا قلنا لا قصة عندنا اليوم صدقنا ، اما قديماً فلا والف كلا . أكلكم توما يا أدباء العرب ؟ هاتوا اصابعكم و كونوا مؤمنين .

لقد اخزانا هؤلاء المتمشرقون،فبينا هم ينقبون عن آثار آبائنا وتراث اجدادنا ويدرسون مخلفاتهم ، تراانا في غفلتنا ورحى التنابذ تطحن، يشوقنا ان ننصّر امرىء القيس او نوّثنه ، والاخطل النصراني قال منذ ثلاثة عشر قرناً : الادب لا دين له . ونحن اليوم لا يعنينا من الادب الا الاشادة بذكر فلان وطمس ذكر فلان ، وكلنا يبهر ابصارنا بهرج الشهرة القائمة على مثل قول النابغة : انت اشعر العرب يا ابن اخي . وكم قالها وهو ماشٍ ، فأرضى الناس امس ، واضحك ابناءنا اليوم على مقاعد المدرسة . ما اشبهنا بتلك القارورة التائهة في عرض البحر المتوسط بين فينيقيا ومصر يوم كانت جبيل اورشليم العالم الوثني .

ألم ينبعث توفيق الحكيم بغتة كرجال كهفه،فرأى عالماً جديداً لاعهد له به ولم يتصوره في احلام يقظته . ثم شبّ واجتمع أشدّه بطرفة عين كابطال صاحبته شهرزاد ، بينا غيره يصرف العمر ولا يتمتع بما تمتع به هذا ، ولماذا ؟ لا يجيب على هذا الا طه حسين ، ونحن بالاستقراء .

وحدثت توفيق نفسه ان يشق عصا الطاعة ويخلع عن عنقه غل طه،فانتصب «ارميا» وحاول ان يكسر الجرة على عيون الرجال،ويجعل المدينة خراباًوصفيراً، (ارميا ١٩/١٠)فكتب طه روايته توفيق الحكيم (الرسالة عدد ٥١ص١٠٦٣) « الاديب الحائر » . ولكن لباقة توفيق الحكيم في رده على ولي نعمته طه ، وختام رده البارع اذهبا حفيظة الدكتور لتوفيق، فصب جام سخطه على رأس صديقه الزيات ، (الرسالة عدد ٥٣ ص ١٢) « بين اسلوبين » ، فدار على لسان الامامين ذكر سجع الزيات وثرثرة حسين،والسجع المطبوع خير من الثرثرة المملة، وربّ كلمة جاءت عفواً خلقت حولها اثيراً بديعاً غرقت فيه المعاني القاتمة .

يقول المسيحيون في صلاتهم « الابانا » : كما في السماء كذلك على الارض ، ونحن نقول عن انفسنا : نحن نحن في كل دهر ، كما في السياسة كذلك في الادب، أما تعصبنا امس للاسرة ،فالقبيلة ثم للبلد ثم للاقطار ؟ ان هذا دأبنا اليوم،فقبالة البصري والكوفي المصري والسوري ، فكأنما كتب لهذه الامة ان تتفرق ابداً شيعاً حتى في الادب الذي لم تختلف فيه امة الا بما يختلف به الجنود من سمات

وشيات للطغمات والفيالق ، وكلها للوطن .

الامة في آدابها كالجسم ، يتألف من اعضاء شتى تختلف اسماء وتلتئم لتؤلف شخصية مستقلة هي «هو» اما نحن فلا نعرف حتى «نحن» بل كلنا يقول «انا» . وأنا لا تؤلف مجموعاً ، ولن يصير الفرد أمة مهما ضخم نبوغه وتسامت عبقريته .

والا فكيف نؤول هذا النزاع القائم في مصر حول القصة؟ فماذا يضر الاستاذ عزمي الدويري ومشايخه اذا روّج ادباء الشباب للقصة والفن القصصي ، وقالوا ان القصة اسمى ضروب الادب ، واشيعها ، واخلدها ، حتى يقول عنهم : اولئك الجهال الذين يسمون انفسهم « كتّاب الشباب » .

أ أميون هم يا ترى ، أم شيوخ ؟ عرفت احدهم بحلب فما هو شيخ ولا هو امي ، انه لشاب ظريف لطيف . ان الشباب سيصيرون شيوخاً فما ضركم لو تمتعوا بكلمة «شباب» في حينها كما تمتعتم بها من قبل ايها الاجلاء؟ فالمازني تباهى بها يوم قال كلمته في شاعرية زكي مبارك .

أما قول الدويري ، ولا أدري من قال له هذا : « ومن هنا كانت القصة بين الصيغ الادبية الصيغة الوحيدة التي لا يتطلب التبريز فيها مزية خاصة » .

نعم نعم ، اذا كانت كحكاية ستك يرحمها الله ...

أما القصة التي نحن في صددها وننشدها فلا يحسنها الا العبقري الذي خلق لها . والا لكانت كل القصص خالدة ، وضاقت جنة آلهة الفن على عبادهـا الصالحين والأولياء الصديقين .

أتريد ان اقول لك ولأدبائنا «الغزاة» من هو الروائي؟ اسمعوا غير مأمورين:

الروائي خالق مبدع ، ومصور مثال ، وشاعر كلي الخيال .

الروائي الفنان النابه يخلق عالماً يتحرك وينطق ويحيا ويخلد ، وبخلوده يخلد الفنان ، فالحياة والخلود متبادلان بين الروائي وشخوصه ، تبادل الثناء والتقريظ بين متزعمي الأدب عندكم .

ان ما يخلقه الفنان ويهب له جزءاً من حياته يحيا الى الابد ، ولا يعطش الى الابد من يشرب من ماء بئر الفن ، كما قال يسوع للسامرية .

ان ما يخلقه الفنان يتحرك كلما حركته يد مفكرة او تداوله لسان، ان بين دفتي كتب القصص الخالدة عالماً يتحرك كالبحيرة النائمة اذا داعبها النسيم .

الروائي الفنان يجعل روايته ساحة لعالمه، فتتمثل لك شخوصه بشراً سوياً، وتنتصب حولك كالجبابرة حول سرير الشاعر العبراني، الملك الحكيم، فلا تعود تعلم اين انت . فقد يحملك الرخّ، وقد تركب بساط الريح، وتلبس « القبع الاخفى » . قد تدخل حتى اعماق النفس البشرية فتتغلغل في احشائها، فترى كوائنها أدقّ مما يريكه المجهر، وابعد جداً مما تراه في التلسكوب .

الروائي الفنان الشاعر ينقلك الى الساحة التي خلقها فترى البيوت والاسواق والجبال والاودية والانهار، والسماء والنار، والارض والفضاء، والكواكب والنجوم في رابعة النهار .

الروائي الموهوب يخلق اشخاصاً تتقمصها الروح ولا تتقمصها،فهي تتقمص روح قارئها فتحيا حيناً، كما عاشت زمناً مع من انشأها وابدعها، هذا اذا كان مثله، ولا يتوهم مثلك ان الرواية لا يتطلب التبريز فيها مزية خاصة .

هكذا تتجدد حياة العالم الذي يخلقه الروائي المبدع المصور الشاعر، واذا ترك نام حتى يوقظه مفكر فيحيا بروحه آونة ثم ينام ثم تظل شخوصه تنتقل من روح الى روح الى يوم يبعثون .

تقول : «ان القصة في انكلترةعلى الأقل اخذت تحتضر، فهذا ولز القصصي العظيم قد رأى اخيراً الخ ... والخلاصة عدل عن الرواية الى تأليف الكتب» .

ان احترامي الفائق لولزكم وشبنهوركم وغوتكم ومن اليهم من اساطين ادباءالعالم لا يمنعني ان اقرر واقول : ما هؤلاء الا متقدمون في الاخوة من خدمة الهيكل وسدنته، فما ولزكم إلهاً أن هو إلا بشر، بل فرد من أفراد نوابغ الأدب، والفرد لا يؤلف أمة، والأمة، ولو كانت الشمس لا تغيب عن ملكها كانكلترة، او كان ملكها كالرشيد يومخاطب السحابة،لا تؤلف العالم. فلا تخف ان تقوم القيامة اذا سمعت بزلزال في اليابان. قل لمشايخك اكتبوا فما اخرجت الارض اثقالها...

ان مشفر البعير لا يقع مهما تدلى، فلا تكن كإعرابي تلك الحكاية ... خبّر

جماعتك ـ الكلام في سرك كما روى لنا العقاد عن زغلول ، رحمه الله ـ ان خلوّ ادبهم من القصة ليس بعيب. انما العيب الا يكون عندنا قصصيون، ونحن من علّم اوروبا هذا الفن . لقد طعّمنا الأدب الاوربي يوم كان بريّاً فصيّرناه بستانياً ، فلان ملمسه ، ولذّ وطاب طعمه ، فاشبعنا النفوس الجائعة .

العيب يا صاحبي ان يقال عن سوريا « أهراء رومية » وهي عاجزة عن تموين أهلها ...

إنما العيب ان يتناول المستر جب تاريخ نشوء القصة المصرية ويتتبع تطورها فتخرج من يديه كصبّيرة طومسن ... ولا يرى غير قصة «زينب» قصة مصرية بالمعنى الحقيقي . ثم يعيب خطتها التي لا تكفي ٤٠٠ صفحة ، ويعيب اشخاصها التي لم تركّب بدقة كافية ، ويعيب تصويرهم بطريقة درامية ، لانه جاء ضعيفاً في الجملة . ويعيب طول الوصف ، والقصص الاستطرادية التافهة التي لا تمت الى الرواية بصلة ، ويسوؤه ضعف الخيال ، والحوار باللغة العامية .

لنا احتجاج على الاستاذ جب مع متابعتنا له وشجبنا معه لغة الحوار بالعامية . ان لغة الحوار ايها الاستاذ الجليل مشكلة لم تحل حتى في اوروبا عندكم حيث تتكلمون ـ تقريباً كما تكتبون ـ . فكن رحيماً . اما جماعتنا فنقول لهم : ان جي دي موبسّان استعمل لغة الاقاليم احياناً ، بيد ان هذا لا يبرر استعمالنا لغتنا العامية ، فبين الاثنين فرق عظيم ، وانتم كما نعهد لا تكتبون للمصريين «فحسب» بل للعالم العربي أجمع ، وهذا العالم لا تربطه الا اللغة الفصحى . أما اذا كنتم لا تزالون تدعون لاستقلال الادب الفرعوني الناجز ، فاقطعوا هذا الخيط ...

والى الدويري أعود فأقول: القصة عمل فني جبار، لا كما توهمت فقلت سابقاً. ألم يرَ البروفسور جب في روايات نقولا حداد حركة سريعة ومواقف رائعة ، ثم عاب خطة قصته لانها مفككة ، وتعوز اشخاصها قوة التصوير . اما رأى ان زيدان والمنفلوطي لم يمثلا الهيئة الاجتماعية تمثيلاً صحيحاً في الألفاظ ، وطريقة التعبير عمّا في النفس وخصوصاً في الحوار ؟

أما قال عن قصة « ابرهيم الكاتب » للمازني ، والمازني وهيكل في نظري

ادنى الكتّاب المكتهلين الى ادب القصة : انها لم تحقق ما كان ينتظره المرء منها بعد تلك المقدمة ، وانها ليست قصة مصرية كما افترض المازني ، فبطلها شخصية غربية تنطبق على النزر من المصريين ، والقصة بكاملها غربية في المشاعر والمثل العليا ، والمسحة الأدبية والموضوع . ودراسة عاطفة الحب فيها غربية لا شرقية ، ومظاهرها الخارجية ايضاً من حيث الشكل والأسلوب . ومن امثلة ذلك : كثرة استعمال المجاز والجمل الغربية . واغرب من ذلك كله جرى المؤلف على طريقة اقتباس فقرات من الانجيل في راس كل فصل .

حاشية : ليست الفقرات من الانجيل كما قال جب او المعرب ، بل هي من التوراة . ويظهر لي ان المازني اخذها من الترجمتين العربيتين ، بل المرجح عندي انه نقلها من لغة اجنبية واظنها الانكليزية .

واخيراً قال جب «تأدباً»: ان رواية ابرهيم الكاتب متأثرة بالأدب الروسي. أما الحقيقة فهي ان في رواية المازني فصلاً يعدّ ترجمة حرفية لخاتمة القصة الروسية — رواية سانين — .

أليس من المخجل ان يروي جب ان احد المجددين عندكم قال ، منذ سنوات: ما هذه المناقشة الطويلة حول القصة ، لقد سار الأدب العربي بدونها في الماضي ولم ينقص ذلك من قدره. فما هي الا مثل جديد من أمثلة تقليد الاوروبيين الخ . . .

يا للفضيحة ! ألم تكن القصة عندنا بكل انواعها ، فمَثَلُ من ينكر علينا القصة اليوم كمثل من ينكر على الملكة فكتوريا الرقي والتمدن لانها كانت تلبس من القماش ما يكسو عشراً من ملكات اليوم . او كمن يقول ان لويس الرابع عشر وفولتير امرأتان لأنهما استعارا الشعر الطويل ! !

الخلاصة على الشباب ان يحاولوا ، فالغد لهم لا لنا . ذروهم في غيّهم يعمهون ، فلعل مغامرتهم في هذا الفن تنجلي عن روائي عبقري . انهم يحاولون ملكاً او يموتوا فيعذروا ... الا فاحسبوهم عمالاً في مصنع فاذا انقرض المتمرنون انقرض الأساتذة الكبار . فهل من يزعم ان الطفل يمشي فور انتصابه على قدميه ؟ ألا يقع مئة مرة قبل ان يدرج ! !

اتركوهم يكتبون فلعلهم يوفقون ، فلا يقول الأستاذ جب فيما بعد : « القصة المصرية ،وخصوصاً الأقصوصة ،تقف اليوم في منتصف الطريق...فلا هي حافظت على الصبغة العربية ، والخيال الشرقي الذي يمتاز بكثرة الحركة وتنوع الخيال ، ولا هي وقفت في صفوف القصص الأوروبية . فاكثر القصص المصرية يشع من جوانبها إسهاب في الوصف بما يضجّر القارىء ويدفعه الى الملل والتبرم . وقد حاول بعضهم ان يركز في قصته اكثر من حادثة ، فأخفق . ولهذا أرى — أي جب — ان التقليد في القصة المصرية اكثر من الخلق والابتكار ، وان البعض جاء بدون لغة الحوار التي هي روح القصة » .

هذا ما خطه القلم منذ اعوام بعيدة ، وقد حقق الشباب ، بعده ، شيئاً مما رجوناه ، وان لم يستولوا على الأمد .

قال الاستاذ ابرهيم المصري ، في ذلك الزمان ، رداً على جب : ان القصصي المصري لم يخلق بعد . فقلت له : لا تيأس يا ابرهيم ، وقل معي : ويخلق الله ما لا تعلمون .

واظنه قد خلق ... وما على هذه المخلوقة ان لم تكن ملكة جمال ؟ !

أشياخ الأدب في مصر

اغضبنا عبّاد «الاصنام» من أجل «التوحيد» الادبي فانهالت علينا الرسائل سوداء وحمراء ممن يفكرون بعقول جيرانهم مستهجنين نقدنا ، تارة يسمونه تحاملاً وطوراً يعدونه تهجماً ، ونصحوا لنا ان نتناول غير مشيخة ادباء مصر الوقر ، فيدنا اقصر من ان تنال الثريا . . . فصبرنا على هذه العطعطة ولا نزال ، وكتبنا وسنظل نكتب ، يعزينا اخلاص المنصفين - ومنهم كبار المتمشرقين - وان ضميرنا مستريح.

يتساءل بعضهم : لموضوع الجحارين بقية فأين هي؟ نعم يا اخي للحديث بقية ، ولكن ألا ينقطع مساق حديثك اذا بدا لك ما يهمك اعلانه . فحديث الجحارين كان قد تم لو لم يستوقفني مقال في « المجلة الجديدة » لسلامه موسى - المهداة الى ابني نديم من رفيق له - عنوانه « خصائص الأدب والادباء » نقلته المجلة عن « الفجر » أما كاتبه فالاستاذ محمود سيف الدين الايراني .

أما منو الايراني هذا ؟ فالجواب انني قرأت لهـــذا الاسم في « السياسة الاسبوعية » ، وفي مقاله الذي انقل لك نتفاً منه يرى حضرته رأينا في «متزعمي» الادب الذي يريدون تسميته مصرياً ، وما هو الا أدب عربي بلحمه وعظمه ، ولا أشبهه الا بالماء المتلون بلون الاناء .

تناول الايراني الكتّاب عينهم : طه وهيكل والمازني والعقـاد وسلامه موسى ، وفصّل ما أجملناه . أما كلامنا فإليك بعضه :

«فما يضر العقاد لو انصرف الى النثر وفي ابحاث لا يتعداها ، وان كان يتجاهلها او يجهلها دللناه بالاصبع عليها . أيغصب نفسه على الشعر ؟ الخ . . .

«وما ضرّ طه حسين لو انصرف الى الترجمة «جهرة» والنقد العام لا التطبيقي ، والدراسات الفردية - كما اشار عليه المازني منذ اعوام - واختص بدرس تاريخ

الادب العربي وتمحيص الرواية ، ولو غوى مع كثير من المتمشرقين ، وهام في أودية مرغليوث ...

«وما ضرّ المازني لو لزم اسلوبه الفكاهي وقفّى على آثار مارك توين وأضرابه فلا خوف على شهرته ولا هو يحزن اذا ادى رسالته بأمانة ...

«وما ضرّ حسين هيكل لو جاور أنقاض ايزيس وأبيس وسميراميس واختص بأدبه الفرعوني وقصصه، ولو طلست ألوانه المصرية وشاهت لهذا التعمّد وتتالت الأصباغ .

«وما ضرّ سلامه موسى لو اختص بأبحاثه الحديثة فأتم رسالة صروف ونمر .

«فلو حصر كل واحد من هؤلاء نفسه في نطاق لا يتعداه ترك في الأدب العربي أثراً ، هذا اذا أقلعوا عن خطتهم المعهودة وفكروا كثيراً ، فأدبهم الانشائي بل انتاجهم الشخصي ضئيل جداً ، وكلما تقدمت بهم السن شاخت فكرتهم ونصل صباغهم ، وأنسلوا ذرية ضعافاً – بينا هتلر وعلماء الأجناس يقولون بالتعقيم – فماذا يكون لو بلغوا أرذل العمر » .

لقد مللنا حديثهم ، فما كتبوه ، إلا أقله ، لا يخرج عما يقول الدليل حول الاهرام وبين انقاض بعلبك وأنس الوجود وليس هذا بالأدب الخالد . ان ما ينقلونه الى لغة العرب يعثر عليه كل طالب ملمّ بلغة أجنبية ... لقد توكّأوا على الشهرة ، والشهرة كالسياسة تفسد الفن ، فقلّ اخلاصهم لفنهم وتفه محصول كهولتهم ، رزقهم « ربنا » شيخوخة صالحة .

أما كلام الاستاذ الايراني فإليكه محوطاً بهلالين :

« انما يعنينا ان نتقصى جهود طه حسين والعقاد وهيكل والمازني وسلامه موسى ومن اليهم ، فهل نلمس في اعمالهم صور الحياة المصرية ؟ »

نعم نلمس هذا : أدب مصري، أدب فرعوني، قصة مصرية، صورة مصرية، مصرولوجي الخ. وان تتقصّ ، كما تزعم لنا ، تجد أدباً عربياً عتيقاً كأنه هارب من الصحراء يشطفه العرق ، وقد فصّل سرواله بنطلوناً وعباءته بردوسيّاً ، وحوّل عقاله عصابة للعنق ...

« الواقع انهم يتفاوتون في ذلك ، ونظراتهم وميولهم لا تكاد تلتقي وتتفق ، وهم يختلفون في بعدهم أو قربهم من روح العصر ، وهم يخطئون جداً في تتبع الحركة الثقافية في الغرب ويخلطون بين الصحيح والفاسد... فان طه حسين حين يبحث الأدب العربي يعتمد على نظريات وآراء المستشرقين ، ويشايعهم ويتعصب لهم في كثير من هذه الآراء » .

ليتك كنت اجرأ وقلت وما حابيت : ويأخذ عنهم ...

« وحين يتناول الأدب الغربي يحدثنا عن طائفة من المسرحيات العقيمة لمؤلفين ينكرهم روح العصر . لماذا لا يحدثنا طه حسين – وهو ربيب الثقافة اللاتينية – عن جيد ، ودي هامل ، وبندا ، ودي لاكروتيل ، ومنترلان ، وهنري بربوس . ان هؤلاء يجدّدون في الأدب الافرنسي ويخلقون اعمالاً أدبية ... من وحي العصر في مشكلاته وأزماته . واتجاهاته المختلفة تمثل كلها الروح الأدبي في فرنسا خير تمثيل . أكاد اجزم ان طه لم يقرأ هؤلاء ، ولم يحاول ان يقرأ ، ولو قرأ لحدّثنا عن أثرهم في نفسه ... » .

سبحان الله ، كيف يقول الايراني اليوم في طه ما قاله طه منذ اعوام في شوقي ، أي انه لم يقرأ غير هيغو ولامرتين ومدرستها ، ولم يعرف شيئاً عن مدرسة فرلين وبودلير .

« ولكنه – أي طه – آثر هذه الألوان اليسيرة السهلة وفضّل العرض على الجوهر ، وبقي أسير الأدب البرجوازي المخنث ، واطمأن الى القصر المترف والسيارة الفخمة والحياة الرغدة لأنه هو نفسه لا يستطيع ان يتحرر من قصره ، وسيارته وترف عيشه » .

معذور يا استاذ ، واطمئنانه كاطمئنان شوقي الى القصر وحنينه اليه . وبعد فالكاتب حر فيما يعتنق من مذاهب ، ولا حرج عليه ان هو ابدع .

« ولكن هل نلمس في انتاج طه حسين « الخالص » وحي المجتمع وأصداء الحياة المصرية بما فيها من آلام وأرزاء ومحن وجهاد متصل » ؟

ليس له شيء من هذا ، فلغو الصيف لغو ، و « اديب » كاللغو ، وهامش

السيرة إحياء أدب قديم .

« يعتز الدكتور بكتابه « الأيام » ولكنني اطمئنه فان أقل الناشئين شأناً في اوروبا يكتب أعمالاً أدبية « اوتوبيوغرافية » أروع وأجل من الأيام » .

وهذا ما قاله المستر جب عن كتاب الأيام ننقله عن الأسبوع وهو : يوجد رأي أدبي انكليزي يقول : ان كل انسان في الحيـــاة ، ولو لم تكن له ملكة الكتابة ، في استطاعته ان يكتب قصة باتقان ... ونحن لا نرى هذا الرأي الخ.

« مرة أخرى أقرر ان الدكتور طه حسين يعيش على هامش الحياة المصرية لا تؤثر فيه ولا يؤثر فيها » .

وانتقل الايراني الى هيكل فقال عنه « والدكتور هيكل بك حين اراد ان يكتب في الأدب الغربي راح يحدثنا عن روسو وتين وشكسبير وشلي وبيرون ، ولا ريب ان هؤلاء من عبــاقرة الزمن ، ولكن الدكتور هيكل جمع بينهم على اختلاف منازعهم وجنسياتهم ، وعلى تباين رسالاتهم في الحياة . لم يحاول ان يعطينا عملاً موحــداً عن عصر من العصور ، وعن طور من الأطوار الثقافية ، ومرحلة تامة من مراحل الفكر . بجرد دراسات متفرقة لا يضمها لون واحد ولا يجمع بينها غرض ثقافي معين، ولكن الدكتور رجل مستقل التفكير فهو لا يقلد احداً ولا يسطو على آراء أحد » .

بمن تعرّض يا استاذ محمود؟ ليتك صرحت وعددت الغزاة...ولكنني أعذرك وما اخالك الا تعمل بقول احد ظرفائنـــا لواحد كان يعد السكيرين في ضيعة سوادها يسكر . قال له : عدّ الذين لا يسكرون وخلصنا ... اذا كان هيكل كما تقول فلماذا يحلل الأدباء العالميين ادق تحليل ، حتى اذا كتب مقدمة ديوان شوقي اضمحلت براعة تحليله ، وامحى ذاك الادراك السامي للجمال الفني .

« وهو الى هذا يشعر بوحي مجتمعه وتؤثر فيه الحياة المصرية — في حدود معينة—فينعكس هذا التأثر في اعماله على صور مختلفة تشعرنا بشخصيته، ولكننا نريد التفاتاً اوضح من الدكتور هيكل الى استلهام الحيـــاة في البلاد العربية » .

أنسيت يا استاذ، ان الدكتور فرعوني ، أم رأيته كتب «حياة محمد»فدعوته

الى الفتح والاستعمار ! أولى بهيكل ألا يبرح محيطه فهو كاتب محلي ، وإن نتوسع فإقليمي . اراد ان يكون « رنان » المسلمين فقصّر جداً . وان كان كتاب حياة محمد سفراً نفيساً .

« أما العقاد والمازني فإنهما يتفاوتان ايضاً في الشعور بمجتمعهما وفي نقل صور الثقافة العربية الى أدبنا الحديث » .

قلتها يا استاذ ، اما يستاهل العقاد إلا هذه الكلمة وهو يعتز بفنه اعتزاز الخوري ابراهيم بلحيته الطويلة حتى قيل فيها : اشتر لحيته كما تثمنها انت ،وبعها كما يثمنها هو تصر اغنى الناس .

« وفي رأيي ـ رأي الايراني ـ ان المازني اوثق صلة بالحياة المصرية واقرب الى موحيات بيئته » .

قلت نعم ، فالعقاد مشغول بالغزل الفلسفي ... ولكن اذا لم يكن العقاد وثيق الصلة بالحياة المصرية ، فكيف نظم « هدية الكروان » وقال في مقدمته ، وهو فيها اشعر منه في نظمه : ومن العجيب انك لا تقرأ صدى للكروان فيما ينظم الشعراء المصريون ، على كثرة ما يسمع الكروان في اجوائنا المصرية من شمال وجنوب الخ ... » .

لماذا لم يعتدّ الايراني بهذا الديوان الغالي ويحسبه صلة وثيقة بالحياة المصرية ، أتراه اطلع على يتيمة الثعالبي وقرأ شعراً عربياً في الكروان ، ام انه رأى بشاره الخوري يذكره ايضاً تودداً الى المغنين والمغنيات المصريين ، وما اكثر تودد اخينا بشاره في سبيل نفاق شعره ، حتى غرد الفجر وماجت « الدفقات » ولم يعد ينقصه غير المخضوضر والمعشوشب ...

هب اننا رضينا بهذا العليل ، فهل للاستاذ الايراني ان ينبئنا من اين استوحى العقاد قصيدته الفريدة الخالدة ودرته العصماء .. التي مطلعها :

البيلا البيلا البيلا   ما احلى سلب البيلا

والله ما ادري كيف يكون ناظم هذه الرائعة قليل الشعور بالحياة المصرية .. وقد فاق فرويد في تحليله نفسية الاطفال ، وتكلم بلغتهم في شعره المضحك المبكي

المنوّم كآلة الفارابي ...

« ولكنه ـ المازني ـ بعيد من ان يحدث بأدبه ثورة ثقافية واجتماعية، ذلك لانه يميل بطبعه الى الأدب الفكه » .

« أما الاستاذ سلامه موسى فانه طبقة وحده ليس بالأديب ولا بالعالم ولكنه مزيج من هذا وذا ، وتغلب عليه نزعة « البروباغندا » الاجتماعية ولكنه يتابع التطور الثقافي والعلمي في اوروبا ينقل عنها صوراً وآراء لا يفتر عن بثها والدعاية لها ، وكادت تكون ثقافتنا ناقصة لولا سلامه موسى » .

هذا صحيح ، فسلامه موسى مزيج من فرح انطون وصروف ونمر ، لو كان يحسن التعبير مثلهم . فلو قرأت رأيه (اليوم والغد ص ٢٣٧) في اللغة وعلومها لقلت له معي : الذنب ذنب معلمك يا استاذ .

« فانه في تطرفه وحماسته للآراء والمذاهب الجديدة يحفظ التوازن تجاه الجامدين والمتحجّرين ولم ألمس الشعور بآلام الحياة المصرية ... مثلما لمسته في كتابات هذا الرجل، وهو لهذا اقدر المفكرين جميعاً على اثارة التمرد وفتح العيون على ما في المجتمع المصري من الوان الذل والفقر والجهل ... ».

وختم الايراني مقاله بهذا الحكم القاسي :

« وهناك فريق آخر من الكتاب ، فريق مريض منحل يرى الأدب حلية وزينة أو قطعة لذيذة من الحلوى يمثل هـــذه الطائفة الشاذة : مصطفى صادق الرافعي ، واحمد حسن الزيات ، والشيخ عبد العزيز البشري » .

يا ضياع تعب محمود العريان تلميذ الرافعي وصديقه ونجيه ، فقد ملأ الرسالة بخوراً ونداً ... أحرقه امام صنمه الأدبي . أما شيخنا البشري فمفخرة العرب عند امام الصناعتين، وشاعر الأقطار العربية، الجواد المسياح بالالقاب والمقدمات، فكل الناس عند «خليل» نوابغ وكل الكتب درر غوال، فعلى «الفقير» الراجي خير التعرف الى الجمهور ان يأخذ « منشوراً » من « المطران » المكرمان ...

« قوام أدبهم ـ الرافعي والزيات والبشري ـ التحسين اللفظي ، والمظهر البراق ، والالوان الخيالية « الرومنتيكية » المريضة ، وهؤلاء شرهم كثير ،

فانهم يصدون الناشئة ببهارجهم وحليهم وزينتهم عن الاصول القويمة للادب والثقافة ويحولون بينه وبين عصره الخ ... » اه .

نحيل هذا المقال على من يفكرون بعقول جيرانهم ،ويحسبون نقدنا تحككاً وتحاملاً وتهجماً على « قدس اقداس » الادب العربي – وليس افرغ من قدس الاقداس إلا عقولهم – ويرون في « توابيتَ العهد » ما لم يحلم به بنو اسرائيل حتى جرّته البقر وأعادته اليهم بلا رهبة ولا اجلال ...

مجمع اللغة العربية الملكي

دعست على غطش وبغش وصحبتي　　سعـــار وارزيز ووجر وافكل

كم كنا نقلب شفتنا السفلى ، وكم كنا نمطها كلتيهما عندما نقرأ هذا البيت ، وكم كان يتمطق به استاذنا الجليل ، رحمه الله ، عند شرحه له اجمالاً وتفصيلاً ، بعد تغنيه واعجابه بأخٍ له من قبل ، وهو :

ولي دونكم أهلون سيد عملّس　　وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

فيقف عندهما وقوف امرىء القيس بسقط اللوى بيـن الدخول وحومل ، فيرى في الشنفرى بطلاً صنديداً وشاعراً فحلاً خنذيذاً .

كان استاذنا ـ دفّأ الله ضريحه ، فهو مقبور في صرود لبنـــان ـ مفتوناً بالغريب متيماً بالالفاظ الضخمة القعقاعة ، لا يرضى الكلمة اذا كانت اقل من رطل وزناً ، وكان يعجب حتى الجنون بقول الشاعر :

وادكن عاتك جحلٍ ربحلٍ　　الـخ　...　...　...

حتى كنا نرى كل شعرة من لحيته ترقص ، وتقطر لذاذة . ويـكاد يريل كمن ينظر الى أكلة يشتهيها . ولا ازال كلما اذكرته اخال كأنني في حضرته اسمعه يقول لنا : انظروا معي يا اولادي وتأملوا ما ادق هذا البيت ...

سبحان محيي العظام وهي رميم ، جاء من يعرفك يا خرّوب ، فهذا المجمع العلمي المصري قد انسل اليوم الى سراديب المعاجم واقبية اللغة وفتش بين الخرثي وسقط المتاع حتى اذا وقعت عينه على « الارزيز » اخذها بيدها قائلاً لها بلهفة : قومي يا حبيبتي ، حمداً لمن أراني محيــاك الوسيم . انت « التلفون » . وهـكذا انتقى لأحدث اختراع اعتق لفظة .

هـكذا تحيا الألفاظ ، وهـكذا تكون « الرجعة » يا من يدينون بها ، من

جبران الى نعيمه فصاعداً ، ومن فلامريون الى هيغو ولبنز وفرجيل وافلاطون فنازلاً ، وهكذا يبعث من مدافنه الكلام ، متى نفخ في صور التجديد ، ولماذا لا ؟ أما معنى الارزيز الطويل الصوت ؟ وهل اطول من صوت تسمعه من لندن ونيويورك ؟ ثم أليس شريط التلفون طويلاً وطويلاً وطويلاً... وان توفّ الطول حقه من التعبير الطهحسيني الطريف ، يجب ان تردد كلمة طويل مليون مرة . عفواً سادتي اعضاء المجمع قلت «مليون» وقد تكونون قررتم «ملائكة وربوات» فأنا لم اطلع بعد على المجلة التي اخرجتموها للناس، اما الارزيز واخواتها الجميلات فقد بشّرني بهن سلامه موسى في مجلته الجديدة .

وعلى قياس الارزيز يجب ان نسمي الكهرباء « الأفكل » فكلتاهما في بيت واحد ، ومعنى الافكل الرعدة ، والكهرباء ترعد ، وبهذا يقر الشاعر الصعلوك عيناً ونحصيه مع المعري، ويكون قد تنبأ على التلفون والكهرباء، كما تنبأ المعري على مذهب النشوء والارتقاء ، قبل ان قال به داروين ، أما قال المعري :

والذي حارت البرية فيـــه حيوان مستحدث من جمـــاد ؟

فعلى خطة « الشميّل » في تفسيره وتأويله يكون المعري عرف الطيارات والغواصات ايضاً قبل اختراعها ، او لم يقل :

اقلقتم السابح في لجـــة ورعتم في الجو ذات الجناح ؟

لله نحن ، تهزّأ المعري منافقاً بقصة الخلق فقلنا ادرك سر التطور . واغرب من هذا قول احدهم ، ان شكسبير عربي اصله ، وتعريب اسمه « الشيخ زبير » وفي « الرسالة » من يحاولون ان يجعلوا لامرتين عربياً . فكيف رأيت ؟

أظن ان المجمع العربي المصري يسير على ضوء هذا المصباح في تعريبه الاسماء، حتى يرى في اللغة العربية اسماء « ما يرى وما لا يرى » . فإن كانت كل اعماله كهذه الخربشة فبشّر لغة الكتاب الكريم بنصر من الله وفتح قريب .

كنا نعلم ان فينا عقولاً متحجرة ، وان فينا من لا يقلعون ثيابهم العتيقة لئلا يبردوا ، اما ما رأيناه فما ظننا قط انه سيكون .

اذا كان التلفون ارزيزاً والراديو واحياً والدبركسيون دوطيرة، والمتر ذراعاً

افرنسية ، والموتوسيكل زفزافة « وهذه الزفزافة خير اخواتهـــا البشمات » فواخجلنا من العباسيين اذا بُعثوا ورأوا أحفادهم يعرّبون هكذا .

ماذا يقول اولئك الذين عربوا: الاستاذ والساذج والبرهان والبرواز والدينار والسراج والمنجنيق والحرباء والدستوالدستوروالدرفس والبيرق والبند والدف والدكان والدولاب والدفــتر والدلو والدهليز والرطل والخز والطيلسان والوفا غيرها ، وهي تكاد تكون بلفظها الاعجمي ، لقد عربوها ولم يستنكفوا عن عجمتها بل صبّوها في قالب عربي ولم يبالوا .

ما هذا يا سادتي العلماء ؟

أيرضى بالارزيز من لم يعجبه الهاتف ؟ رحماكم بهذا اللسان ، فالذي لا يتطور لا يكون من الأحياء . أما أخذ الفرنجة : البرنس والمسكين والدرويش والديوان والصفة ومئات غيرها بلفظها ، وأدخلوها في معجمهم ، فأي عار لحق لغتهم ؟! أما ان نظن ان لغتنا كما وصفها حافظ ابرهيم تماماً ، فهذا لا أدري ما أسميه .

فعلى قياس تعريبكم المتر بالذراع الافرنسية واليرد بالذراع الانكليزية ماذا كان يجب ان يعرّب العرب كلمة رطل ؟ بل ماذا كان يجب أن يقول الفرنجة بدلاً من درويش وديوان وصفة الخ ؟ . هذا سؤال نطرحه عليكم حتى اذا أفتيتم ــ مأجورين ــ تدارك المجمع العلمي الافرنسي خطأه وأصلح معجمه .

فحنانيكم سادتي،وعربوا الالفاظ تعريباً لا يقطع الصلة بينها وبين المسميات، اتركوا فيها رمقاً من الحيــاة . أيكون العباسيون احذق منــكم وانتم من خير رجال العلم ؟

أما عرّب العرب الدولاب وعندهم المنجنون ، والدكان وعنــدهم الحانوت ، والطيلسان وعندهم أسماء كثيرة عربية ؟ أما عربوا المهر وعندهم ما يضاهيها ، واشتقوا منها فعلاً « مهر » ، أما عربوا السراج وعندهم المصباح ، أمـــا عربوا الدرفس والبيرق والبند وعندهم العلم والراية والغاية «الغاية بمعنى العلم» للالثغ» ، أما عربوا الخلخال وغيرها حرفياً ، أما عربوا الرطل من (رتل) الفارسية ؟ فلماذا تأنفون انتم من المتر والتلفون واليرد والراديو ؟

هذه بليّة والله ما توقعناها ، فيسّروا سادتي ولا تعسّروا ، قرأنا في الاهرام وصف جلستكم الاولى ، وطالعنا خطبكم وقصائدكم ومقاييسكم فسررنا وتفاءلنا ، ولكن أرزيزكم ودوطيرتكم وذراعكم الافرنسية والانكليزية وما اليها خنقت في الصدر كل أمل .

أتكأكأتم يا قداميس اللغى ، لتأتوا بالحديدبى ! ؟

أليس بهذه الألفاظ الرشيقة يجب أن نخاطب من يسمون التلفون ارزيزاً ؟ ..

الأدب والنقد في مصر

بين احمد امين وطه حسين

وهناك نوع من أرقى انواع الادب وهو النقد ، واقول بكل اخلاص ان النقد عندنا ضعيف . ثم قال في مقال اذاعته الرسالة في عدد ١٥٥ : من هو هذا القائل ؟ لان النقد اول شروطه الحرية ، الحرية العقلية ، والحرية العلمية ، والحرية الادبية ، فهو لا يعرف الصداقة ، ولا يعرف الاكبار والاجلال ، ولا يعرف المجاملة والمداجاة .

حسين هيكل

اني أوازن بين النقد من نحو عشرين عاماً والنقد الآن، فأجده ليس خاضعاً لسنة النشوء والارتقاء ، بل لسنة التدهور والانحطاط حتى وصل الى حالة من العجز يرثى لها .

احمد امين

حياتنا الأدبية في هذه الأعوام الأخيرة فاترة راكدة لا يظهر فيها نشاط ولا انتاج ، قد تمضي الأعوام دون ان يظهر في أفقنا الأدبي رأي جديد ، او فكرة طريفة ، او دعوة الى مذهب لم نعرفه من قبل ... غرّنا الثناء فتهنا وأعجبنا بأنفسنا وشغلنا بها عن المضي في طريقنا . خدعنا بما كان يكتب عنا فأخذنا ننقله ونترجمه ونتناوله بالتفسير والتعليق، وأخذ كل واحد يستزيد من هذا الثناء ومن اذاعته ، ويلتمس لنفسه الانصار والشيعة . وعللت النفس بأن وقت هذه الفتنة لن يطول ،وبأننا لن تتجاوز عاماً او عامين نستريح فيها من الجهد العنيف الذي بذلناه ، ثم نستأنف النشاط والانتاج ، ولكننا مع الأسف لم نصنع من هذا شيئاً انما مضينا في الراحة وما زلنا الى الآن نستريح ...

وقد لقيت من منذ أعوام بعض المستشرقين في اوروبا وكان يعنى بآدابنا الحديثة

فسألته عن رأيه في حياتنا الأدبية فانبأني بانه ينتظر شيئاً جديداً ، ثم سألته منذ وقت قريب السؤال نفسه فأجابني بانه ينتظر شيئاً جديداً . الخ . طه حسين

يا استاذ سلامه « موسى » كيف تلومنا على التعمق في دراسة الأدب العربي وليس في مصر من يفهمه فهم العلماء اكثر من عشرين رجلاً ، مع ان مصر سكانها نحو خمسة عشر مليوناً . كان لك ان تقول ذلك لو كنا نصدر في كل عام نحو مئة كتاب في الأدب العربي، ولكنك ترى الدراسات الأدبية في تخلف فاضح ، وترى من يسيطرون على دراسة الأدب في الجامعة المصرية يحملهم الجهل على سرقة آراء المستشرقين كما يفعل صديقنا العزيز طه حسين . زكي مبارك

ان الأديب لا يهدمه النقد فهو كائن ممتاز لا يهدم إلاّ باذنه ، ولا يقضى عليه إلا بارادته . ان الأديب لا يموت مقتولاً بل يموت منتحراً ... ومع ذلك فاني لا أحب للمؤلفين ان يغضبوا على أي حال فان الغضب علامة الضعف الآدمي .

توفيق الحكيم

أما السبب في ان كل انتاجنا الأدبي هو للفناء فراجع الى انه أدب مسروق، أو على الأقل أدب مسلوب من آداب الأمم الأخرى، وليس فيه من آثار المصرية إلا أنه مكتوب بلغة عربية ولكن باساليب أصبحت بدورها أضعف من أن تحسن أداء رسالة الأدب . اسمعيل مظهر

فاذا أردنا جيلاً جديداً ينشأ على مزاج ديمقراطي فاننا يجب ان نهيئه بالعدة الذهنية التي يستخرج فيها هذا المزاج ، وهذه هي مهمة الكاتب المجدد في مصر ، هذا الكاتب الذي يأسف الاستاذ احمد امين على وفاته ، وزواله من عالم الأدب في مصر . سلامه موسى

وبعد فقد كتب الزيات أحد بهاليل مملكة الأدب العربي مقالاً عنوانه «النقد المزيف » كر فيه كرة عنترة المعلومة في قصته الشهيرة ، على « رجل يقعد بـه العجز عن اللحاق بالقادرين فيقف نفسه موقف القائد الحصيف يلمز هذا ويتنادر على ذاك ، ويزعم أنه وحده المسيطر على ثمرات الذهن ، فيحكم بذوقه الخاص على هذه بالقبح وعلى تلك بالفجاجة ، وأمره كله لا يخرج عن مألوف الطباع الساخرة

الفكهة الخ » (الرسالة عدد ١٥٠) .

أرأيتك ماذا فهمت ، أرأيتك هل عرفت من يعني الزيات ؟ أمـــا أنا ، وحياتك ، فما فهمت ولا دريت ...

لا شك ابداً أنك قائل ماذا يقول مارون عبود ، اننا لم نفهم مـــاذا يقول فنجيب : حقك عليّ يا قارئي فما كلفتك قط فك الطلاسم ، ان « أرأيتك » هذه من منبوشات المصرولوجي احمد حسن الزيات ، وهي اسم فعل بمعنى أخبرني (الرسالة عدد ١٥٠ ص ٨٠٢) فقولي لك: أرأيتك ماذا فهمت ؟ كأنني أقول لك: أخبرني ماذا فهمت. أرأيتك هل فهمت ؟ إذن قل : حيّا الله الفصاحة والفصحاء والبلاغة والبلغاء ، وعاش كارنافون لغة العرب الشيخ احمد حسن الزيات . فعسى « أرأيتك » هذه ان تجبر خاطر احمد امين المفتش بفانوس ديوجين عن المجدد المصري.

وما مر اسبوعان على ظهور مقال الزيات « النقد المزيف » حتى قرأنا لاحمد امين صاحب « فجر الإسلام وضحى الإسلام » مقالاً ملخصه : ان النقد قبل عشرين عاماً كان أخصب وأقوى وأعمق ، وذكر بالخير اليازجي ونقده لـ « مجاني الأدب » ، و « أقرب الموارد » ثم قال : لست انسى ما نقد به كتاب « التمدن الاسلامي » والأخذ والرد اللذين قاما حوله. وكان شوقي أو حافظ يقول القصيدة فيقوم ناقد معترض يبيّن معايبها ، ومادح مقرظ يبيّن محاسنها ، ومن هذا وذاك يستفيد الأديب ويرقى الأدب ، وتتجلى حقائق كانت خافية ، وتتهذب أذواق كانت نابية . وكان يؤلف الكتاب الديني مثل كتاب « الإسلام وأصول الحكم » فتنشب معارك حامية ... وكان في نقدهم أحياناً هجر وقذع وهجو وسباب ... وكان كل من السباب والنقد العنيف علامة حياة أدبية وثورة فكرية وعقل باحث وقلم نشيط .

ورأى الأستاذ أن الانتاج الأدبي تضاعف وتعددت نواحيه ، وكثر الكلام في الأدب العربي وارتقى في جملته ، أما النقد فانكمش ، وانكمش حتى ضمر وذبل واشفى على الهلاك ، فصارت الكتب تنقد نقداً لا يعتد به . يكتفى باسم الكتاب وعرض موضوعه مستعينين على ذلك بفهرسه ومقدمته ، ثم صيغة محفوظة متداولة من المدح والتقريظ فيلقي الناقد عن عاتقه العبء بكتابة كلمة خاملة ، ووصف

فاتر ، ونقد سطحي .

وقال : ان النقد في الغرب يرقى رقي الأدب ويؤثر كلاهما في الآخر تأثيراً محموداً ، وبعدما فتش عن علة ضعف النقد العربي تراءى له انها علة محلية لا علة طبيعية فشخّصها بما معناه :

النقد الصريح الصحيح يحتاج الى شجاعة أدبية قوية من الناقد ورحابة صدر من المنقود ، وان مثل هذا حدث في تاريخ مصر الحديث ، فكان صراع بين القديم والحديث ، وبين التفكير الحر والتقاليد ، وبين الأدب الناشىء والأدب الموروث ، انتهى بهزيمة المفكرين وتعرضهم للخطر في مناصبهم وأرزاقهم ،ونالوا من العسف والعنت ما ليس في طاقتهم فتخلى عنهم اتباعهم في وقت الضيق ،ومن عطف عليهم فعطف افلاطوني عطف يتبخر... فانهزم فريق المفكرين الصرحاء هزيمة منكرة أمام الرأي العام المسلح فرجعوا عن رأيهم وداروا الرأي العام وجاروه ، فلم يعد هناك معسكران ، ولم يعد صراع بل معسكر واحد ولا قتال ... وتعلم الجيل اللاحق من الجيل السابق وأخذ الدروس عن أخيه الأكبر ففضل السلامة... وبذلك اختنق النقد الأدبي في مهده، وأصبح الأدب مدرسة واحدة لا مدارس متعددة تتناحر وتتعاون ، وتتعادى وتتصادق، وفي عداوتها وصداقتها الخير .

ثم يقول : الأدباء عندنا صنفان ، صنف نضج وتكوّن واستوى على عرش الأدب وهؤلاء هم القادة ، وهم أفراد معدودون تسالموا وتهادنوا وأصبح كل منهم كالعشراء لا يميلون الى النطاح ولا يرجون إلا السلامة. وصنف ناشىء هو في طور التكون يخشى أن يتعرض لمن استوى على العرش ، فيبطش به بطشة جبارة ترده الى أسفل . فلما جامل الكبراء بعضهم بعضاً ، وخاف الناشئون من الكبراء ضاع النقد بين هؤلاء وهؤلاء .

وعزا الى السياسة بعض أسباب ضعف النقد، فانها نصرت الجماهير على القادة، وعاونت الرأي العام على المفكرين. ثم انها قومت الأديب بلونه السياسي فأفسد ذلك الأدب والنقد معـــاً . وقال ايضاً ان السياسة تلعب هذا اللعب في الأمم

المتمدنة ولا يكون لها هذا الأثر، لأن الخصومة السياسية عندهم لا تفقد الصداقة في أغلب الأحيان ، وكذلك الشأن في الخصومة الأدبية ، أما الأمم الناشئة فلا تفهم من الخصومة السياسية والأدبيـــة والعلمية إلا العداء العنيف ، وفي العداء العنيف قتل للحرية .

وختم مقاله بهذه العبارة : وهناك أسباب أخرى غير مـــا ذكرت لعل الكتّاب يعرضون لها فيكشفون عن أسباب هذا الداء الخطير ويصفون له مـــا يتطلب من دواء ناجع ...

انتهى ملخصاً تارة بالحرف وطوراً بالمعنى وقد تركت ما لا يخل حذفه بالمعنى، وإن أطلت عليك الكلام في تلخيص مقال احمد امين فسألخص لك رد طه حسين تلخيصاً لا تملّه .

بدأ طه حسين كتنـّين يونان يشخر وينخر ، وأخذ يدور ملتفاً على نفسه دوران أعصار فوق كثيب رمل ، أو كعفريت الف ليلة وليلة وقد أفلت من القمقم... ثم ختم المقال كار بولس في رسالته الى أهل غلاطية : انظروا ما أكبر الحروف التي كتبتها اليكم بخط يدي ... واليك ملخص ما قال :

قال في الفقرة الأولى أنه لا يجادل أخاه العزيز احمد امين في مقاله «في النقد» لأن الفصل فصل صيف ، وهو لو أرسل نفسه على سجيتها لما جادل ولكنـــه مدفوع هذه المرة لأن احمد امين كان غير منصف حين عرض لقضية النقد وقضيّتهم في النقد عرضاً سريعاً (كذا) .

أي أن احمد امين مرّ بالهيكل فلثم خد البـــاب ولم يدخله ليؤدي السجود « لأبي الهول »... فكل ذنب احمد امين أنه لم يسم طه حسين المالك سعيداً على عرش الأدب في مصر ، بل مر به مر الكرام ، ولم يذكر مـــا قام حول آثاره الأدبية من ضجيج في العشرين سنة ، كما قال في كتاب الإسلام وأصول الحكم، وهذا ما آذى طه وأحفظه ، وطه كآل ابن شمّاس الحطيئة : اذا غضبوا جاء الحفيظة والجد.

ثم أعاد ما قاله احمد امين في النقاد وكيف شايعوا الجمهور بعد تمردهم وكيف كانوا خائفين على عافيتهم ومناصبهم، ثم تبعهم اخوتهم الصغار فصار الأدب تقليداً

وتملقاً ، والنقد مصانعة ومتابعة . وبعد ما صرح طه ان هذا التصريح يؤذيه أكثر مما اذاه كل ما لقي من مشقة واعنات ، راح يصف لنا ما عرفناه عن جهاد الوفديين والكتّاب الذين منهم ، وطه أحدهم ، وهنا صار حديث الأستاذ أشبه باحاديث النساء اللواتي يتعايرن قائلات : كنتم وكنا ، صنعنا وفعلتم ، وعملنا وسوّيتم ... وإليك نموذجاً واحداً مما قاله لاحمد امين : كنا نغالب الأمواج وكنتم تقومون على الشاطىء ... ثم قال ان السياسة العنيفة المنكرة لم تشغلهم عن الأدب ولا عن النقد ، وانهم كلهم أنتجوا أثناء المحنة ...

قلنا : ان احمد ينظر الى الكيف ، وطه ينظر الى الكمّ ، ونحن واحمد امين ، وهيكل ومظهر ، وطه ايضاً متفقون على أن هذا الانتاج من الصنف الرذل ، فهو لا يدل لا على تفكير ولا على ابداع ، وما هو إلا كلام مرصوف ، وحديث مكرور ، بشهادة طه نفسه ، راجع كلمته في صدر المقال .

ثم يعرض طه بوجه خاص للنقد فيقول : انهم كانوا برغم السياسة وأثقالها وأهوالها يقرأون الكتب والدواوين ويقولون رأيهم فيها، ويفرضون على أنفسهم صفحة أدبية في الأسبوع يفرغون لها اليوم أو أكثر من اليوم، ثم ذكر ما ثار بينه وبين هيكل حول ثورة الأدب ـ كتاب لهيكل عنوانه ثورة ، ولكنه سلام وطمأنينة ـ وبينه وبين العقاد حول اللاتينية والسكسونية، وبينه وبين العقاد ايضاً حول ديوان من دواوينه . ثم ذكّرنا أنه كان يحدث الناس في الراديو وينتقد .

لا شك أن طه حسين كان أكثر الأدباء المصريين كلاماً في الراديو ، ولكن كلام طه أعجبنا منه ما كان في فجر أدبه وضحاه ، أما ما يكتبه ويحدثنا به في عصارى نهاره فيدل على أنّ طه لا يحترم نفسه وقراءه، أو أن جعبته فرغت، وما كلف الله نفساً فوق طاقتها .

وهنا ذكر طه احمد امين أنه أتيح له الهدوء واستمتع بالبال الرخي والحياة المستقيمة المطمئنة ، وما نقد لأنه لا يقرأ ، أو لا ينقد لأنه يقرأ ويشفق من أن يعلن آراءه ، فيتنكر له الناس ويسلقه أصحاب الكتب بألسنة حداد . .

قلنا نحن لم نقرأ نقداً لاحمد امين لأنه غير ناقد ، ولكننا قرأنا له كتاباً نفيساً

هو «فجر الاسلام وضحى الإسلام» وعرفنا أنه رجل بقام ثلاثة . . . أما قام وحده بعمل أعلن طه أنه هو والعبادي شريكاه فيه ، ثم ارفضا عنه فبقي وحده ، وأخرج هذا الكتاب القيم الذي لا أعدل به أي أثر أدبي مصري آخر ؟

نعم انه ككل أدب اخواننا المصريين يعول على المتمشرقين ، ويصاب أمامهم بشلل الفكر ، ولكنه ، كيفما دارت به الحال ، كتاب ظريف صريح بمقدار . فاحمد امين تاجر سليم الذوق يعرف كيف ينتقي السلع من البندر ويحسن عرضها في مخزنه . . .

وعرض طه ايضاً للادباء الناشئين فقال انهم ضعاف اثرون عجلون ، ذوو كبرياء لا تخلو من سخف ، ومن سخف يذكر باخلاق الاطفال . يستعجلون الشهرة ويريدون أن تتم لهم ما بين طرفة عين وانتباهتها ، يرون لأنفسهم العصمة ولا ينتظرون من النقاد إلا ثناءً وحمداً . جيل رخو . الخ .

ثم أعلن طه أنه مستعد الى أن يستأنف ما فعل منذ عشر سنين . والى أن يستأنف أيضاً ما فعل منذ أربع سنين .

فلننتظر نحن واحمد امين ، وعسى أن يكون أدباً سميناً رصيناً ليس من نوع خالف تعرف ، فهذا يكون في الانقلابات السياسية ، أمـا في الأدب فيمر مر العاصفة ويكون الهدوء . ليعمل طه اثراً خالداً يذكر له إن كان يستطيع .

وشاء طه ، وهو لا يحب الشهرة كالجيل الناشىء الرخو ، أن يخبرنا أن الاستاذ كراتشكوفسكي ترجم كتابه «الايام» وقدم له ، فقال لاحمد امين : «اني لشديد الأسف ان كانت ثقة الاستاذ كراتشكوفسكي بي أشد وأقوى من ثقتك أنت ، فانه لم يتردد في مقدمة ترجمته للايام أن يتنبأ (كذا) بان مـا عرض لي من الخطوب ليس كل شيء وانه ينتظر أن يعرض لي مثله » اه .

– ٢ –

بين امين وطه وهيكل

أسمعت بأذنك أن طه حسين يرى الأدب كله في ضوضى يهيجها ، فيقوم لها

الر ي العام ويقعد، فما مثله في الناس إلا شاعر يرى كل «فنه» في تصفيق النظّـارة.

لقد أثار كتاب طه « الشعر الجاهلي » نقعاً كالذي وصفه أعمى البصرة وهو منبطح في دهليزه كالجاموس ، ولكن هذا الرهج ما لبث أن همد وسيمحي أثره يوم تتسع ثقافة الشباب وتعمق إذ يعرفون مصادره كما عرف ذو الصليب منبع الفرات المسحنفر من بلاد الروم .

ان أنبياء الله قد ختموا ، ومع ذلك فاني اتنبأ لطه كما تنبأ له كراتشكوفسكي ، وما يمنع أن يكون بين الأنبياء شاوولان جديدان؟ ان كتاب طه «الشعر الجاهلي» يظل قيدوم آثاره ولن يقدر طه على خير منه . أما حاول أن يثير في «على هامش السيرة » ما أثاره في الشعر الجاهلي فقعد ملوماً محسوراً ؟ ما طن كتابه الجديد كما توقع ، ولم يؤاخذه أحد بكلمة الا العقاد . قلت كلمة ، نعم كلمـــة واحدة فقط لا غير ، وأظنها « الوجدان » ان لم تخني الذاكرة . فقد قال العقاد : ان الوجدان لم تكن مفهومة في جيل أصحاب السيرة بمعناها المجازي اليوم . ولامه ايضاً حسين هيكل على ابتداعه أساطير جديدة أضافها الى السيرة النبوية . قلت «ابتداعه» فعفوك أيها القارىء فليس طه من المبدعين ولكنه يستعير . قد استعار بعض أساطير قديمة زاد فيها قارىء السيرة عمى ، في حين أن حسين هيكل قام يحاول الاقلال منها في كتابه : حياة محمد .

فلندع ذا ، كما يقول الجاهليون في تخلصهم ، لنعود الى رد احمد امين على طه ، قال احمد :

تظهر كل عام كتب لهيكل وطه والعقاد والزيات ومبارك وغيرهم ، وتنظم قصائد وتنشر روايات ولا تنقد ، ثم يخص بالذكر كتـاب محمد لتوفيق الحكيم ويذكر كيف مر بسلام .

قلت : أين الروايات يا استاذ لمن سميتهم ؟ أهي « اديب » طه حسين ! وأي شأن لرواية كهذه ؟ شاء الدكتور طه أن يكون فيهـــا قصصياً فكان محدثاً كالحارث بن همام وغيره من فصحاء المقامات ، وشاء أن يكون من علماء النفس فكان من رصّافي الكلام ، فتمطط في الحديث حتى كتب في مئتـــين وإحدى وخمسين صفحة ما كان في مكنته ان يلزه ويحشره في صفحات تؤلف أقصوصة

لا قصة. ولكن طه مولع بالتبسط والتمدد كخباز ابن الرومي ، أو في التشابك كقالي الزلابيه فيرميك بصفائح براقة كلفائف الشكولاتا ، تحسبها ذهباً أو فضة وما هي غير قصدير .

أما كتاب محمد لتوفيق الحكيم فلم اقرأه بعد ولكنه صار عندي ،وأنا زعيم لك، كما يقول طه حسين، أنه لو صدر قبل أن شق توفيق عصا الطاعة ووقف في صف الخوارج لسمعت طه يقول في مقدمته : ومن الخير لي ولك أن تقرأ هذا الكتاب ففيه الأدب الممتع كله ، والمتاع الفني كله ، والبلاغة كلها ، وأنا زعيم لك بأنك سترى فيه ما رأيت وتقول ما قلت الخ . ولكن هذا التوفيق الحكيم صار للعبودية كارهاً وأبغض المسيطرين ، فدفع كتابه الى المطبعة تو"اً فكسب احترامنا لاعتماده على نفسه ،وأراحنا من مقدمات طه اللولبية التي يرفع عقيرته فيها مردداً عشرات المرات كلمة أو فكرة يعثر عليها في كتاب يقدم له،فيذكرنا بالدلالين الذين يؤجرون على نفاق خرثي" البيوت، وما يطرح في السوق من سقط المتاع .

ثم قال احمد امين ان الأفكار في مصر مكبلة مقيدة فالمواضيع التي بحثت منذ ألف سنة ولم يمس أصحابها بأذى يعرض لها اليوم بعض الكتّاب في مصر فيقرر مجلس الوزارة مصادرة كتبهم ولا أحد يحرك لذلك ساكناً. ويرى احمد امين أنه لو وقع هذا الحادث من عشر سنين لقام له الكتّاب الأحرار وقعدوا ودافعوا وانتقدوا .

ورأى ايضاً أن لجنة التأليف والنشر ـ جزاها الله صالحة ووفق السيد منير الحسامي الى انشاء مثلها في قطرنا الشامي ـ تصدر كتباً ومـــا من ينقدها ، فاستدل بهذا وبغيره على ضعف النقد ، وبيّن كيف ينظرون الى الناقد في الشرق وكيف ينظرون اليه في الغرب ، وشبه الناقد بالقاضي الذي لا يجب أن يعول على وجدانه فقط .

قلت : ان طه صار من هذا الضرب ولم ينقد نقداً فنياً موضوعياً إلا ثلاث مرات ، الأولى والثانية في شوقي، والثالثة في حافظ ، أما فيما بقي من الفصول التي حبرها في النقد فقد حكم « تأثره » في الآثار الأدبية فكان كالنقـاد الذين

يسميهم الفرنج « impressionnistes انطباعيين » ، وبعبارة أفصح اني أشبّه طه في نقده اليوم بالقصّاب الذي يخترق القطيع فيمس ظهر هذا الكبش ، ويروز الية ذاك ويجس عصعص ذلك التيس ، ثم يخمن ما مسّ وراز وجسّ كما يخال . هذا ما يريد أن يقوله احمد امين ولكنه لا يجرؤ على التصريح به لجبّار الجامعة المصرية لأسباب ستعلمها من رد حسين هيكل الذي يأتيك خبره الآن .

ثم عرض احمد امين لقول طه حسين عنه أنه لم ينقد فرد عليه بقوله : وهل من العيب أن يشرح المريض مرضاً عاماً أصيب به هو وغيره ؟ وهل يحجر على الانسان أن يقول أن هذا ليس بجميل إلا اذا كان هو جميلاً ، وليس أبيض ولا أسود الا اذا كان هو أسود او أبيض ! .

قلت : وما يمنعك يا سيد احمد أن تنتقد كطه «اليوم» ؟ أليس هذا ميسوراً لك ولغيرك ؟ فلا تحرم نفسك منه . اعمل بقول المثل الشامي العامي الفصيح : « كبر البيدر ولا شماتة العدى » . واخيراً ختم الأستاذ احمد رده بهذه الكلمة الرصينة : ان أراد أخي طه أن ينقل المسألة من النقد الأدبي الى النقد السياسي ، ويجعل الأمر يدور حول أنا وأنت ، ونقدت ولم تنقد ، وكتبت ولم تكتب ، ويئست ونعمت ، وشقيت وسعدت ، لم أجاره في ذلك .

أحسنت يا استاذ ، فلولا داهنته وتملقته وهرقت على قدميه طيوب الثناء كالجدلية لضمن لك الخلود في ملكوته ولم يعيّرك قلة النقد . ولولا سلمت عليه بالزعامة كما عودتموه لأدناك من السرير وقال فيك اليوم ما قاله أمس في مقدمة ضحى الإسلام . ولكنك نسيت أو تناسيت ذكره وأهملت التحية فجاءتك البلية ، نسأل الله أن يخلصك منه يا شيخ ، فالسلامة غنيمة ...

ولم نفرغ من درس ما كتبه احمد وطه حتى طلع علينا (العدد ١٥٥ من الرسالة) يحمل كلمة لتوفيق الحكيم وفيها ثناء طيب لذيذ على احمد امين ، ولوم المؤلفين لان صدورهم تضيق بالنقد والنقاد . قال : « وان أعجب ظاهرة في أدبنا العربي أنه لا توجد فيه صداقات عظيمة جديرة أن يتحدث عنها تاريخ الأدب ـ كالتي كانت بينه وبين طه مثلاً ـ تلك الصداقات التي نراها في آداب الحضارات الكبرى قد

أنتجت من الرسائل والأخبار ما لا يقوّم بمال». ثم تجاهل ما ينقصنا فقال: «أهو شيء من الخلق، أم هو ضعف في النفس أم هو نقص في الثقافة؟ لست أعلم».

قلت: أنا أعلم يا استاذ، تنقصنا كل هذه مجتمعة ولكننا في الطريق سائرون، وسنصل، ستتمسح جلود أدبائنا الرقيقة فلا تعود تؤثر بها ابر النقاد ومسلاّتهم، فيسلس قيادهم ولا يتعنفصون.

وعرض ايضاً حسين هيكل لموضوع النقد فكتب في هذا الموضوع مقـالاً طويلاً برأ فيه نفسه واتهم غيره فقال: لم يكن انصرافي عن النقد عن ايثار للسلامة أو مداراة للجمهور، أو اندفاع في تيـار الجمهور بعد أن كنت أريد جذبه الى تياري ... كلا. وانما كان انصرافي عن النقد وعن ألوان غيره من الكتابة أنني أيقنت أن فيما أنا بسبيله اليوم من مباحث في سيرة النبي العربي وفي عصره، ما هو أجدى على القراء وعلى الغرض الذي أرجو للجماعة الانسانية ان تبلغه ممـا كنت بسبيله من قبل.

قلت: أرأيت ما في تعابير حسين هيكل من تعاريج وتلافيف فكأنها بوق بزّاقة، فاسمع لألخص لك ما بقي. ورأى هيكل بعد كلام بيّن فيه أهمية عمله المنصرف اليه ـ وهو مهم حقاً ـ ان هذا الانصراف طبيعي لأن أكثر الكتّاب يبدأون حياتهم في الكتابة بالنقد ثم ينصرفون عنه، وكذلك شأنهم في اوروبا وغير اوروبا. وبعد أن طاف حول الموضوع يؤيد كلامه عاد فاستدرك على نفسه فقال: صحيح أن من الكتّاب من يجعل النقد رسالته الأدبية طوال حياته، ولقد كان من هؤلاء في فرنسا عدد غير قليل أمثال سنت بيف وجيل لامتر. جعلوا النقد رسالتهم على أنه لون من الوان التصوير لتاريخ الحياة الأدبيـة في عصرهم وفيما سبقهم من العصور، ولكنهم كانوا في عصر النضج أدنى الى المؤرخين منهم الى النقاد.

قلنا: ان سنت بيف وتين وبرينتيير كانوا يؤلفون في عصر عمرهم تاريخاً علمياً للأدب، أي تاريخاً طبيعياً كتاريخ النبات مثلاً، لا تاريخاً بالمعنى الذي يفهم من كلام حسين هيكل. أما اناتول فرانس وجيل لامتر فنقدهما معروف، وقد قدره

الناقد الحازم برينتيير بما يستحق ، ومن أعياه الاطلاع على مقال برينتيير في هذا الصدد يسهل عليه مطالعة رد اناتول وقد صدر به الجزء الثالث من كتابه «الحياة الأدبية»، فيدرك مآخذ برينتيير على فرانس ولامتر وزميل لهما آخر لا يحضرني اسمه.

ثم قال هيكل : ان تين وضع كتابـــاً فريداً جعل عنوانه « مذكرات من باريس » وكم تمنى لو سلك تين هـــذا المسلك ووضع على هذا النحو كثيراً من الكتب ، لكن احداً لم يوجه اليه اللوم لأنه آثر الفلسفة أو التاريخ .

قلت : ونحن ايضاً لا نؤاخذك يا استاذ على تركك النقد وانصرافك الى غيره من الوان الأدب فحسناً صنعت . فليس النقد شرحاً وتحليلاً كما كنت تفعل . ان النقد شيء غير هذا، ولا يحسنه إلا من خلقوا له، فامض في سبيلك على خيرة الله فليس فينا من يلومك ، إننا نكبر عملك الذي مضيت فيه ، سدد الله خطواتك، وأوصلك بالسلامة الى حيث تبغي ، فعلى خيرة الرحمن وبركته ، فلا تأسف على تركك نقداً قليل الخير والبركة .

وبعد هذه المقدمة جعل هيكل جريمة اهمال النقد في عنق الشباب ثم قال : أما والشباب لا ينقد فمعنى هذا أنه لا يقرأ ، وانه اذا قرأ لا يمحّص ، وانه اذا محّص لا يثور فينقد .

قلت : وهذا هيكل يجاري أخاه طه في لوم الناس على قلة القراءة. ليس فينا من يشك أن القراءة دعامة الثقافة ، ولكنها وحدها لا تكوّن الناقد ولا تخلقه، عرفت أكثر من واحد يقرأون الليل والنهار وسيان في نظرهم ، « أديب » طه حسين، وسفر ايوب ... فلماذا لا يكون هؤلاء من النقاد؟ ان النقد ملكة كغيرها من الملكات تنميها القراءة، ولكنها لا توجدها يا دكتور، ولو عقب القراءة ورافقها الف تمحيص . انك تتصور لي منكبّاً على الأسفار تطالعها ولا أرى لك نقداً مذكوراً ، فخير ما كتبت في النقد ما كانت له مصادر أجنبية، أما حين تتناول موضوعاً بكراً فما أراك تقول فيه شيئاً خطيراً ، فلماذا هذا وأنت تقرأ كثيراً ؟

ثم وجه هيكل اللوم الى الذين يهذبون الشباب ويثقفونه فقال : « لقد أصبح هم الشباب المال الذي يجر الجاه والاحترام والتقدير فبعدوا عن النقد الذي يريده

احمد امين قوياً ناهضاً،ورأى ايضاً ان النقد يقتضي الحرية العقلية والعلمية والأدبية كما ذكرنا في صدر المقال السابق ، وكيف يأتى والحالة هذه للشباب الناشىء ان ينقد كتاباً لطه ، أو لهيكل، او لاحمد امين ، او للعقاد ، او للمازني او لغيرهم ، وهؤلاء قد يكونون وسيلته الى الوظيفة ، او الى مال الوظيفة وجاهها وما لها في أعين الناس من احترام وتقدير.. .لذلك تعلّم الشباب المداجاة والرياء حتى في العلم والأدب ... وهذا سبب العلة وموضع الداء . فليلتمس احمد امين شباباً حراً يؤمن بالثورة وانا ضمين له بعودة النقد وفتوته . أما هؤلاء الشيوخ الذين يتوجه اليهم بالنقد فقد رغبوا الى لون من الأدب عن النقد . لم يبق منهم إلا صديقي وصديقه الدكتور طه الحريص على أن يبقى مع الشباب حرصه على أن يكون في طليعة الشيوخ » .

قلت : وهذا طبيعي ، فمن استطاع أن يماشي الشباب كما يزعم الدكتور هيكل ، كان لا شك في طليعة الشيوخ ، ولكنني أنصح للشباب ألا يقتدوا بطه حسين في هذه الأيام ، فدكتورنا أمسى « مخمّناً » لا ناقداً ، وان قلده الشباب وترسموا خطاه في النقد والاسلوب صار النقد نقراً ، والكلام نخالة يكال بالغرارة ولا يوضع في ميزان ...

- ٣ -

تجديد طه تفكير في الافرنسية

قلنا في الفصل السابق أن طه حسين أمسى «مخمّناً» لا ناقداً،وانه نقد بضع نقدات حين كان يتسلق الجبل ، ليدرك نسر القمة . أما اليوم فألقى طه منجله واستراح واغنته السمعة عن المشقة ، وان شئت نبذة من طرف «تخمينه» فاليك رأيه في الحركة الأدبية في سورية كما أذاعه مندوب جريدة الايام الدمشقية :

« ان الاكثرية عندكم من المحافظين المتعصبين في العقيدة الادبية ، واذا كان ظن الأكثرية المحافظة أن اللغة كالقرآن لا يمس ، وان المحافظة دين فلا سبيل

لاقناعها وعبثاً السعي ، ويكون نصيب الأدب التقهقر والانحطاط ، وان الحقبة التي نقضيها محافظين غير مجددين تبعث على الندم ... لذلك عندمـــا أفكر في موضوع ما فاني أفكر في الافرنسية الخ ... » والبقية تأتي .

قلنا صح فينا ما قاله القدماء : ان لم تعلم ابنك فالدهر يعلمه ،فشكراً للزمان على هدايته المصريين الذين حاربوا المجددين السوريين ربـع قرن ، فكم جاهدوا في قتال مدرسة جبران الثائرة على القديم البالي حتى وصموا زعيمها بالمروق من دين أدب العرب ، وما استراح لهم بال حتى ضرب الراعي وتبددت الخراف ...

ان أنفة اخواننا فراعنة الأدب المصري الحديث تأبى الاعتراف لمن سخّروا نفوسهم لبناء أهرام الادب الجديد،وهم ينتحلون كل شيء حتى التجديد في الادب، وتاريخه يشهد عليهم انهم كانوا ألد أعداء زعيمه جبران،واليك كلمة أخرى للاستاذ جب" تجلو هـــذا الغموض : شرع الكتّـاب المصريون ينكرون على الكتّـاب السوريين سيطرتهم وتقدمهم ، وعمدوا الى ما اقتبسه السوريون عن الغربيين من تجديد فمصّروه وأدخلوه ادخالاً جديداً عن طريقهم هم . قلنا ليس في الأمر بدع فالمصريون مولعون «بالتبنّـي» من عهد فرعون موسى حتى الساعة . فأي غرابة إذن في قول طه عن السوريين انهم محافظون في الادب ، وأي عجب في ادعائه التجديد وهو غارق في العتيق حتى الأذنين ؟

أما التجديد في عرف طه فسندلك عليه بعد مناقشة الدكتور « المجدد » في كلمة قالها لأحمد امين،وهي أنه ــ أي طه ــ كان برغم السياسة وأثقالها وأهوالها يفرض على نفسه صفحة أدبية كل اسبوع يفرغ لها اليـوم أو أكثر من اليوم . فعمدت الى حزم قصاصات الصحف ، أو الجزازات كما يسميها المجمع العربي ، فاذا بي أستعرض ساعات صرفها طه مع المثقب العبدي ، وابن المعتز ، وسويد ابن ابي كاهل ، وعنترة ، وزهير وابنه كعب ، وطرفة ولبيد ، ثم أعود منها وقد فزرني الملل ، ولو لم يكن لي معدة تقطع الصوان لـمـــا كبست على نفسي وتصفحتها . يحاور طه في هذه الساعات شخصاً جرده من نفسه،والحوار لذيذ إن لم يكن مضجراً،ولكن طه كما عودنا،يدور مع صاحبه ويدور ويدور ويدور

ـ وهذا التعبير من تجديده ـ حتى يصاب القارىء بدوار إن لم يكن راضه طه على الدوران معه ...

أما الذي قاله عميد الجامعة المصرية في هذه الساعات فشرح لقصائد اولئك الشعراء على نمط المتقدمين ، ليفهمها الشباب الذين غرهم الأدب الغربيفعجزوا عن فهم الأدب العربي القديم ، فجفوه لأنهم لم يستسيغوه .

وأعادني تفكير طه في الافرنسية كما ادعى الى مقال له عنوانه « أثناء قراءة الشعر القديم » كتبه قبل هذه «الساعات» وختمه بقوله : ثم تمّ الاتفاق بيننا ـ أي بين طه وبين الشخص الذي جرده من نفسه ـ على أن يكون يوم الأربعاء من كل اسبوع موعداً للنزهة في صحراء الأدب الجاهلي التي يراهـا الناس صحراء ، وأراها أنا حديقة من أجمل الحدائق وأروعها .

هذا ما قاله الأستاذ الجليل ، أولاً ، أما ما قاله بعد ذلك فهو : «انني أفكر في الافرنسية لأن الادب العربي لم يتطور ، والافكار لا تزال قديمة تفقد الرونق الذي يتمثل في الادب الغربي الحديث في أبهى صورة وأجملها وأحبها للنفس ، وفيه من جزالة اللفظ ونعومة العبارة وسهولة تفهمه وقوته وبراعته ما يحملني على الاعجاب به والارتياح اليه » .

قلت ان سماحة الاستاذ مشهورةوتواضعهعميق ولذلك لا يأنف من الثناء على الادب الغربي . ثم عدت الى قصاصات الصحف ألتمس الدليل على تفكير طه في الافرنسية فوجدتهبعد بحث عنيففيمقال كتبهعن بارتو وبوانكارهعلىأثر وفاتهما. وهاك منهالفقرة الاولى وفيها الدليلالقاطع، قال: «كان من المؤثر في النفوس التي احتفظت ببقية من حس وفضل من شعور أن يعرف الانسان أن بارتو قتل يوم الثلاثاء فحزن عليه بوانكاره حتى قتله الحزن يوم الاثنين ، وأن بارتو دفن يوم السبت فلم يستطع بوانكاره إلا أن يموت ليدفن يوم السبت الذي يليه » .

ألا يضحك هذا التفكير الفرنجي البرّي ؟ أهكـذا يفكر الافرنسيون ، وهكذا يكتبون فيستعملون القصر في ما لا يسلم به صبي ؟ أيقولون : فلميستطع بوانكاره إلا أن يموت يوم الاثنين ليدفن يوم السبت ... كأن بارتو وبوانكاره

على ميعـاد ؟ هبها محالفة أو معاهدة يا دكتور فهم ينقضونها ... ليت بوافكاره عجل ليدفن مع بارتو في يوم واحد ، وقبر واحد كعشاق الحكايات لنرى من طه تفكيراً فرنسياً أغرب وأعمق ...

كنا اذا كتبنا مقالاً فرنسياً قال لنا معلمنا : انكم تفكرون في العربية ، فهل صار العكس بالعكس كما يقول النحاة ، لننصح لتلاميذنا أن يفكروا في الافرنسية ويكتبوا العربية كطه حسين ؟ وهل من الخير، كما يعبر طه،أن نعلمهم ليقولوا في عشرةأسطر ما يقال في سطر عملاً بأسلوب طه الفرنجي العربي؟وهل من الخيرمرة أخرىأن ننبذ ظهرياً شعارنا العربي: خير الكلام ما قلّ ودل،لنفكر ونكتب في أسلوب طه الحلزوني المطاط ؟ ان كان هكذا يفكر الفرنسيون فالجماعة ، قسماً بالله ، بلا فكر .

قال طه ان المتمشرق كراتشوفسكي عرفه أكثر من احمد امين ، وان لديه أشياء ... فهل هذه البدعة الجديدة ـ التفكير في الافرنسية ـ من طلائع اشياء طه ؟.. لا أشك أبداً في أن طه عبد الغربيين ، وأدبه عيال عليهم ، ولكنني ما حسبت قط أن ستأتي ساعة نسمع فيها مثل هذه السفسطة من الدكتور.اني أرى تفكير طه في الافرنسية أخا البرنيطة التي يزعم سلامه موسى أنها تقربنا من الغرب وتبعدنا عن الشرق «القذر» فنفتكر كغربيين لا كشرقيين. فعلى من يروم الجديد أن يعمل برأي الأستاذين موسى وحسين، فيلبس البرنيطة ليفكر في الافرنسية، وهكذا يدرك الأدب العربي التجديد من أقرب الطرق،وكفى الله المؤمنين القتال.

روى الماضون أساطير شتى عن «القبع الاخفى» فهل تمثله البرنيطة الموسوّية أصدق تمثيل؟ لقد عملت عصا موسى العتيق عجائب،فهل تحيي لنا عهدها برنيطة موسى مصر الجديدة ؟ أما أنا فأشهد أنني عرفت أكثر من ألف معّاز لبنـاني سوري عادوا الينا من المهجر وقد لبسوا البرنيطة ربع قرن ولم يتغير تفكيرهم... فهل عند سلامه موسى طريقة يعلمها هؤلاء المتبرنطين ليفكروا تفكيراً غربياً كما يريد هو والشيخ طه ؟ رحم الله من قال : وكم بمصر من المضحكات ... لم يبق إلا بدعة الحروف اللاتينية فليقرها هذان الاخوان فيتيسر لنـا التفكير

والتعبير الغربيان ويقضى الأمر .

ان الملبوس لا يعمل القسوس، فالتجديد غير ما يفكر به طه ، ولا ما يرشد اليه سلامه ، فلا الطربوش يعتّق ولا البرنيطة تجدّد . ان منبع التجديد تحت البرنيطة والطربوش ، وآلته عقل ثاقب ، وخيـــال رائـع ، وفطرة مبدعة ، والعبقري لا يعوزه التقليد .

ان الفرنجة لا يكتبون ككتابة طه الناشفة كلسان المحموم، ولكل أمة أسلوب في التفكير والتعبير ، واختلاف الأدب ظاهر حتى بين الانكليزي والاميركي . قد علمنا كثير من القدماء والجدد كيف يكون التجديد فلنقتدِ بهم .

يقول طه ان الأكثرية في سورية من المحافظـــين . نحن نسلّم بذلك ونزيد عليه : اننا نعد هؤلاء المحافظين اشياعاً لطه واضرابه ، واذا كان في مصر من هو ذو أسلوب عربي خاص بصاحبه فذاك هو العقاد في نثره – دع شعره البارد – فهو عربي التفكير والتعبير بضد طه الذي لا يستطيع التعمق وهو معذور. تقرأ مقالاً للعقاد فتعلم انك أمام رجل مفكر ، وتقرأ مقالاً لطه فتعلم أنك أمـــام رجل يحب الحكي ...

ولم يكتف المصريون بادعاء التجديد في اللغة الفصحى حتى قال سلامه موسى: «ان لغة ام كلثوم وعبدالوهاب ترطب لغتنا العامية وتعلمنا درساً جديداً» . أما نحن فنقول انه لا يلذ لنا من غنائهما إلا الفصيح لأننا نفهمه ، وكثيراً ما أفسدت علينا لغتهم العامية رواياتهم المسرحية والسينمائية ، كما بسطنا ذلك للزعيم الاقتصادي الجليل طلعت حرب باشا ، فأجاب جواب من يتلافى الخطأ متى اهتدى اليه .

وبعد فلننظر ما أنتج أدباء مصر في هذه السنين القاحلة . أما طه فما عمل شيئاً غير مقالات جمعها تحت عنوان جديد كما فعل من قبل في كتـــاب حافظ وشوقي ، وأكثر كتّابهم يفرّون من معركة الابداع الى ميدان إحياء القديم . ومهما يكن من شيء فقد عرف كل كاتب من اشياخ كتّاب مصر اتجاهه إلا طه فانه لا يزال كحاطب ليل ، وهو الى هـــذا يدعي التجديد ، والتجديد عنده تفكير في الافرنسية كما رأيت .

هذا كثير يا دكتور ، أتقلد الفرنجة حتى في تفكيرهم ؟ لقد أغليت يا مولانا حتى صرت كرأس براهمة الكوخ الهندي ترى كل شيء فيك .

قال حسين هيكل : لم يثبت في ميدان النقد إلا طه ، أما انا فأقول : ان نقد طه تضخم حتى فاق نقد هذه الأيام فهو يجتر ويجتر ويجتر ، ويدعي ويدعي ويدعي حتى كاد يقول كالمعربدين : نحن العالم .

ان ذوق استاذ كم الفني ضئيل جداً ، وهو يتفرعن بلا شيء ، وما أشبهه بالبزّاقة ، فهي اذا أنحتّ عن خرطومها المدر كخابية الاخطل ، ومدّت قرونها وانتفشت حسبتها شيئاً ، أما اذا أعدتها الى بوقها فتراها محتشمة متواضعة وديعة .

ان طه يطلب أما معدته فلا تقطع ، وهذا ما بلاه بعسر الهضم ، وان بقي معتزماً الاصطياف في لبنان ، فانصحه أن يصيّف في فالوغا ، فمياهها تغني المعدة عن علم ابي جعفر صاحب ابي نواس ... أما حاول طه أن يقلد المعري في « على هامش السيرة » فلم يفلح ؟ وما أدرك الظالع شأو الضليع ، كقول شيخ ربيعة الفرس . أما كتب ايضاً قصة أديب فكانت لا شيء ؟ والاستاذ الى كل هـــذا نسّاء ينفي اليوم ما أثبته أمس فكأنه لم يهتد بعد الى شخصيته . انه يحـاول ولكنه غير موفق ، هدانا الله واياه الصراط المستقيم .

طه حسين في آثار ثلاثة

جنة الشوك

حقاً ، ما هذا الكتاب جنّة شوك ، إن هو الا جحر قنافذ .

اشتقت إلى صاحبي الدكتور طه حسين واشتقت اكثر الى النقد . أما وضعنا أوزار النقد حين قامت الحرب على ساقها؟ إن المحيط لا يحتمل حربين...والآن وقد نامت تلك فيها نحن أولاء نعلنها حرباً ادبية لا تراعي في المنام خليلاً ، ولا يخمد نارها الا هادم اللذات .

قلت اشتقت الى صاحبي الدكتور ، فبينا أذكره ـ كما قال ابن ابي ربيعة ـ اذا بصديق عوّدني هذا الفضل يدخل عليّ حاملاً «جنة الشوك» كتاب الدكتور الجليل ، فقرأته بلا انقطاع من الجلد الى الجلد ، وكنت أرى طه رائحاً جائياً بين السطور ، كما أتخيّله انا ، فحتى الساعة لم أسعد برؤيته . يجيء ، حفظه الله ، لبنان يوم اكون منزوياً في بيتي ، في ضيعتي البعيدة القريبة ، البعيدة بطريقها الشاقة ، والقريبة لأنها في نقطة البيكار من لبنان .

قرأت أدباً طريفاً في « جنة الشوك » ، والدكتور ابو الطريف ، بل كاد في هذا الكتاب أن يكون ظريفاً . في « جنة الشوك » كلام نقي خالص كالذهب المصفّى ، فلم يجد النقد فيه مرعى يسمن عليه . فقعدت حسيراً اشكر للسياسة يدها البيضاء من غير سوء ... اقصت الدكتور عن منصبه فأخرج هذا الكتاب الفذ ، كما صدت الولاية في الأمس عن ابي الطيب فترك للذرية تراثاً لا يموت .

أجل، لقد أبعد «المستشار الفني» عن كرسيه فنفح الفن بهذا اللون الطريف، وما كل « مستشار فني » يخرج من رأسه ما خرج من رأس طه اذا عزل . اخرج

الدكتور ، كما قال : « مرايا يمكن ان يرى الناس فيها أنفسهم » ، اما أنا فاشهد اني رأيت وجه الدكتور في المئة ونصف المئة ـ كما عبّر هو ـ من هذه المرايا التي اخرجها معمله الفني للناس ٠

لا أقول في « رسالته » لان الدكتور غضبان على خفافيش الادب الذين يتخيّلون انفسهم اصحاب رسالات ويحدثون الناس عنها ، بعنجهية وتبجّح يفلقان صدر احلم الناس ، وقد خصّ هؤلاء بمرآة فاقرأها اذا شئت .

أرأيت الى السم ،ان هذه المرايا مثله . ارادها مواعظ بالغة ، فبعد عن النكتة المصرية العابثة المرحة التي تضحك ولا تؤلم . فكأنه أراد ان يخاطب بها العقول الحصيفة لا الأذهان الخفيفة الرأس التي تفهم النكتة بيديها ورجليها... لقد مشى الدكتور وابن المقفع جنباً الى جنب في الرمز ، وفاقه في التعبير العربي اللسان والجنان.

اني لأعجب منّا نحن ، معشر الكتاب ، فقد أدّبنا عبد الحميد الكاتب غير هذا الأدب. أما قال لنا، رحمه الله، في رسالته الى الكتّاب : «وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويثوب اليه امره . وليكن الرجل منكم ، على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه ، احوط منه على ولده وأخيه » . فما هذا العقوق الذي يصوره الدكتور ! ؟ ومن ينكر فضل الاستاذ على الجيل الذي ثقّفه وهذّبه ؟

الحمد لله ، ان الدكتور الجليل يغنى عن عطف الناس ، فهو هو في الحالين ، ويستطيع ان يقول بكل فخر لا ادعاء كالطغرائي :

مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل

وقد يقول واحد، ولمَ هذا ؟ فالجواب الواضح عند احدى مرايا الدكتور في جنة الشوك ، هذا الاسم البودليري اللذيذ ، والدكتور في هذا كصديقه ابي العلاء يسمي كتبه احسن الاسماء ، جلّ من له هذه .

قال الدكتور ، وعنوان هذه المرآة : تجنٍّ .

«تلقّاهم من المدارس الثانوية لا يحسنون شيئاً ، فتعهّدهم حتى احسنوا أشياء كثيرة وحتى ظفروا بما يظفر به الشباب المتازون في الحياة الجامعية من درجات وألقاب.

ثم تعهدهم حتى اطمأنوا في الحياة الى ما يحبون .

وكانوا لهذا كله ذاكرين شاكرين ، وكانوا من هذا كله متزيدين ، حتى لم يجدوا سبيلاً للمزيد . ثم ازورّ عنه السلطان ، فازورّوا عنه ، وقالوا : جفوتنا حين كان يحسن ان تصلنا .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ما اعرف انهم لقوا منك جفاء وازوراراً.

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : ليس المهم ان تعرف أو لا تعرف ، وانما المهمّ ان تعلم ان كلمات التجني والتعلّل والتكلف لم توضع في اللغة عبثاً ، وانما وضعت لتدل على معان . والمعاني لا تقوم بأنفسها وانما تقوم بأنفس الناس .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أليس قد علّمنا المعلمون في الكتاتيب ان الامام الشافعي كان يقول : من علمني حرفاً صرت له عبداً ؟

قال الاستاذ لتلميذه : بلى ، ولكن الحياة قد علمتنا ان الضرورات تبيح المحظورات . ومن المحظورات ان تجفو من جفاه السلطان . فقد تصدّك صلته عن بعض ما تحب ، وتصرف عنك بعض ما تتمنى » .

ان الكتاب يا عزيزي القارىء ، محاورات بين شيخ وطـــالب فتى ، وما احسن جواب الشيخ ، وهو الاستاذ الجليل ، في المرآة التي سمّاها هجاء .

« قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ:أي فنون الادب أحق ان يزدهر وينفق في هذا العصر الذي نحن فيه ؟

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لا أدري . ولكننا في عصر انتقال اشد فنون الأدب له ملاءمة فنّ الهجاء » .

لقد اصاب الدكتور من جهتين ، فقد يؤدي الهجاء الى المناصب ، فأكرم بهذه المرآة ، فهي انقى من مرآة الغريبة .

ويتكلم الفتى سائلاً استاذه الشيخ بعد ان تحدثا عن وعود النساء : « وأي وعود الرجال اشبه في ذلك بوعود النساء ؟ »

اجاب الاستاذ الشيخ : وعود الساسة حين يطلبون النيابة من الشعب ، او النهوض باعباء الحكم . وكم اعجبتني هذه التي عنوانها : « نحو » .

قال الطالب الفتى لاستاذه الشيخ : أأصدق النحويين واصحاب اللغـــة ام اصدّق فلاناً مع انه لا يقول في النحو الا خطأ ؟

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: صدّق فلاناً لانه نحوي لغوي بحكم القانون.

صدق الدكتور ، ان القوانين تخلق ما لا تعلمون .

اظنني اكثرت من الاستشهاد ولكن هذا اللون الطريف لا يملّ ولا يشبـع منه ، فإليك هذه الشوكة الاخيرة ، واسمها : زيارة .

« قال الطالب الفتى لاستاذه الشيخ : قد كان فلان يكثر من زيارة فلان قبل ان يتنكر له السلطان ، فلما أعرضت عنه الدنيا اعرض معها .

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لا . ولكنه يزوره ويطيل الاقامة عنده اذا جنّ عليه الليل ، لان آية النهار مبصرة ، فاذا انصرف انشد قول المتنبي في بعض مدائحه لكافور :

ازورهم وسواد الليل يشفع بي وانثني وبياض الصبح يغري بي »

آه ، كم احس بما يعانيه الدكتور من هؤلاء المتذبذبين .

ولكي يتمتع القارىء بهذا الظرف الوقور فأنصحه ان يقرأ هـــذا السفر الصغير ، ففيه متعة كبرى لقوم يعقلون ويريدون ان يتأدبوا بكل ما في كلمـة « تأدّب » من معان ...

لست اكتم القارىء انه سيجد مرارة حادة كما قلت ، ولكنها مرارة الدواء الذي ينجّي ويشفي من الداء . وسيقبلها القارىء ويتأثر بها لانها صادرة من اعمق اعماق نفس طه حسين الاديب العظيم . فهذا الرجل ، كما يظهر لي من انشائه ، قوي الحساسية ، بل أرى حساسيته اشد تأثراً من زجاجة التصوير الشمسي .

اننا نشكر الفرصة التي اخرجت هذا الكتاب الطريف الجديد ، ويا ليت الحوادث تتكرر ، بشرط الا تنال الدكتور العزيز بأذى ، ليخرج لنا مثل هذه الذخيرة النفيسة الطريفة فيثري ادبنا العربي ، فنفس الاديب الحق كالارض ، ولا يستغلها كل الاستغلال الا الظواهر الجوية ، فأبرقي يا سماء وارعدي . اللهم حوالينا لا علينا ...

نقول طه حسين كما يقولون جورج ديهامل وغيره من أعاظم الكتّاب ، فقد أصبح في غنى عن جميع الألقاب، وان منح أخيراً لقب باشا . أما هذا الكتاب فمجموعة مقالات اخرجها الاديب العظيم في صورة رسائل ، وجميعها تنضح بالألم المر . يشبه هذا الكتاب أخاً له من قبل اسمه «جنة الشوك» ، وفي هذا وهذاك أشواك حادة يستحقها كل تمساح عاق ، ناكر للجميل . صُدّرت هذه المجموعة بأربع رسائل كتب الدكتور تعريفاً بها هو هذا : « رسائل تنسب الى الجاحظ، وأراها محمولة عليه، لأن تكلف التقليد فيها ظاهر . » واني أشايعه في هذا الرأي، فقد رمى فأصمى لأن التقليد مستخيل. فكما لا يستطيع احد ان يقلد طه حسين وغيره ، كذلك لا يستطيع طه حسين ان يقلد الجاحظ وغيره من سادة القلم . وهب اننا قلدنا الجاحظ في تعبيره وتفكيره فمن اين نجيء بشخصيته التي هي ملاك اسلوبه وبها تحيا كتابته .

رحم الله الطغرائي، فقد سبق الى ما يجيئنا به اليوم الدكتور طه، أما قال ذاك:

غاض الوفاء، وفاض الغدر وانفرجت مسافة الخلف بين القول والعمل

ودكتورنا الجليل يقول في اصحابه الذين عقوا، وكفروا وما شكروا : «قد اقاموا حياتهم على الكذب ، وأجروا سيرتهم على الرياء ، فهم لا يستطيعون ان يعيشوا بأنفسهم ، وانما يستمدون حياتهم من المنعمين عليهم ، ومن المغترّين بهم ، يرقون على اعناق سادتهم الذين احسنوا اليهم وبرّوا بهم وغمروهم بالمعروف » .

وما اجمل ما يصف لنا نموذجاً من الناس نتعثر بوجهه في اغلب الاوقات فيقول له : «انما أنت رجل محصنٌ ، لا يبلغه العدو ، ولا يصل اليه الصديق، وأكاد اعتقد ان ليس لك عدو ولا صديق . شغلت بنفسك حتى يئس الناس منك فلم يطمع فيك طامع ، ولو قد فعل لما نال منك شيئاً». وهذا هو اليأس المريح الذي رأيناه عند الحطيئة . ثم يقول لهذا : « أنت شريكهم في العيش الرخيّ والحياة المقبلة ، وأنت أبعد الناس عنهم حين يغلظ العيش ويعظم اليأس وتدبر الحياة» .

ثم ينتقل إلى وصف قلب هذا الصديق الصخري" فيصفه وصفاً وافياً شافياً كشأنه حين يريد ان يصف شيئاً فيطمره حتى يكاد يفطسه بتلك التعابير المتشاكلة المتشابهة. واخيراً يتحول إلى نصحه ووعظه فيقول له : « صدقني ان من الخير الكثير لك ولغيرك أن تصدع قلبك قبل ان تصدعه الأحداث، وان تفتح قلبك قبل ان تفتحه الخطوب ، وان تشعر من حولك من الناس بأنك تجد بعض ما يجدون ، وتعتقد مثل ما يعتقدون . انك مثلهم خلقت من تراب وستعود الى التراب » .

ويستولي الأديب على أمد الألم واليأس فيقول : «حيّة وكلب وديك ، هؤلاء هم أصدقاؤنا القدماء . فابكِ إن كنت خيّراً واضحك إن كنت شرّيراً ، وثق على كل حال بأن اصدقاءنا هؤلاء لم ينفردوا بما كتب عليهم من المسخ ، وإنمّا هي محنة عامة يمتحن بها هذا الوطن البائس في كثير من بنيه » .

إن في مرآة الضمير الحديث صوراً بشعة ، وكاتبه الفذ ما شاء ان يرينا غير هذه البشاعة التي نراها في كل مكان وزمان ، فغمض عيوننا ، ولكن أين يهرب فايين من عين الله؟ فهذه العين كما صوّرها هيغو تخترق الجبال النحاسية لا الأسوار. أصلح الله الحال ، وعلى أديبنا المفجوع بأمانيه، أن يصبر متمثلاً بقول الطغرائي:
والشمس رأد الضحى كالشمس في الطَّفَلِ ...

المعذّبون في الأرض

وهذا كتاب آخر عنوانه «المعذّبون في الأرض» كتبه مؤلفه في فترات مختلفة. في صدره فصول كتبت على غرار القصص. يريد الدكتور أن تكون هذه الفصول قصصاً، وهو يعلم انه ما هكذا تكتب القصص فيقطع الدرب على قارئه وناقده، يتغداه قبل ان يتعشّاه كما يقول المثل . قال في المقال الأول وعنوانه «صالح» : «لا أضع قصة فاخضعها لأصول الفن، ولو كنت أضع قصة لما التزمت اخضاعها لهذه الأصول، لأني لا أؤمن بها ولا أذعن لها ، ولا اعترف بأن للنقاد ، مهما يكونوا ، أن يرسموا لي القواعد والقوانين مهما تكن. ولا أقبل من القارىء مهما ترتفع منزلته ان يدخل بيني وبين ما أحب أن أسوق من الحديث ، وإنمّا هو كلام يخطر لي

فأمليه ثم أذيمه. فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ، ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه».

ليس المعذبون في الأرض إلا مآسي بؤساء تنضح بالويل والعذاب، فهي كعبرات المنفلوطي شقاء ، ولكن بينهما بوناً شاسعاً في الفن . فطه يعرف من أين تؤكل الكتف ، ولولا تمرّده الجميل الذي بسطته لك ، وحبه دغدغة قارئه ومداعبته والثرثرة معه ـ كما يعبّر الفرنج ـ لكانت «المعذبون في الأرض» قصصاً فنية طريفة. ولكنه يسوّد مثلاً سبع صفحات ليخبرنا بها عما يريد ان يحدثنا به عن المعتزلة ، وامّ تمام. فطه وقارئه في نضال مستمر وجهد جهيد، فلا يترك ذاك القارىء حتى يعود إليه . لقد أجاد في « المعذّبون في الأرض » لأنه اتخذ حوادثه وابطاله من شؤون يحسّها ويعرفها مثل : وصف الكتاتيب والتعليم فيها ، وطه أدرى البشر بسيّدنا والعريف ، وهو يعلم كيف كانوا يختمون الاولاد ليحولوا دون خطر السباحة الذي كان يتهدّد حياتهم ... وقد أجاد كل الإجـــادة في وصف الأم الضاربة بنتها الشاردة ...

وفي هذه القصص شيء كثير من العنصر الشعري الذي هو جوهر القصـة . وهي تمتاز باللون المحلّي الصارخ وهذا ايضاً من عناصرها ومميزاتها ، وهنالك تعابير طريفة يوفّق إليها الدكتور فتغطي عيباً لا يستطيع التخلص منه قوله مثلاً : وكان دنو امرأته من الشيخوخة أو دنو الشيخوخة من إمرأته .

ويعجبني من أديبنا العظيم في « المعذّبون في الأرض » تركه التنطّس القديم، ولجوءه إلى ألفاظ تؤدي معناه وإن كانت ليست من كلام العرب كقوله : خبز حاف ، بدلاً من قولهم قفار ، وصينية وغيرها .

إن شخوص هذه الأقاصيص تحمل أوراق هويتها علاماتها الفارقة ، وهذا ما لا بد منه في كتابة القصص .

في «المعذّبون في الأرض» ستّة فصول في ثوب قصصي، وخمسة من نوع المقالة، وفي هذه كلها يسود عنصر القص ، لأن طه ، أينما كتب، لا يفارق عمود القص، فهو دائماً يحدث ، وإننا نسأل له طول العمر ليظل يحدّث .

حيـاتي

لاحمد امين

يحذو احمد امين الكاتب المصري الشهير حذو الفونس دوده، واناتول فرانس فيما كتباه عن نفسيهما ، وحسبه ان يكتب سيرة حياته مخلصاً صادقاًمتواضعاً في قصه واسلوبه وبيانه ،بسيطاً غير متكلف في اخراج صورها. لم يسم كتاب حياته كما سماه الكاتبان الفرنسيان العظيمان وغيرهما ، بل قال لنا بكل سذاجة هذه سيرة حياتي أدونها في هذه الأوراق بلا خجل وبدون تزويق .

ينحو احمد امين في كتابه نحو العلماء والمفكرين في تحليل الاشياء ودرسها وتمحيصها ليخرج منها بالنتائج والغايات. يهمه ان يفيدك قبل ان يطربك ببلاغته وطرفه ، ويعنيه ان تخرج من كتابه مقتدياً بنضاله وكفاحه .

تطالعنا الكآبة والحزن في مطلع كتاب «حياتي» لأن صاحبه مكتئب حزين كما يحدثنا عن نفسه . يعتذر الاستاذ بتواضع عن عدم معرفته نفسه بقوله : «ان الشيء اذا زاد قربه صعبت رؤيته » ولذلك صعب عليه ان يرى نفسه كما هي . ثم يؤكد لنا ان شخصيته بما فيها من خواص لهي عمل سنين بل صنع اجيال ، ولو ورث انسان غيره ما قد ورثه هو من خواص وعاش في بيئة كالتي عاش هو فيها لكان اياه ، او ما يقرب منه جداً .

قرأت هذا فذكرني بما حدثنا به مار اغوسطينوس حين زعم لنا انه لو ولد في الغرفة التي ولد فيها جاره وصديقه اليهودي لكان يهودياً لا مسيحياً..ثم يتوسع الدكتور في الايضاح فيقول: «ظلم صراف البلدة اخرج ابي من سخراط واسكنه القاهرة ،حيث ولدت وتعلمت ،ولولا ذلك لنشأت فلاحاً مع الفلاحين ازرع وأقلع».

انا لنحمد الله على هذا المكروه ، أي ظلم ذلك الصراف الذي أدى الى منح العربية كاتباً عاملاً ألـّف فجر الاسلام وضحاه وعصاراه . خشي الاستاذ الا تفيد سيرة حياته احداً من الناس فاذا بي أراها حافلة بأعظم درس يعلمنا كيف يخلق الرجل المريد نفسه، وان النبوغ جهاد متصل لا ينقطع حتى يبتدىء. فخير درس مفيد للشباب الطامح الطامع نجده في «حياتي» لاحمد امين . أما اتفق ثلاثة من جهابذة مصر على اخراج «فجر الاسلام» واقتسموا العمل ، ثم حالت شؤون وشجون دون نهوض اثنين منهما بحصتيها من هذا العمل المضنك ، فاذا بهذا الرجل ينهض بذلك العبء وحده ، وكان ان قدرت مصر جهوده وعناءه فكوفىء على عمله الجليل القدر بلقب دكتور فخري وجائزة فؤاد الاول — الف جنيه .

لا ينفسح المجال لتلخيص كتاب ضخم كهذا فأنصح لك ان تقرأ هذا الكتاب قراءة متأمل متعظ ، فتعلم كيف نشأ احمد امين وكيف تعلم وعاش . انك ، إذ ذاك، لتستغرب كيف ان حياة قاسية خشنة كحياة احمد امين التي هي صورة مطابقة لصورة حياة المخضرمين منا ، تلتج هذا الانتاج السمين . انك لتتعجب كيف تخرج ما اخرجت حياة الامس الخشنة المتواضعة، حياة الغبراء والحصير لا حياة السجاد والسرير والصوف والحرير . إذا قابلت حياة الامس القاسية بحياة اليوم الهانئة الناعمة، مأكلا ومشرباً، وملبساً ورخاء وتسلية، ورأيت ما أخرجت هاتيك للناس، وما تخرج هذه تكفر بالحضارة والمدنية وتقول: عودوا بنا الى الوراء.

وواحدة اخرى توحي بها الينا حياة احمد امين وهي اننا نعرف منها تطور العلم في مصر ، وتبدي لنا صورة تطور الطلاب ، وانطباعات نفسية الشباب . فحياة هذا الرجل تاريخ حقبة زمن عصيب إن لم تقرأه مفصلاً ، تدركه مجملاً .

واشهد اني رأيت الاستاذ احمد امين يرينا نفسه كما خلقها الله ، لا يدثرها بثوب الرياء الذي يلجأ اليه قبل كل شيء اكثر من يترجمون لأنفسهم. لست ازعم انه باح فاستراح ، ولكنه قال كل ما يحكى ويقال ، وهذا ما يحمد له، ويشكر عليه ، وحسبنا انه اعترف لقرائه بحبـه معلمته الانكليزية ذلك الحب العذري ...

وما أسفت لشيء في هذا الكتاب إلا لأن الاستاذ الجليل لم يشرح لنا بعض ألفاظ محلية ، مثل البوظه والجرن واشباهها لأننا لا نستطيع فهمها لاختلاف مدلولها بين الاقطار، ولعل الاستاذ يفعل ذلك عندما يعيد طبع كتابه النفيس .

ان لاحمد امين مقاماً سامياً في نفسي ، وقد قدرت جهـــاده قبل ان اقرأ كتابه في سيرة حياته ، فكيف بي الآن وقد رافقته في جميع مراحل السن ، اطال الله مدته وبارك في عمره . وحسبي تقديراً لكتـــابه النفيس اني دفعته الى اولادي ليقرأوه ويتعلموا منه جهاد كبار رجال العلم والأدب ، واني لأسأل الله ان يرزقهم معلمة رصينة كتلك الانكليزية الساحرة العينين فيرغبوا في تعلم لغة جديدة فوق ما يعرفون من لغات ... ان رفيق الطريق الحسَن يمهد العقبات ، ويقصر لطفه المسافات ويدني الأبعاد ...

جزى الله الاستاذ الامين صالحة ، ووقاني واياه غدرات السكـّري .

اليوم خمر

لمحمود تيمـــور

كان العهد بالاستاذ تيمور كاتب اقصوصة مصرية من الطراز الأول ، تحفل أقاصيصه باللون المحلي،وتبرز ممتعة بطرافة وصفها وتحليلها لأنفس تلك الطبقةالتي لم تزل كما كانت زمن المسيح ومحمد . ثم كتب القصصي الكبير الرواية فسار في طريقها عنقاً فسيحاً ... والتفت اخيراً صوب المسرح فكتب مسرحيات لا أدري كيف تكون حـــين تعرض على الخشبة . وعلت الصيحة وراء احدى مسرحياته لأنه كتبها باللغة العامية فنقلها للساخطين باللغة الفصحى .

والتفت تيمور الى الماضي البعيد فعنّ له ان يعمل، كشوفي، مسرحية من صميم الأدب العربي ، فألـّف «اليوم خمر» وهو عنوان يتمّه كل متأدب : وغداً أمر ، متذكراً امرأ القيس او خاله المهلهل قبله ، لأن هذه الكلمة تنسب الى كليهما .

لم يخرج تيمور في مسرحيته «اليوم خمر» عن نطاق مغامرات امرىء القيس، وليس يوم دارة جلجل بسرّ . ثم أجرى الفصل السادس في القسطنطينية ، غير مبالٍ بإغضاب من أنكروا وجود امرىء القيس ،ولا بالاب شيخو الذي عمّده ليزيد في عدد النصارى شاعراً . أما تسديس فصول المسرحية فطريف يذكرني بإبن زيدون مسدس ولادة ...

أحيت مسرحية تيمور ذكرى حامل لواء الشعر في النار على الورق ، ولعلها تنجح على الالواح كما تبدو لي موفقة بين دفتي الكتاب . اضطر المؤلف حين ركب هذا المركب الخشن الى ان ينطق ابطاله كما كانوا يتكلمون في محاورتهم فافلح في هذا وكان طريفاً في حواره ، طريفاً في اظهار اخلاق أسلافنا في جاهليتهم ،

ومرحهم، وبطرهم، وأرانا انهم، على يبوسة محيطهم وجفافه، لم يحرموا نضارة الحياة.

ان ابطال «اليوم خمر» اشكال وألوان. فحنظلة وغضنفر شخصان يهزلان في كل مقام، فيخلقان جواً مرحاً في المسرحية. كما نرى اكثر الأشخاص الآخرين يستخيرون الصنم وبينهم المؤمن والهازىء. فأشخاص «اليوم خمر» يعرفون من ميولهم لا من سماتهم وسحنهم، وما فيها من علامات فارقة، كما هي العادة عند مؤلفي القصص والمسرحيات. فاذا سمعت ابطال تيمور يتحاورون بلغة الجزيرة تنكر ان يكون مؤلفها الاستاذ تيمور صاحب الحاج شلبي وغيرها، وان كانت لم تخل من ألفاظ وتعابير معاصرة. ولقد أحسن المؤلف تقمّص ابطاله فاختفت شخصيته كل الاختفاء، وهذه أولى حسنات المسرحية.

اما المآخذ فقليلة، واكثرها في التعبير كقول احد الابطال لامرىء القيس: يخطب ودك. أما الفصل الخامس فيبدو لي كأنه كتب توطئة لغيره، فلو تصرف الاستاذ تيمور في حوادث المسرحية لجعل النظارة يتوقعون حدثاً جديداً، ولكنه رأى الدرب دونه... فسار عليها آمناً ضاحكاً ولم يبك كصاحب امرىء القيس.

وبعد، فلست ارى حضور بنت قيصر الى القهوة امراً سهلاً وطبيعياً، ناهيك ان اجتماع ثلاث نساء في قهوة لا يحتمل ولا يطاق... وكأن المؤلف قد استكثرهن فجعل احد ابطال المسرحية حنظلة يقول: ثلاث نساء ورجل واحد!

وكان المؤلف شاء ان يظهر اخلاق امرىء القيس فختم المسرحية بقوله يخاطب بنت قيصر وبنت صاحب الحانة: «لقد أنست معكما بأعذب متعة وأطيب وقت. لا انساكما ما دمت حياً». ولكن هذا كثير جداً.

وتختم المسرحية بانصراف الملك الضليل ليلحق بقومه منتصراً على حبه انتصار تيمور في القصة، لا المسرحية...

حول القصة والقصصيين

توفيق عواد ــ من الصبي الاعرج الى الرغيف

سفر تكوين الرواية

نخشى ان لم نهش ونبش لرغيف توفيق عوّاد أن يصح فينا قول المثل اللبناني: فلان لا يضحك للرغيف السخن . ليس رغيف توفيق سخناً فقط ولكن مقرّص من عجين طالع ، فجاء رافخاً تشتهيه العين والقلب . كأنه الخد المدلوك دلكاً عنيفاً في غرفة الزينة .

قد بدأت درس توفيق بالمقلوب، ولا عجب فرغيفه المشقرّ معروض في واجهات المكاتب يقبل عليه جياع الأدب يلتهمونه كما سبوا صبيّه ونهبوا قميصه من قبل . وإننا لراجعون إلى الصبي والقميص بعد أن نشبّع الرغيف وزناً وتحليلاً .

إن عيني توفيق عوّاد قويّتان « يدوّرهما » ساعة يشاء ، فظهارة بطله أشد بدواً من بطانته ، وهذا دليل على أنه قويّ الملاحظة شديدها. وقد كتب تحت «الرغيف» رواية لأنه يفهم ان قصة طويلة ليست رواية ، كما أن الرواية القصيرة ليست قصة . فهذان النوعان لا يقاسان بالأسطر ولا بالساعات، ولكنهما يختلفان في البنيان، لا في الاتساع والطول والعرض ، فليست الرواية ملعب فوتبول، ولا القصة طاولة « بنك بانك » ، فالقصة تقتصر على حادث عرضي من الرواية التي تكون متشابكة الحوادث غزيرتها . والقصة تجتزىء عادة على نوع من العرض كالخبر والمحاورة والمناجاة ، أمّا الروائي فهو كالموسيقي الماهر يبدّل ويغيّر ألحانه وسلالمه ما شاء ، ويستعمل للذة فنّية دقيقة أساليب لا تعدّ ولا تحصى لأن النبوغ يعرف بالابداع الفني .

والمجال في الرواية فسيح الرحبات للأديب الموهوب، ففيه يستطيع أن يعقّد ويوسّع الحقل لنفسه فيسرح ويمرح ، ويلحق به مساحات جديدة بلا عناء ، كما تفعل دول الطغاة اليوم ... ففي الوصف ، والقص ، والتحليل، والحوار ميدان للاقلام الفارهة .

ليس هناك قواعد تعلمنا بالحصر كيف نخلق الاثر الفني ، ولكن هناك شروطاً لا يحيا بدون مراعاتها هذا الأثر . كما أن مراعاة هذه الشروط لا تبلغ القصد ان لم يحُزْ المؤلف صفات داخلية تعجز عن إيجادها النواميس والقوانين الموضوعة . وهذه الهبات التي نسبها الناس قديماً الى شياطين الشعراء وعفاريت الأدباء هي التي تمنح الأثر جماله الرائع .

وشرط التأليف، كشرط الجمال، التناسق ثم التناسب والتلاحم. وفي الكتاب، وخصوصاً الرواية ، يطلب كل ما يطلب من قطعة فنية سواء أكانت صورة ، او قطعة موسيقية . وأول مطالب الكتب الانشاء الرفيع الذي لا يخلد بدونه أثر. ونعني الانشاء الشخصي لا التقليدي الذي يفلقنا به من يكررون على مسامعنا في كل ساعة كلمة قالها ابن خلدون في المتنبي والمعري . ألا فلنضرب بعمود الشعر كل رأس فارغ ...

للغة قواعد وللغة علم يسمّى علم البلاغة ، فعلينا أن نخلق ، كما خلق القدماء، لا أن نعلك تعابيرهم كما تعلك الخيل اللجم ، وَنبشط ريالنا مثلها ، ولا أن نجترّ ما تساقط عن موائد السلف الصالح لنسمى كتّاباً . فهذه آفة أدبنا العربي الذي جعله أصحاب العقول الضيقة رواسم ومومياءات تأنف من سماعها لكثرة ما لاكتها ألسنة الغزاة . حتى قال أحد المتمشرقين، وأظنه ماسينيون : الأدب العربي رواسم - كليشيهات .

أجل لا يخلد أثر فني إلا اذا كانت مادته انشاءً شخصياً ، وهذا الشرط يعني كل تأليف وخصوصاً الرواية التي طفت اليوم على الاسواق الادبية . والى انشاء الرواية العالي تضاف أشخاصها ، فرواية بلا اشخاص أفذاذ كأمة بلا نوابغ . فالوصف مثلاً ليس بقصة، ولا يستحق هذا الاسم، لأن الرواية هي خبر صحيح او كاذب كالصحيح ، كما أن الخبر الحقيقي ليس رواية . فالمذكرات والسير ،

والاعترافات وقصص التاريخ لا تدنو من الرواية إلا بمقدار، أي في الاسلوب والقص، ولكنها ليست رواية في كل حال. فالرواية هي ما تقص خبراً مخترعاً تلذك قراءته لطرافته وأسلوبه، ولم يبث فيه الكاتب من روح حية تأسرك، بل تنقلك الى الساحة التي يجعلها معترك أبطاله، فتشعر أنك حيال المشهد، وكأنك أمام ناس بلحمهم، ودمهم، وسحنهم فتكرههم وتحبهم وتكاد تهاجم بعضهم وتدعو عليهم بقصف العمر إن كانوا جبابرة وكنت ممن يحولون الخد الايسر.

ففي كل رواية رجل يحدثنا بانشائه الخبري وطريقته القصصية، ولكن هذا الرجل لا يكون روائياً صالحاً ان لم تتألف شخصيته من عشرات الاشخاص، وهذا ما يخلق الاثر الفني، أو فنية الرواية – إن صح التعبير – فعل الروائي هو ان يثير فينا تأثرات عديدة. ومن هذه الناحية تتسع الرواية لجميع ضروب البيان الشعرية – والشرط أن لا يطغي الانشاء الشعري – وجميع ضروب الانشاء في جميع الاغراض التي تضحك وتبكي وتغيظ وترضي. وبكلمة وجيزة، الرواية دنيا واسعة يستطيع الكاتب القدير أن يستغلها، فهي غنية بالمواد الاولية – كرومانيا مثلا ...

أما القصة فلا تتسع لكل هذا لأنها لا تدوم طويلاً. والشعر المنثور، اذا طغى، أبعد المؤلف عن القصة وقرّبه من الشعر، فأجنحة جبران المتكسرة وأخواتها الروائع العربية الخالدة هي كسفر ايوب، أقرب الى الشعر منها الى القصة.

ان الرواية تبعث فينا لذات ذهنية مختلفة حين يهزنا كاتبها بوصفه الذي تولده قريحة متقدة، فهو يصور لنا بعض نواحي الحياة تصويراً فتّاناً تؤخذ به العين فيبتهج القلب، ولذلك يبتعد الروائي الموهوب عن الروايات التاريخية والعلمية والفلسفية وأشباهها، وهو يعلم أين يسهب ويوجز كأنه الكناري الذي تلهمه غريزته براعته الموسيقية. ان الفن يفوق العلم وإن لم يكن له صدقه، ونحن لا نطمع أبداً في أن تعلمنـــا الرواية دروس الأشياء ولا تاريخ الأمم ... وهذه الروايات المبنية على علم النفس، وحده، لا تحيا ان لم يكن لها حظ وافر من النظرة الغربية الى الكون، ومن قوة الوصف وبراعة الانشاء.

والرواية أشد ضروب الادب تعرضاً لعلاقة الفن بالواقع. والرواية الحقيقية

الجديرة بأن تنسب الى الفكر الانساني السامي هي ما يظهرها الفنـــان بشكل موضوعي،والموضوعية لا تنفي الذاتية ، ولكن المؤلف الروائي يجب أن يكون شاهداً عيانياً ، وعلى مقدرته الفنية في الخلق والتعبير يتوقف نجاحه، وليس على الروائي أن يجمع في نفسه كل خواص الروائيين ، فحسبه خاصة يكون فيهـا نسيج وحده ليكون شيئاً مذكوراً .

ليس على الرواية أن تكتشف نواميس طبيعية كما يحاول علماء النفس منهم في روايتهم التي تفلق الناس بمطها ، ولكن مهمتها أن تحيي أشخاصاً وتخلقهم خلقاً عجيباً يجعلهم في عداد رجال التاريخ الحقيقيين كما فعل نوابغ روائيي العالم . لا أعدد ، فهذا أمر لا يجهله أقل الطلاب إلماماً بتاريخ آداب الأمم . وما أحلى كلمة قالها مونتينيه : يجب أن « نفنّن » الطبيعة و « نطبّع » الفن .

وملاك الرواية عنصران هامّان : التأليف والتحليل . أما التحليل فهو غالباً عمل يأخذ قطعاً من الواقع المفكك ولكن هذه العناصر تبنى بنـــاء جديداً ، فعمل الروائي و كل فنان، كما قلنا في فصل سابق، هو أن يتمثل الأشياء ويخرجها اخراجاً جديداً . ولا يعني التحليل ان يكون لائحة منظمة كلائحات المختبرات لفحص الدم وغيره ... ولا تشريحاً علمياً ، بل يجب أن يكون خلقاً مفاجئاً .

أما التأليف فلا يأتي ايضاً بالطريقة الجدولية بل هو تركيب يمتد وينتشر ، إذ لا يكون خطة تنفّذ جزءاً جزءاً فهو ينمو نمواً طبيعيـــاً كما ينمو الجسم بخلاياه ، أما الروائي الرديء فيخلق جثثاً وتماثيل .

أما كيف يتخطى القصصي من التحليل الى التأليف فهنا سر النبوغ ، وبهذا الفنان من المحترف ، او كما يقول المثل اللبناني : هنا تعرف القرعا من أم ـون .

وفي كل حـال تقوم الرواية وتعلو بقدر انشاء تلك المخيلة ، وميزة التعبير والعرض الموجز. فللسياق والتتابع والتنافر المقصود والانحراف، والحذف والالغاء والاهمال عمل ذو شأن كبير في القصة . أما الاستطراد فلا يكون مقبولاً إلا اذا كان في لحمة الرواية . وللاستطراد أناس طبعوا عليه يحسنونه بالسليقة فلا يتصدّ له

من ليس من رجاله . وبالاختصار ان الاستطراد اذا كان وجيزاً يهب الموضوع جمالاً وظرفاً ، وما أشبهه في تلك الحـــال ببرق يشق الظلمات . ولاختلاف الاسلوب عمل كبير في الرواية فلكل مقام مقال كما علمنا السلف ، فاللهجات تتعدد وتختلف باختلاف الاشخاص ، وأحوال الرواية وظروفها وأمكنتهـا . ففي استطاعة الروائي أن يجعل الرواية الواحدة مجموعة أساليب ولهجات ناطقة حية .

ولغة الرواية تختلف ايضاً باختلاف الاحوال ، ولكل ضرب من الروايات أسلوب خاص لا تصلح إلا به ولا يصلح إلا لها . والرواية محتاجة ابداً الى انشاء صحيح رفيع وخصوصاً ما ينسب منها الى المؤلف ، وان تساهل الفن في ما يقوله المؤلف بلسان أبطاله ليكون مطابقاً لواقع الحال وهو شرط البلاغة الاساسي ، فهو لا يغتفر الركاكة في مـــا يعزى الى المؤلف . هذا في الرواية الفنية التي تطمح الى الخلود ، أما في غيرها فقل ما شئت ، ومن يطالبك ؟ أليس في الدنيا هذر لا يحصى ؟

قبيح جداً ان يكون الانشاء القصصي بضاعة رواسم ، أو عرض قوالب سكافين بطلت في السوق . يجب ان يكون انشاء المؤلف متفرداً متشبعاً من شخصية لها لونها وطابعها .

أما الحوار ، وهو عنصر خطير من عناصر الرواية ، فيجب أن يكون لغـة الناس او ما يشبهها ويقرب منها كل القرب ، ومجاله في لغتنا العامية واسع ان كلف الكاتب نفسه عناء التأليف والتنقيب على الالفاظ والتعابير . ان المحافظة على أصول اللغة شرط أساسي ،ومن تعدى هذه القوانين فسدت طبخته مهما سما في الخيال والقص والاختراع . أما اهمية الحوار فهي انه يصور لنا شخوص الرواية بلباقة خلقاً وخلقاً ، وكثيراً ما يغنينا عن الوصف المستقل الذي يعرفنا بالابطال ولكنه يأتي غالباً كأنه مقحم اقحاماً .

والرواية بعد كل هذا تحتـــاج الى قوى عديدة مجتمعة : مخيلة خصبة تحبل وتلد ، تخلق الابطال وتمنحهم فصاحة لسان وصحة رأي وقوة ايمان ، وتخلق تجاههم أبطالاً آخرين لا يقلون عنهم شأناً ليقفوا ازاء بعضهم وقوف الند أمام الند في الساعات العظيمة التي لا ينساها القارىء ويحدثك عنها كأنه ادركها بعينيه الثنتين .

والاشخاص التي تخلقها هذه المخيلة قد تكون جسوماً مترهلة ان لم يهبها خالقها اعصاباً شديدة تحركها دائماً، فحيوية الرواية في حركتها، وبدونها يسأمها القارىء ويطرحها الى جانب سريره ، وقد تنام هناك نومة هانئة ... والحركة يخلقها المؤلف بمحاورة هؤلاء الاشخاص وتحدثهم دائماً عن أنفسهم وعن سواهم ، وعن الحوادث التي تعرف القارىء بهذا وذاك وهذه وتلك، وتدل على خلقهم وخلقهم من غير قصد وتعمد ، وهذا هو الفن .

وأكثر ما تشكوه الروايات العالمية هو ضعف هاتين الناحيتين : الخلق البديع والحركة .

وللرواية سياق لا يندّ الروائي القدير عن سبيله ، فهو مهما توغل في الغابة لا يفلت الخيط . وتنوع الموضوع واجب إذ بدونه لا يتبعنا القارىء ، بل يعتريه الملل وضيق الخلق فيدعنا وشأننا .

والروائي أشد الناس احتياجاً الى اكثر العلوم، وخصوصاً الاجتماعية منها، كعلم النفس والتاريخ والجغرافيا والأدب الخ . وأهم هذه العلوم، علم النفس، فمن يجهله لا يصور اشخاصه تصويراً صادقاً . ولا نعني ان نتعلم هذه العلوم في الكتب ، فهناك غير الكتب تعلم الفنان كيف يخلق ابطاله خلقاً سوياً، أهمها مراقبة حركات البشر مراقبة شديدة ، وسماع احاديثهم والاستنتاج . والدرس والمراقبة والسماع لا تفيد شيئاً ان فاتته القريحة ، فأعظم نوابغ البشر اتقنوا التشخيص ولم يتعلموا هذا الفن ، كما ان غير الموهوبين وان تعلموا هذه العلوم في اعظم الجامعات لا يستطيعون تطبيقها بل يصورون شخوصهم صوراً تنفيها او تناقضها اعمالهم فيما بعد .

وللمرحوم فرح انطون فصل في جامعته عنوانه : انشاء الروايات العربية ، تفيد مطالعته من يعنيهم الامر .

وفي كل حال لا يهمنا إلا عناصر الحياة والحقيقة في الأثر الفني ، وهذا لا يتحقق إلا عندما نمزج اختبارنا النظري بأحلامنا وخيالنا، أي ان نمزج الحقيقة التي نراها بإدراكنا الشعري الذي يعبرون عنه بالوحي والالهام. فعندئذٍ نستطيع ان نردد كلمة رابليه : أدخل فهنا يصهرون الايمان العميق . وإلا فإننا نردد عبارته

الأخرى : أرخ الستار فالهرج قد انتهى .

حكاية الرغيف

ان طعم ايام الحرب لا يزال تحت اضراس توفيق يوسف عواد، والعلم في الصغر كالنقش في الحجر، فهو يقدم رغيفه الى أحق الناس بها، الى ابيه المجاهد في حرب المعاش . ولكن أي رغيف ؟ رغيفاً (فيه نفس الحرية والكرامة) . هذا رغيف توفيق عواد وقد أدى فكرته في مواقف اذكر منها حديث سامي لزينة (ص٦٤ ثم صفحة ٢٦٥ وما يليها رقم ٧ و ٨) .

الرغيف رواية كأنها مسرحية ذات مدخل وخمسة عناوين : التربة، والبذار والغيث، والسنابل، والحصاد. صفحاتها ٣١٥ اخرجتها دار المكشوف بحلة رصينة، ولولا الذي بيننا وبين الحبيشي صاحب الدار من خبز وملح لأطنبنا في اطراء مضيفته الادبية ، فالرغيف الذي يقدمه للناس لا يقل عزة عن مجد ذاك في ايام الحرب .

تنم عناوين الرواية على انها عظـــات وحكمة ، ولكن توفيق عواد، وهو من ابناء الفن ، يعلم ان الروائي غير الواعظ . فهو يقص وعليك انت ان تستنتج . يروي لك اخباراً صحيحة او كالصحيحة، يصدقها كل من شهد مصائب الحرب وبلاياها، فأبطاله الذين علقوا بذاكرته الطرية ثم خلقتهم اليوم مخيلته خلقاً جديداً لا ينكرهم من شهد الناس مثلنا قعوداً على قارعة الطريق، حول روث الخيل كأنهم في السياطين . لا يعفّون عن الفئران والجرذان والهررة ، ولا انسى ابداً تلك الكهلة التي ذبحت حفيدهـــا وادخرت لحمه وشحمه في برنية ليكون غذاءها الاحتياطي ... وحسبي ما ذكرت من مشاهد المجاعة لئلا تتقزز نفوس القراء .

يصف الاستاذ عواد في « المدخل » فتح الجند التركي لبنان ووصوله الى قرية بحرصاف، وقد أهمل تصوير بحرصاف الجميلة كما يهمل وصف أكثر الساحات التي يجعلها معتركاً لابطاله ، ــ في الرغيف والصبي والقميص ــ وهو ان فعل احياناً فبخطوط أولية لا ترينا الصورة واضحة كاملة ، مع أن هذا الوصف من عناصر الرواية الخطيرة وهو الذي يقربها من الواقع ، ولا يعوق الحركة ان اقتصد فيه،

وسندرس هذا في محله .

جميل تصويره دخول الجند لبنان ، واجمل منه حركات توفيق الصبي : « وانا أرفع انفي - وأنفه ذو شأن - حيناً بسؤال الى والدي ، وأشير بأصبعي حيناً وأصفق مسروراً حيناً آخر» . ولغرض ما كرر المؤلف حيناً مع ان«الظروف» كثيرة في لغتنا واكثرها بمعنى حين .

وفي هذا المدخل الذي لا تبلغ صفحاته عدد أصابع اليد الواحدة يحشر المؤلف نفسه مع لوّام لبنان على رخاوته وتواكله ، وقصر همته ، والتفاته صوب الغرب. غفر الله للسياسة والنعرات الدينية ، وأعاضنا بطول بقاء شبابنا وأبقى لنا هذا القليل من لابسي اللبادة والسروال ، والصدرة المزررة ، رمز رجولة ذابت في ثيابنا المزمكة . وبعد فلنتقدم الى الرواية .

في الرواية أبطال عديدون سنحللهم واحداً واحداً وان كان اكثرهم من مقلع واحد ، ومكسرهم واحداً. والخطوط التي تميزهم متفرقة تحصلها من هنا وهناك ، فتوفيق لا يسردها سرداً ، لولا ضحكة خليل المعلّا الاولى (ص ٢٤) ما علمت ان دكان ورده كسار في ساقية المسك . ولكن الحركة العنيفة التي يبتسم بها توفيق عواد الروائي لا تدعك تتأملهم جيداً ، ففي يد الاستاذ سوط يفرقع ويؤلم معاً ، انه لا يعرف الرحمة في سبيل الفن ، وقلما يسقط عن الدرجة الثالثة في سوق أبطاله . ولو في الأكواع الخطرة - خطر الموت .

حكاية الرغيف بسيطة ككل موضوع يعالجه الفنان فيطرّقه كما يطرق الصائغ كتلة من الذهب ليخلق منها معنى طريفاً. أما مسرحها ففي لبنان. في بحرصاف ، منبت توفيق عواد . حيث استشهد الهر المسكين الصبي الاعرج (ص ١٨٣) - وساقية المسك حدّها. البيت الجبلي اللبناني هو العش الذي طارت منه هذه الطيور البلدية مثل: ورده وزينه وبوسعيد وطام ، والقواطع مثل سامي عاصم وكامل افندي.

فزينة بنت لبنانية يتيمة الأم ثم الأب تحب شاباً بيروتياً اسمه سامي عاصم ابن تاجر بيروتي يستهلك ما يصدره مشغل الديما الذي أحدثه ابوها سعيد بعد عودته من اميركا مع خالتها ورده ، وابنها طام أخي زينه من أبيها . كان سامي عاصم يصيف

في ساقية المسك في بيت سعيد كسار بل في كرمه ـ النقبة ـ وكانت زينة تقوم على خدمته فتحابَّا . وكانت الحرب العظمى فخاف سامي ان يساق الى ساحة الحرب ، ففر الى لبنان واختفى في بيت سعيد كسار ، ثم في «مغارة الخورية» مستتراً بثوب راهب ، وسمي الاخ حنانيا . وأرشدت الحكومة الى مخبئه فسيق الى الديوان العرفي في عاليه ولكنه فرّ مع رئيس الحراس شفيق أفندي العلايلي من سجن عاليه الى معسكر العرب فقتلا على ابواب الشام .

وجاهدت زينه في منطقتها فقتلت راسم بك قائد العسكر التركي في ساقية المسك وفتكت بالجاسوس خليل المعلا وحرقت بيت ابرهيم فاخر الذي ارتهن بيت جدها ، وأنقذت أخاها طام من الموت .

العرض الفني

التوبة ـ وردة كسار مزعجة غضبى لأن الجند بعثروا متاع حانوتها مفتشين عن سامي عاصم ، وبينا هي مرتبكة يسألها بوزيد خادم حانوتها كاس عرق أخرى فتأباها عليه ، ويدخل خليـل المعلّا فترحب به وردة ، ويغتنم الفرصة فينقدها ريالاً مجيدياً تسقي به بوزيد ليسرق منه سر سامي عاصم، فيشرب بوزيد حتى يمتلىء ويلمح الى السر ولكنه لا يفشيه . ويدخل الصغير طام ـ ابن وردة ـ فيعطيه بشلكاً ويخرج ، فيطير طام ليبشر جده بوسعيد بالغنيمة، وتلحق به أمه وردة فتنتزعه منه فيبكي، ثم ينام معلاً النفس ببشلك أبيض سيعطيه إياه جده.

ويسعف وردة جنديان على طرد بوزيد من الحانوت وتعمر الحلقـة . وكلهم ينتظرون زينة ، وزينة لا تجيء لانها في مغارة الخورية عند حبيبها سامي، فتبربر وردة وتجدف وتلعن، وتعود زينة ولكن الى المراح حيث «الصبحا» فتخبر جدها انها حملت رسالة الى سامي فعزم بعد قراءتها على النزوح الى أحد ديورة كسروان ليتخفى عن الابصار ، فالحكومة استاقت بعض رفاقه الى الديوان العرفي ، وانه مهدد لن يبارح ساقية المسك قبل أن يجتمع بالجاويش كامل افندي .

وفي الصباح يلتقي خليل المعلّا ببوزيد فينتحيان دكاناً يتقامران فيه ، وفي

نهاية اللعب يشعر المعلا صاحبه بوزيد انه قادم على رحلة الى الديوان العرفي بعاليه ... ،واسم الديوان العرفي كان يرعب ، وانه يمكنه ان يتقي شرها اذا باح له بسره ، وان وردة أيضاً ستشنق . فانهد بوزيد وهم بالهرب فتشاجرا وفر ، وغرم الجاسوس ثمن ما تحطم من متاع الدكان .

واتجه تخليل المعلّا صوب حانوت وردة فصادف ابنها طام في الطريق فاعطاه ريالاً مجيدياً واسترق منه خبراً مقتضباً عن سامي . وادرك طام أنه وقع في الفخ فرد المجيدي آسفاً على كلمة افلتت منه ، ولكنها لا تغني شيئاً . وفي تلك الساعة كانت زينة عند سامي تتعجب من دم عليه فيخبرها انه قتل جندياً تركياً واخذ بندقيته وثوبه العسكري ، ويبكت سامي نفسه على انزوائه في تلك المغارة بينا رفقاؤه في الميدان ، ويصر على الاجتماع بكامل افندي لعله يمكنه من عشرات البنادق فتكون غذاء للثورة العتيدة . فتذهب زينة من عنده الى الحانوت فترى خالتها وردة وخليل المعلّا يتساران ، فلا تدعوها خالتها للجلوس كالعادة ، ولا يكترث لها خليل المعلا . فتسرع لتسأل جدها عما فعل لدى كامل افندي فيخبرها ان راسم بك استدعاه ، وامام طام جلده وبصق في وجهه بصقة عامرة، فاشمأز طام ونسي الزبيب والجوز الذي يطعمه راسم بك،ولحق بكامل افندي يعاونه على قدميه الناضجتين على لهب الكرباج . وفي تلك الساعة يجيء الأخ حنانيا–سامي – ويحدث كامل افندي تحت جنح الدجى في بيت بوسعيد ، فاذا هما كلاهما من الجمعية القحطانية ، فتصافحا وتعاهدا الى غد .

البذار – وفي صباح اليوم التالي يدهم الجند مغارة الخورية ويقبضون على سامي، وبعد ان يشبعه راسم بك ضرباً ولكماً ودعساً، يقتاده ثلاثة فرسان الى بيروت، ومنها الى عاليه فيرحب الديوان العرفي بالاخ حنانيا (خوري نجس أيضاً ...) ويزج في الرقم٦ . فيرى الناس اشكالاً والواناً ، وابو زيد يصرخ كل هنيهة : « يا افندي ، باد شاهم جوق ياشا » ، فيُضرَب ويسكت .

انتصر له سامي وهو لا يعرفه فهدد بالضرب مثله ، وعرض عليه طعام « القروانة » فأبى .

وجاءت زينة الى عاليه بعد أن سرقت مالاً يكفيها من درج خالتها ، وبعد عناء شديد ، ومرارة حيرة الغريب المصورة احسن تصوير ، تلتقي بالمعلا فيعدها بتوصية صديقه رئيس الديوان رشدي بك ، ويمد يده الى صرتها فيأخذ ليرة ذهبية واربعة بشالك – تحرير الحساب – ثم يدلها على بيت رشدي بك ويوصيها باللطف والضحك لان رشدي بك يحب الابتسام... ولجأت زينة الى نزل صاحبته عوراء فذهب بنومها تلك الليلة تعليلها كل كلمة سمعتها من هذا وهذاك وهاتيك . وفي الصباح ، بعد ألف جهد ، قابلت صاحبها سامي وبلغته وصية جدها : الانكار .

وعادت هي الى ساقية المسك ونقل سامي الى زندان ، فارسل اليه عمر حمد احراماً .

وتعيد زينة سيرتها الاولى ، نقل الخضر والفواكه من انطلياس الى ساقية المسك هي واخوها طام – تلك مشيئة خالتها وردة التي احسنت معاملتها بعد القبض على سامي لسبب يكتمه الاستاذ معما كتم حتى النهاية . وفي صباح يوم ما تستعين زينة برأسمال اليوم على الذهاب الى عاليه ، فتواجه سامي عاصم مواجهة قصيرة ضاق لها صدر شفيق افندي رئيس الحراس ، فقبلت حبيبها قبل أن يخرجها قبلة بلهاء أي « مالت اليه تتشممه ثم مسحت شفتيها بكتفه » (١٢٢) .

وسيق سامي الى الديوان فاجاب بجرأة غريبة قبض ثمنها سياطاً عديدة ولكمات شديدة وبصقات عنيفة ، فحم ورأى حلماً غريباً أشبه بحلم زينة الذي قصته عليه (١٣٨) ، وافاق على عمر حمد قرب سريره .

وفي الخامس من أيار سنة ١٩١٦ مشت القافلة الاولى الى المشنقة وبينهم عمر حمد الذي ترك ساعته تذكاراً لسامي . وبلـــغ المسجونون حكم الموت فقرأه سامي ومزقه وداسه ، وجاء رئيس الحراس يأمره بالنوم ولكن بلهجة لا عهد له بها من قبل ، فنام .

الغيث – الجاويش كامل افندي صديق بيت كسار يحوقل في ساقية المسك ويترحم على رفيق سلوم ، فيضطرب بيت كسار من وردة الى زينة ، وتسأل وردة عن تهمة سامي فيستفظعها كامل افندي ويلعن الخسيس الدنيء الذي دل عليه ، وينفي ذلك عن طام وبوزيد لانهما لايعرفان اين هو ، فتقطع وردة الحديث .

وتغدو زينة الى عاليه وتنام عند العوراء وفي نيتها ان تقابل رشدي بك ، فتراه في الصباح يشق الشارع على حصان كأنه البرق، واقتفت اثره فاقبلت على جماعة يتحدثون عن فرار شفيق افندي رئيس الحراس والسجين سامي عاصم بحيلة غريبة: ادعى شفيق ان عنده سجيناً مريضاً فرخص له بنقله فقتل الحارس وفر مع السجين.

وتطاردهما الحكومة فتقتلها وتعرضها على الناس مغطية رأسيهما – كما هو مألوف – فتعود زينة الى البيت حزينة فيخبرها جدها انها لن تكون فيما بعد عبدة لخالتها المستبدة لانه رهن البيت بمئة ليرة . فوعت كلامه، ولما غاب قامت تتبع آثاره واحداً فواحداً حتى مغارة الخورية ، وهناك كانت وقفتها فيها كوقفة امرىء القيس . . .

وفي ذلك النهار اقبل طام على امه وردة يخبرها ان راسم بك – صاحبه – يريد اخته زينة ، فاستبشرت وردة بهذه الزلفى ورأت فيها باب رزق جديد. وذهبت زينة لمقابلة راسم بك فتوسل باستنطاقها لمراودتها عن نفسها، فاجفلت. فامهلها الى غد واعادها الى البيت، ولكنها لم تعد فأخذ «الصبحا» رهينة وزينة لم تعد أيضاً . وبينما بوسعيد مرتبك صابر على الاهانة والضرب تعود «الصبحا» الى البيت ويخبر طانيوس عمه بوسعيد ان زينة عند راسم بك . وتقضي زينة ليلة بهوديت عند اليفانا فينجلي «الصبح عن راسم بك جثة باردة صريع السم فالمسدس» وتفر زينة وجدها بوسعيد . اما طام فتتركه لأمه لانه صغير لايؤخذ بجريرة غيره، فاستاق الجند وردة وطام الى الثكنة العسكرية حيث اشبعوهما ضرباً فجنت واخذت تزغرد كلما عن لها ذلك، وزجت في السجن فاطبق عليها الجنون لعبث المسجونين بها.

وبعد اربعين يوماً افرج عنها فعادا الى ساقية المسك فتنكر لهما البيت وما يملكان من عقار ، فخبر طام ان ابراهيم بك فاخر المرتهن ارسل من اخذ المنجور والبلاط، فقصده طام تتبعه امه كظله، تزغرد وتشمر كلما جاءتها النوبة. ففاز من ابراهيم بك برغيفين اسودين، وعاد طام الى وكره فالتقى بكامل افندي فلم يعرفه الا بعد تأمل، فأمده بالشعير وغيره من جرايات العسكر، وقبل ذهابه الى ساحة الحرب ودعه بكيسين من الشعير وبشلك واحد ، واوصاه بالاتكال عليه تعالى ،

وعلله بانتهاء الحرب وسيجتمعان بالشام ان شاء الله .

وفي الغـــد تذهب الكتيبة فيودع طام كامل افندي وداعاً لطيفاً ، ويعود ليحافظ على الشعير ويخفيه عن بوزيد فيأتيه عمه طانيوس بكيس خبز ليلاً ويسأله اذا كان ابراهيم فاخر ارسل اليه مئة ليرة، وأنه سيرسلها والا فالعصابة البيضاء تنتقم منه . فانتظر طام ولم يأت شيء فكرّ كرة اخرى الى البيك فلم يفز بغير الخيبة ، بيد انه اختلس دجاجة ، ثم طمع باخرى فاشبع ضرباً .

وترد على ابراهيم بك رسالة من العصابة البيضاء لينيل الراهنين حقوقهم فـلا يأبه لها، فتحذره زوجته فلا يبالي معتمداً على ضابط المنطقة وخليل المعلا . وفي تلك الاثناء تتورم وردة وتنحط قواها فتنقطع الزغردة وتنثني عن اللحاق بابنها. ونام طام في احد الاقبية فجاء اصحاب النعش ليدفنوا امرأة ميتة في ذاك القبو، فاخذوا طفلها حياً معها وهموا بطام أيضاً فهرب وهو يصرخ : انا ما مت. فتأتي زينة فترى وردة وبوزيد ميتين ميتة كريهة .

السنابل ـ وتنطلق زينة بأخيها طام الى مغارة الخورية حيث عمه طانيوس، وهناك يأكل أكلاً عنيفاً، ويسائل عن العصابة البيضاء مسائل صبيانية فتجيب زينة بمثلها. وفي مساء اليوم التالي يكنون ثلاثتهم في ضاحية بكفيا. ثم ترسل زينة أخاها طام ليتقصى ابراهيم بك فاخر فلا يذهب الصبي حتى يدوي الرصاص، فتتقدم زينة فترى جندياً تركياً صريعاً وطانيوس يفتش جيوبه ، ثم ترى خليل المعلّا مشدوداً الى شجرة، ويقول لها طانيوس تركته لك . فتستبد به وتهم بقتله فيخبرها أن حبيبها سامي عاصم لا يزال حيّاً وهو يحارب في الصحراء والنصر قريب ، وان مصرعه كان حيلة حكومية، وانه هو مثّل دور سامي المقتول، فكان حلوان هذه البشارة قبض روح هذا الخائن الخسيس . وينتقل المؤلف الى وصف الحرب في الصحراء حيث سامي عاصم وصاحبه شفيق يتوقعان نسف قطار العسكر التركي، ويغير سامي بعد ذلك الهول فيسقط فرسه مدقوق العنق ويسلم هو، ثم يرى جندياً جريحاً يزحف فيحاول سامي أن يقضي عليه فيصيح ذاك :أنا عربي مثلك لا تقتلني. واذا بهذا العربي كامل أفندي فيتعانقان ويعرفه برئيس الحراس شفيق أفندي العلايلي.

وفي تلك الساعة من الرواية تكون زينة على صخرة عند بكفيا وابن عمها طانيوس يكاشفها بحبه وتأبى فيحرد حيناً. وننتقل الى البادية فنرى كامل أفندي رسولاً الى الأتراك يخاطبهم بأمر التسليم حتى اذا عاد أطلقوا خلفه الرصاص فلا يصيبون منه مقتلاً. وفي فصل تالٍ يجلس الثلاثة يمزحون مزحاً لا بأس به ويدرسون القضية العربية على ضوء جديد، ثم يذكرون زينة وطام، وتمر طائرة فيتندّرون.

ونعود الى لبنان فنسمع طام منادياً في بكفيا : « ابراهيم بك فاخر يوزع الطحين على الفقراء » ، فيتألبون حول بيته وبينهم طام وطانيوس وزينة ثم ينقلب الزحام ثورة تنتهي بحرق بيت الرجل وهلاكه فيه ، واختفاء طانيوس .

ويصل سامي الى الطفيلة في شرق الاردن فيشيع بين أهلها أن الأتراك يزحفون من عمان لاستردادها ، فيستمد الأهالي للدفاع عن قريتهم ويهب سامي وشفيق معهم فيسقط شفيق جريحاً لا يرجى فيجهز عليه سامي عملاً بما تعاهدا عليه لئلا يقع في يد الأتراك ، ويجلس بعدئـــذ سامي وكامل فيعلل كامل نفسه بدخول دمشق بعد اسبوع ، والذهاب الى ساقية المسك فيرى طام وزينة .

واعتدى الأسرى الأتراك على الأهلين فأصدر القواد أمرهم بإفناء الأسرى ، ويتوجه سامي الى المزيريب وهناك يثأر لنفسه من رشدي بك رئيس الديوان العرفي فيقتله شرّ قتلة ، ثم سوّى الأتراك صفـــاً واحداً وعرضهم على البنادق فحصدتهم . وركب فرسه متجهاً صوب العسكر فرأى العراك حامياً والأهالي يهجمون غير منتظرين أمراً حربياً فهجم وراءهم القواد بالسلاح الأبيض وكان سامي في طليعة الهاجمين وظل يهجم حتى قتل .

الحصاد ـ فاز العرب ودخلوا دمشق ظافرين، وانهزم الترك وجاءت زينة الى بيت الوراق عند كامل أفندي فقص عليهـــا امجاد سامي وكيف مات وهو يذكرها . وقد سلمه تلك الأمانة ـ الذخيرة التي علقتها في صدره ـ فتأخذها زينة وهي كأنها لا تسمع ولا تعي ولا تحس ، وتستفيق على أخيها طام يعالـج يدها ويسألها : أختي ، أختي ، ما هذه ؟ فتقول : لا شيء .

فما أروع هذه اللاشيء ، وسيأتي درسها .

اشخاص رواية الرغيف

لا بد من كلمة نعلقها على هامش « عرض الرغيف » قبل أن نتخطى الى درس أشخاصها .

ظلت الرواية متماسكة متصلة في مراحلها الثلاث الاولى – التربة ، البذار ، الغيث – حتى اذا ما أسبل الزرع وأحبّ – السنابل – بعدت الشقة ما بينه . فكأنما تنقـّل زينة بين عاليه وساقية المسك قد بقي خيطاً سرياً يربط الحوادث فيما انفصمت . وإذ انشق المسرح شطرين واحداً في الصحراء ، وآخر في لبنان ، انتقص الاتصال الطبيعي الذي نعمت به الرواية طويلاً ، فكاد ينقطع السياق أحياناً انقطاعاً مفاجئاً يشبه « دع ذا » النابغة .

ليس ينبغي لنا أن نؤاخذ المؤلف على هذا التقطع مؤاخذة عنيفة ، فكم له من ضريب في روايات ذوات مقام رفيع في عالم الأدب ، غير اننا كنا نتمنى ان تظل الرواية تعدو الجمزى ولا تطير هذا الطيران المتقطع . فالرغيف غنية بالحركة المنظمة ، وجري الحوادث لا اصطدام فيه ولا زحام ، منظم كخطط السير في العواصم . ولكن هذا البون الشاسع بين الميمنة والميسرة كما في رقم (١١ص٢٨٧) ذهب بشيء من الاتزان الفني . وقد نبتت على جذع الرواية بعض اغصان كان الأولى ان تتلخ مثل (رقم ٢ ص ١٥٥) . أبدعها المؤلف إكراماً لعيون زينة « التي تذبح ذبحاً » لتعلم على الهينة فرار سامي . المشهد جميل ، وحواره واقعي ، ولكنني رأيته ألبق بالمسرحيات منه بالقصة .

وكأني بالاستاذ عواد طمّاع أراد ايضاً أن يزيد على روايته الممتلئة كالرمانة ، مشهداً آخر ، فصور لنا الاحتفال بدفن المسيح والتنافس على قطف الازهار ولكن ذلك كان بعد فوات الوقت . فالمسيح لا يتضحّى بل يشبع نوماً ويقوم قبل هذا الموعد ، عند الكنيستين الغربية والشرقية ، ناهيك انه في العام الذي يؤرخه صاحب الرغيف ، قد قام باكراً (٢٣ نيسان) . هذه مسألة «طقسية» ولا بأس على توفيق ان فاتته ، ولكن زميله اناتول فرانس عندما كتب «تاييس» لم يسلم من

مطالعته كتاب ديني حتى خلق بفنوس الشهير . احتاج الى شيء فني فاستعاره له من قصة سمعان العمودي ، والقصصيون كالجيران يستعيرون من هـــذا لذاك معجزات وحوادث لا حوائج ومتاعاً .

ويلحق بهذا الباب جعل صاحبة النزل في عاليه عوراء . كل ذلك لتتشكى من الترك الذين يقولون للمرأة السوقية « عورات » ، ظانة انهم يعيرونها عورها . تلك رغبة ملحة عند اكثر الروائيين لم يسلم منها توفيق ، على ما عنده من حذر فني ، فظهرت في رغيفه بعض بثور سببها الاكثار من الخمير .

الاشخاص ـ بالاشخاص تحيا الرواية وبهم تتحرك ، وأصعب أعمـــال الفن الروائي خلق شخص حيّ ، أمـــا كيف يخلق الروائي هذا الشخص ـ الحي الباقي ـ فمن يعلم ؟

قل لي ماذا نفعل لنخلق ولداً نابغاً أقل لك ذلك . قد تحيي الشخص بضع كلمات وقد تقضي عليه جمل فصيحة يحسب المؤلف حين مسح القلم منها انه استراح كالله في اليوم السابع . وقد يخلق الصمت بطلاً يعجـــز عن تصويره الكلام ، والشخص الذي نعنيه هو الذي يخرج من بين سطور القصة ليسايرنا ويعاشرنا حتى نتوهم اننا سنلتقي به في طريقنا ، او في احدى الساحات العمومية ، أو في الحقل بغتة ، كأبي سعيد مثلاً ، فهو أقل أبطال الرغيف كلاماً وليس دون خيرهم حياة . لا يفطر هذا الخلق البديع إلا مخيلة قوية وذاكرة لاقطة تتجمع لديهـــا العناصر فتكوّن منها شيئاً واحداً يصير لها ، كما يستمد الابن خواصه المـــادية والمعنوية من أبيه وأمه وجدوده وجميع رهطه . فليس لنا ان نقولُ بطل هذه الرواية مثل ذاك ، فالناس تتشابه . وأبطـــال القصص ناس عالمهم الكتب ومسبحهم أخيلة البشر ، والاستعارة لا بد منهـــا ، فالمرء يعجز عن الخلق من العدم . لا بد من أن تتلاقى بعض عناصر أولية . وتلك الدنيا الآخرة ألا ترينها الكتب المقدسة كأنها صورة عن دنيانا ؟

ان العناصر المتكدسة في مخيلتنا كالبضاعة في مخازن الجمرك تعمل جميعها في تكوين أبطالنا ، كما تتشارك عناصر السلالة جمعاء في تكوين مولود جديد . فان

نبغ فهو ابن اولئك كلهم ولكنه غيرهم في كل حال .

واذا نظرنا الى أعظم الروائيين رأينا في أبطالهم بعض ملامح من تقدموهم . فمنهم من أحسن الخلق فرزق نابغة ، ومنهم من رأينا بين ولدهم بلهاً ، وكتعاً ، وعوراً ، وحولاً ، وحدباً ، ومقعدين ، وسحناً مقلوبة . لا نعني بهذا ان يكون الشخص - الروائي - جميلاً محبوباً ليكون خالداً ، فقد يكون الجميل المهذب النبيل شخصاً يتحرك كاللعب تحركاً آلياً ، وقد يكون القبيح المكروه شخصاً عبقرياً - في فصيلته - نتحدث عنه كأحد الناس ، وهو ابن مخيلة مبدعة .

قال أحد مشاهير كتّاب فرنسا القصصيين ، الفونس دوده : «فرح الروائي الحقيقي أن يخلق أشخاصاً انسانيين يتجولون بين الناس باسمائهم وحركاتهم وسحنهم التي طبعت فيهم ، فيتحدث الناس عنهم - ببغض أو حب - بقطع النظر عن خالقهم وبدون أن يذكروا اسمه . فما أشد فرحي حين أسمع الناس يتحدثون عن واحد من ألوف اللعب الآلية في مهزلة الحياة السياسية أو الفنية أو العالميـــة فيقولون : هذا تارتارين ، هذا مونبافون ، هذا ديليبيل . ان هزة تعتريني حين أسمع ذلك ، هزة كبرياء أبٍ غير معروف من جماعة يصفقون لابنه إعجاباً ، فهو يتأهب في كل هنيهة ليهتف : هذا ابني » .

أولئك هم الاشخاص الذين يتمنى الروائيون ان يرزقوهم ، وما أرى توفيق عواد إلا أبا واحد منهم إن شاءت آلهة الفن . فعنايته بشخوصه أكاد ألمسها بيدي ، فهو يدور حولهم كالمثّال وفي يديه الثنتين ازميله ومطرقته . غير اني أرى الناس يرغبون اليوم في تحديد النسل هرباً من مؤونة التربية الثقيلة ، بينما توفيق عواد أكثر تفقيصاً من الجرادة ، حتى أنه لم يحرم نفسه ولا أهل البيت الظهور في روايته ، ومن كان الدفتر في يده لا يكتب نفسه من الأشقياء . لقد خلق في رغيفه دنيا من الناس وأدى أفكارهم جميعاً .

تعود الروائيون أن يتقمّصوا أحد أبطالهم ، أما توفيق - في رغيفه - فهو في كل واحد وليس واحداً منهم ، وهذه أولى مزايا القصصي .

فأبو سعيد لبناني محض - فلاح مكفي سلطان مخفي - كأنه مقدود من جلاميد

لبنان، يستقبل الضربات بجبهة لا تنخفض كأنها السندان، ـ العلاة بلغة جدّنا طرفة ـ جلد صبور ينحت الصخور ويفتتها كأسلافه اللبنانيين ويصيّرها جناناً تطعم تيناً وعنباً، وتكسو دمقسا مفتلاً كالذي شبه به امرؤ القيس بعد حمّام دارة جلجل... ملتصق بعقاره كأنه أحد صخوره، مغروز في بيته كأنه عموده. ان ترك عادة من عاداته كقلع ضرس من أضراسه. لا يحلو له اسم حفيده ـ طام ـ لأنه ليس سميّ قديس ـ مع أن كنيته احتجاج صارخ على توفيق ـ مولع ببقراته كأنها من العيال، يرغمه ابنه المتأمرك على بيعها فيبقي «الصبحا» يتسلى بها عن اخواتها، وتصير إحدى بطلات الرغيف. ان عالم الروائي ككرسي الله الذي وسع السماوات والأرض، فيه الفصحاء وفيه العجماوات. تأبى يد أبي سعيد الخشنة ان تلطخ بعار، فيضحي بكل ما يملك ولا يدنس عرضه. يرى كرمه يقطع ويخرب فلا يبالي. يساق تحت الكرباج ليتنف ما غرس بيديه فيفعل ذلك صابراً على كل هذا لتسلم النعجة من براثن الذئب... وأخيراً يموت كنابوت الازراعيلي الذي لحست الكلاب دمه ولم ينزل عن كرمه. أما ابو سعيد ففدي عرضه بكرمه وآلامه وحياته، بيد أن صاحب الرغيف أخفى أثره عنا فيا أخفى، ولتوفيق مطامير فنية سنتحدث عنها.

وأبو سعيد ككل جد، بر بحفيديه زينة وطام يعوضهما مما فقداه من حنو الأب والأم.

أما وردة فمرأة رأسها يابس وعينها شاردة، مقطعة وموصلة، وقحة مستبدة، ربت في حجر أب سكير أكول كسلان، حازت دكتوراه أدب المعاش من اميركا ـ بمدة وجيزة ـ فعادت متفلقحة ذات عينين ساخرتين بالحياء والخفر اللبنانيين، تغوص على القرش في اقذار البواليع وتذل لأجله ابناً طاهراً وبنتاً نقية، تضحي بسامي عاصم لتصرف زينة الى زبائنها وتتصيد عليها ـ وهذا من مطامير توفيق ـ ولهذا انتقم المؤلف منها فجننها جنوناً مزرياً وجعلها تزغرد وتشمر بكرم فضاح كيمنية الريحاني، كلما جاءتها النوبة. ثم اماتها ميتة الكلاب.

زينة ـ بنت يتيمة الام ربت في ظل جدها، ثم عاد ابوها من اميركا يحمل اليها هدية نفيسة ـ خالتها وردة ـ. ما عرفنا زينة الا فتاة تشتهي، وتحب

سامي عاصم، وهي في كل اطوارها صبية لبنانية حصان، انوف، اجفل من النعامة، شعارها الكلمة اللبنانية : زينة البنت عفتها . شبت مقهورة تكاري عليها خالتها، بين انطلياس وساقية المسك . فتعمل مطيعة متغذية بحب سامي . محبة أكثر منها محبوبة، كما يظهر . نراها مؤمنة ساذجة تعلق ذخيرة عود الصليب في عنق سامي بايمان وحب صامتين ، ثم لا ترفع بصرها الى « فوق » إلا مرة كما أذكر . تقبّل حبيبها قبلة رهبانية ، وتتمسح به كمن يستلم الركن استلاماً. ثم تنقلب سفّاحاً، رئيسة عصابة ، تقتل الناس بلا رحمة وتحرق البيوت بقسوة بربرية .

ليس توفيق مسؤولاً عن زينة لأنه لم يذكر لنا شيئاً واضحاً عن نشأتها، وما زال الأمر كذلك فكل ما تفعله لا ينفيه خلق سابق خصها به. لها أن تمثل دور يهوديت قاتلة اليفانا فتقتل راسم بك، ولها ان تقطع الطريق فتقتل الجاسوس، ولها ايضاً أن تحرق بيتاً بما فيه في بكفيا، كل هذا لا اعتراض عليه فنياً ، أما إقليمياً وطائفياً فمسألة فيها نظر. فزينة ، كما رأينا، جان درك ثانية تصلح ان تكون سر عسكراً ومارشالاً. وما زالت البنت كذلك في لبنان فكيف ننعى للملأ شجاعة رجاله؟ ليته جعلها من الصرود فتدنو من هذه القسوة العبقرية والجرائم الصارخة. ومع هذا فقد تكون اكتسبت هذا من سامي عاصم كما تعلمت أمّ غوركي من ابنها وصارت مثله . ان هذا مستحيل ممكن نترحم بمناسبته على الشيخ يوسف الاسير صاحب البرهان المشهور ...

طام ــ أخو زينة لأبيها ــ نشأ طفلاً مدللاً لعوباً في كنف جده ابي سعيد ، والمثل اللبناني يقول: ما أعز من الابن إلا إبن الابن. الولد غرّ حذر في وقت معاً، حمّلوه سرّاً ونسوا المثل : خذ أسرارهم من صغارهم . وفيّ ودود يعاف على صغره وجوعه ، جوز راسم بك وزبيبه انتصاراً لكامل افندي . يعيد البشلك الابيض ــ الذي هيأه توفيق لاستقباله ــ انفة واستكباراً ، يبكي بكاءً مرّاً لكلمة أفلتت منه وهي لا تضر ولا تنفع . أحط الجوع خلقه فسرق ليأكل ، ولكنه كان يوسفاً ثانياً حين راوده السجان ، واستقتل على ضعفه وخوره في صد كركور عن عرض أمه .

ابو زيد ـ صديق وردة ـ بغتة ـ يعاونها على اشغال حانوتها ، بدين ، قذر ، سكير مزعج ، ولكنه بطل رواية حقاً، صوره توفيق صورة أخالها قبالة عيني، يتمايل بغنبازه المشقوق . وما أكثر امثاله الذين يعترضوننا في السكة . لا يعرف ما في تصوير ابو زيد من صدق إلا من له عينان ، كأن المؤلف لقام ليالي وجُمَعاً حيث يكون امثاله ليخرج هذه الصورة النادرة التي أتمها في عاليه حين كان يصرخ في السجن : « يا افندي ! باد شاهم جوق ياشا » .

خليل المعلا ـ شنيع الصورة أحفى الجدري شاربيه، ابتسامته خبيثة كريهة، وضحكته نسناسية ، جعل المؤلف في وجهه سيماءه الدالة عليه ، جاسوس وقوّاد للاتراك في وقت معاً، استأثر بالانحطاط كله ولم يترك لأحد شيئاً ، وما اجدره ساعة صرعته زينة ، بالكلمة التي قالها ابليس دانتي ليفينيديكو : اذهب ايها القواد ، فليس هنا من تبيع عرضها .

سامي عاصم ـ ابن تاجر بيروتي ، لا يعرف كيف يحب ، والعهد بهؤلاء خريجو مدارس عالية ... إلا اذا كان الفزع يطيّر الوجع كما يقولون . تجاوز مقدار الشجاعة والنهى بقتله الجندي التركي، وخصوصاً في الدفاع الأهوج بالديوان العرفي . ينظم الشعر ليحرض الناس على الثورة ، ولكنه لا يرضى عن شعره الجميل فيكتب ويمحو . تعوز شعره القوة ـ كشعر بشاره الخوري القومي ـ ولكنه اعاضنا ببطولته وموته في الصحراء من ذلك الشعر الرخو .

كامل افندي ـ شاب شامي، يدل تركيبه على انه أهبل، ثم يحل في الصحراء مشكلة حربية ، مسلم مؤمن ، مواظب الخمس لأوقاتها ، يطفح صدره يقيناً ، متكل على ربه ـ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ـ يهلل في الصحراء ويكبّر ويصلي ويسلم كأنه في الجامع الأموي، ويجاهد كأنه مع النبي في وقعة بدر. كبير الأمل بفلاح العرب ، طيب القلب متردد في غشيان كل ما يسيء إلى اسلامه ، وهو الى كل هذا يرى الخلق كلهم عيال الله . يترحم على صديقه رفيق سلوم المسيحي من كل قلبه .

راسم بك ـ قائد الجيش، رجل خمسيني مديد القامة صليب العود فاسق أدعر ،

متعجرف مهاب ، قاس يأخذ الناس بالشبهات ، منتقم لا يعرف الرحمة ، شديد الوطأة على الجيش كأنه زياد أو الحجّاج .

رشدي بك – رئيس الديوان . صورته الاخلاقية والخلقية وخصوصاً « فكه السفلي » تعيد الى ذاكرتي وجه رضا بك رئيس الديوان العرفي الذي أرعب لبنان ما خلا الجبيلات – فهو الذي يعنيه توفيق لا غيره ، وصفته معروفة منا وتشهد بها الكتب .

شفيق أفندي – رئيس الحراس رجل يظهر ما لا يبطن ، مسيّر لا مخيّر ، تركي لباسه ، عربي قلبه ، يمضه الاستبداد ببني أمه وعمه ، ويسكت على مضض ، جريء مغامر يدبر الأمور ويحكم الخطط .

طانيوس كسار – لم يعطه المؤلف شيئاً مما وهب لزينة بنت عمه ، فهو في واد وهي في واد ، أمانيه ضيقة لا تتجاوز الكيس ، مكاري جلف لا يقاتل للمثل العليا ، كسول غير شجاع « يعتاض عن سلاح الأسود بسلاح الثعالب » .

ابراهيم فاخر – بيك عتيق ، وآدمي طازه ، ضيق العينين كأنه من خزر تغلب ، متكالب على حطام الدنيا ، غني صخري القلب ، جبان يثق بالحكومة وبحمايتها للعباد ، امرأته عقيم ، والمثل اللبناني ينفي عن مثله الكرم . خروج القرش من جيبه وطلوع روحه سيّان ، وهكذا كان .

هؤلاء أشخاص توفيق العاملون في جمعية الرغيف ، أما أعضاء الشرف وغيرهم فما يتسع البحث لدرسهم كلهم ، وقد يكون عددهم كثيراً ولكن الأبطال لا يكثرون على توفيق فدواهيه تبددهم وتطهر الأرض منهم فهو :

يمشي وعزرائيل من خلفه مشمّر الاردان للقبض

لم يسلم من كل من حشد في روايته إلا ثلاثة : زينة وطام وكامل أفندي . فالاستاذ روائي سفاح ، زملاؤه كثر في عالم القصة . كانت وطأته على أبطاله ثقيلة ، فما أبقت عليه المجاعة والديوان العرفي أفناه هو . ليس يعنينا هذا فالفاخوري مسلط على طينه .

اذا كان الانسان ابن نشأته ووليد بيئته الاولى ، كما قال الدكتور أدهم وعلماؤه ،

فتوفيق لبناني مهما تبيرَت . فهؤلاء أبطاله في روايته «الرغيف» وقصصه «الصبي» «والقميص» ــ إلا أقلهم ــ من أبناء الجبل. صوّرهم تصويراً رائعاً صب فيه كل ما أوتي من قوة فنية فجاؤوا واضحين مميزين متساوين في العظمة والكرامة . كان التصوير ناتئاً حتى النفور، والتظهير متقناً حتى التقوية، وللعين العمل الأكبر في ذلك. معظمهم قرويون أو يشبهون القرويين، وجلهم أو كلهم من السوقة ، وتوفيق اختصاصي بدرس هذه الطبقة وتصويرها. وأوسع أشخاصه ثقافة وعلماً هو سامي عاصم. يزجهم توفيق في مآزق حرجة ويحملهم شهداء ليستفز الضعفاء فينهضوا ، وهذا هو هدفه في روايته وقصصه ، يجري في هذا وراء غوركي الذي قلما سلم له بطل.

يعجبني من توفيق أنه لا يرسم لك أبطاله دفعة واحدة بل عليك ان تلتقط صورهم من هنا وهنالك ، انه لا يعطيكها جرعة واحدة بل متقطعة كالدواء ، وبعض الأحيان يهمل كل هذا فتدلك عليه القرائن ، وهذه طريقة لا بأس بها . كثيرون من الروائيين الكبار ــ ديماس مثلاً ــ يصورون أبطالهم بلسان الآخرين منهم ، وهكذا تظل حركة الرواية مستمرة، فلا يحس القارىء جموداً أو وقوفاً.

ان أشخاص توفيق مكتنزو الأجسام، أقوياء البنية ــ فنياً ــ لا يحتاجون الى الفوسفات وزيت السمك ، ففي مطبخ أبيهم الفني خيرات كثيرة .

حوار الرغيف وأشياء أخرى

اللهم ، اسقنا سقياً نافعاً ، اللهم ، حوالينا لا علينا لأن الفاضل ضار .

لا أدري أهي حديث شريف ، أم كلمة مأثورة ، وقد تكون آية . ولكنها، كيفما دارت بها الحال، تصلح دستوراً عاماً لكل شأن ولا نستثني الآثار الأدبية . فكما يستبشع القزم كذلك يستشنع الذي هو فوق الطويل كالشمروخ الغرانق .

أجاد الاستاذ عواد في الحوار ــ لولا التمغيط احياناً ــ فكسا روايته لوناً خاصاً هو ألزم حاجات الصائغ الفني ليموه به ويطلي آثاره. والفن هدف صاحب

«الرغيف» فيما ألـّف وصنف. فالخيال والواقع صنوان في حواره. ان الحوار معضلة الفن القصصي، وهي تشغل حتى الأوروبيين الذين يكتبون، تقريباً، كما يتكلمون. فغير الباريسي مثلاً، لا يحسن اداء حديث الباريسيين بالضبط ومن طالع قصص موبسان الاقليمية يدرك كم سعى هو وأتباعه ليجعلوا العلاقات بين أبطالهم كالتي بين الناس قولاً وفعلاً.

قد شعر شيخنا الجاحظ بهذه الحاجة الفنية فقال في كتابه الحيوان (ج ١ ص ١٦١) : « وأنا أقول ان الاعراب يفسد نوادر المولـّدين كما أن اللحن يفسد كلام الاعراب ».

لا بدع ان أدرك أديب كامل كالجاحظ سلحته الطبيعة بذوق كامل، ان هذا الشر لا بد من وقوعه · إنـّا نقدر له هذا الرأي الأصيل وان كنا نقبح حواراً عامياً كالسيل الجارف مثل حوار الأستاذ توفيق الحكيم في «عودة الروح». هذا الحوار الذي أطراه السيد صلاح ذهني في كتابه الظريف « مصر بين عهدين » فحوار كهذا لا يعجبني. انه جناية على اللغة الفصحى التي هي رابطة العرب، ناهيك ان غير المصري لا يتذوقه، بل لا يفهمه، ونحن نريد أدباً عاماً. قد سألت طلعت باشا حرب قمع هذه الفوضى، فكتب واعداً ان يتدبر ذلك في ما يخرجه ستديو بنك مصر من مسرحيات لتتذوقها الأقطار كلها.

وبعد هذا زعم كاتب نقد أقاصيص توفيق عواد في المقتطف : ان البائـع الجوال في شوارع القاهرة ينادي على سلعته «عندنا نفتالين يمنـع العث من الملابس» ولذلك يخالف هو « من يدعو الأدباء الى مخاطبة الدهماء بلهجتهم ومصطلحاتهم وتعابيرهم » انه يريد أدباً رفيعاً، حتى في الحوار، ولو جاء كالضبط بالشكل الكامل في الجمع والضرب والقسمة.

قلنا: اذا كان هذا الكلام على لسان البائع فأسلوبه أولى مع مراعاة الأصول، لأن الرواية صورة الحياة، ولكن سر الفن ليس في هذا بل في وضع الشيء في محله. فانشاء المؤلف وطريقته القصصية وتخطيط روايته تؤلف كلها، مجتمعة، أثراً فنياً. واذا اجتمعت للمؤلف الموسيقى الكاملة والخلق المتناسب الملتحم،

تألفت وحدة صادقة الدلالة والتعبير وهذا هو الأثر. فكم يأتي أفصح الكلام نابياً وأرذله فصيحاً مليحاً ! فالحكَم هنا هو الذوق الفني ليس غير .

اننا ننكر على ناقد أقاصيص توفيق عواد قوله ان في لهجة مصر طواعية لهجة الأقطار وخصوصاً اللبنانية ، وقد أحسن توفيق عواد وأجاد استعمالها في أقاصيصه وروايته ،ولولا يمعن توفيق في تهذيبها لطابق حواره الواقع كل المطابقة ولم تخسر الفصحى ولا أسلوب العرب مثقال ذرة .

جاء في الرغيف (ص ١٨) : «وحاول القيـــام بكأسه ـ الضمير عائد الى بوزيد ـ فوقعت على الأرض وذهبت شظايا ، فانحنى يلمها ويبوسها متباكياً : يا حرام . يا حرام » .

فتجيبه وردة : « ُكلـُها ُكلـُها . عسى أن تموت » .

ان « يبوسها » لا تلائم «ذهبت شظايا» فـ «يقبلها» هنا أفضل ، و «التقطها» خير من «لمـّها» . أما «يا حرام ،.يا حرام»» فطبيعية وجميلة جداً في هذا المقام ، وكذلك قول وردة : «ُكلـُها ، كلها . أما عسى أن تموت» فجافية وفي المكنة الهرب منها الى : « ليتك تموت » ، فيقضى الأمر الذي يرومه المؤلف ويوفق بين الفصيح والعامي من الكلام .

وفي (ص ١٩) يقول بوزيد ايضاً : «قدح واحد بعد . يدفعه عني الخواجه». فلو قوّله : «أعطيني قدحاً آخر . الخواجة يدفع لك ثمنه» ، بل لو قال : « هات فرد قدح » لجاء التعبير عامياً فصيحاً، ومن قرأ الأدب القديم رأى أن مثل «فرد قدح» ورد كثيراً في كلامهم .

أما قول وردة : « من أين لي العرق ؟ » فأكثر من جميل ، أما : « هل أنت مجنون » ، فخير منها : آنت مجنون ؟

ومثل هذا ورد عن الفصحاء . قال النبي (صلعم) لأعرابي كان عنده : أعطني السكين . فأجابه ذاك الذي لا يعرف ما السكين : آلمدية تريد؟والعبارة التي تليها : « رح أكمل سكرتك حيث بدأتها » لا تحتاج لتصير كالواقع إلا الى حذف همزة أكمل فتصير : رح كمل سكرتك حيث كنت .

وفي الصفحة (٢٠) يقول بوزيد ايضـــاً : « أهذا عرق أم لا ، شمّ شمّ يا خواجه » هذا جميل ، والأجمـــل حذف الهمزة . ثم قوله : «عرق وردة كسار رائحته كالمسك ، سترى انها تصب لي قدحاً آخر » .

هنا يجب حذف كسار فليس بوزيد متى الانجيلي يكتب انجيل السلسلة . وابدال الكاف بمثل أولى بعشاق الواقع ، وهو لا يضر اسلوب العرب شيئاً . ثم لو قال: «ريحة عرق وردة مثل المسك» لكان كالواقع بعينه ، فهذه السين واختها سوف ، وهمزة الاستفهام ، وبنت عمها هل ، وغيرها كالكاف واترابها قد عافها اللسان العامي الذي يهذب الخشن ويثقف المعوج .

ويصف توفيق عواد عيني زينة وفمها فيقول: «لها فم كالفستقة ، وعينان تذبحان ذبحاً » . الوصف جميل وهو من كلام العوام الطيب ، ولكنه يحتـاج الى تحرير أيضاً يخلصنا من الف التثنية ، ناهيك ان محله على لسان وردة أو أحد الابطال يكون أبلغ وأوقع .

هذا رأيي في الحوار ، وقد قلت أكثر من مرة ان لهجتنا اللبنانيـــة أطوع اللهجات وأقربها الى الفصحى. نحن في هذا البلد نكاد نتكلم لغة الكتاب الكريم ، وفي كلامنا وعلى ألسنتنا الكثير من كلماته وتعابيره . لا يتسع المجال لتحوير غير هذا من حوار الرغيف ، وقد أحسن الأستاذ عواد إذ تعمد التوفيق بين الأصول والواقع فأرضى الفن ولم يسخط الأخفشيين .

واذكر أخيراً عبارة جميلة قالها طام لأخته زينة : « تجننين أنت يا أختي » . ما أبشع هذه النون المعلقة بالفعل كهن بذنب هر . قد قضى الاعراب على توفيق أن يتعلق بها ، وماذا تريد أن يقول ؟ فلو قال : « جننتينا يا أختي » ، كما نقول بالحرف ، لعلت صيحة الغرّ الميامين حمـاة أسلوب العرب وأخرجت صدورهم أثقالها . أما الحلّ فعند الجاحظ وعندي . قال مولانا الجليل في كتاب الحيوان (ج ٤ ص ٣٣) : وقد يقول العاشق لمعشوقته : يا معذبتي ، وقد عذبتيني الخ» . أما الذي عندي فكما قالوا عذبتموهم وأعربوا الواو ضمة مشبعة ، فلنقل عذبتيني ، ونعرب الياء كسرة مشبعة . وسوف أستعملها حيث اضطر اليها وليشق المتعنتون

رؤوسهم، فداود أكل خبز التقدمة لما جاع . ما لنا نضع في رقابنا هذه الأغلال ونصرخ شاكين الجور؟ فلنحطّم ما لا يضر تحطيمه ، فلنلجأ الى القياس كما فعل الصحابة بعد موت النبي ، ولا بأس بالاجتهاد اللغوي فليست اللغة أقدس من الشرائع المنزلة ، دليل الحياة الأبدية .

ان أقاصيص عواد وروايته الرغيف تكاد تكون اصدق الروايات العربية حواراً ، ولا نؤاخذ مؤلفها إلا باسفاف حين يتكلم هو، او أخطاء لغوية ونحوية كثيرة يجب على كاتب كتوفيق عواد أن يتجنبها . ان أسلوب الرغيف كالرغيف له وجه وقفا، يلتقي فيه توفيق عواد الصحفي بتوفيق الشاعر، وقد استغربت إذ رأيته يقف على قمة الابداع في وصف الطفيلة التي لا أظنه رآها، بينا هو لا يعرض علينا بضاعة من تلك البابة إذ يصف المواضع اللبنانية . واذا كانت القصة ضرباً من «الرابورتاج» كما يحددها بعض كتّاب أوروبا فتوفيق قاص من الطراز الاول. في رغيفه غذاء لاوساط الناس ولا يعجز السوقة عن تذوقها ، أمـا المفكر فله منها النتائج التي طمرها المؤلف ، له الغاية التي كتبت لأجلها .

لا أزعم ان الرغيف دليل على الطبيعة الانسانية كاملة النقل يقرأها الأديب كل عام ولا تفرغ ، ولكنها في كل حال تصور حقبة نادرة الوقوع خرجت فيها الطباع عن مألوفها ، وسيبقى لها قراء في الغد يعلمون منها أن الجوع فضّاح. وان المثل اللبناني القائل: «ما أحد يموت من الجوع» ، غير صادق. قد يلاحظ قارىء الرغيف انها كخبز نهر ابراهيم مرققة حتى الهلهلة ، وعلة ذلك انه قرأ أقاصيص توفيق، والاقصوصة ملخص او خلاصة، ولذلك يؤاخذ كاتبها اكثر من مؤلف الرواية إذ عليه ان يجمع النور في بؤرة العدسة ليكوي ويحرق . أما الرواية ففيها ألف بؤرة وفجوة على القصصي ان يملأها ، ولماذا نهرب من قول كلمة حق؟ ان توفيق عواد القصصي أبرع من توفيق الروائي .

يعجبني من توفيق هذا الرسم والجز والرمز ـ لا أعني بالرمز تلك الفقاقيع ـ فالأشخاص ترد الى ثلاث أربع ضربات أصلية يعبر عنها ببضعة أفعال ، أما ما بقي فيترك. فالقراء الأذكياء يميزون الشخوص ونحن لا نكتب لهؤلاء. «فلنأخذ

الجوهر ونخرجه للقارىء بأفعال مقنعة متضامة مختصرة تلخص الحياة وهذه هي غاية الفن » هكذا علم النقّادة « تين » .

قد أهمل توفيق عواد تصوير بضعة أشخاص ولكنه جعل اعمالهم تدل عليهم ، أما الاغراب في كل الاعمال الادبية فمرجعه طبعه ، فعلى وجهه سيماء المغامر المعارض. فكيف نصدق نحن الذين رأينا لبنان يموت من الجوع ان تقوم فيه عصابة بيضاء او خضراء تفعل ما فعلته على رمية حجر من ساقية المسك ، مركز قيادة الجيش الهمايوني المظفر ، وهل يصدق ذلك كاتب مدخـــل الرغيف ؟ وهو لو فكر لم يجعلها تحت ذقن الوالي ...

ليس هذا الاغراب ببعيد التصديق لو لم يختر توفيق ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء ، كما يقول مار بولس عن ربه . بل لو استطاع ان يطلسم المستحيل ، فالطلسم الفني عدّة القاص ، وآلته ان نتكلم مؤمنين بما نقول وان روينا مستحيلاً كفعل دانتي في جحيمه (ف ٢٣ شعر ٣٧) والمعري في رسالته . قد يكون الذنب ذنبنا لأننا رأينا بأعيننا ما وقع في ذلك الزمان ، ولكن غيرنا لا يصدق مثلنا لأن التاريخ لا يموت . ان الكذب ضروري للفن ، إذ لا فن في الخلق الصحيح ، وتوفيق لم يقصر في هذا ولكنه تجاوز فيه الحد (حوادث زينة) .

أجل ان الرواية غير التاريخ الصحيح ، والروائي متافيزيكي ، والعلم لا يكون فناً ، أما المتافيزيك فدائمـــاً فن . والفن يفوق العلم وإن لم يكن له تحقيقه ، والشرط الاول ان نحسب حساباً للقارىء فهو يرفض المستحيل مهما خف عقله .

أما الجمز فخاصة فنية طريقة لم يعدمها توفيق ، فهو ينتقل ولا يبالي ، يترك كثيراً من العرض ، وهو لو فصل كل شيء لكان حكاء لا روائياً بالمعنى المعروف . انه يعتمد كثيراً على ذكاء القارىء فيدع له الاستنتاج ، ولكنه غالى في هذا فترك مطامير كثيرة ، وحفراً غير مطمورة ، فهو كالحاصد يقطع ويرمي وعليك ان تجمع. فمن مطاميره الدلالة على سامي وموت ابي سعيد ، وموت سامي ، وكيف احتفى طانيوس ، وماذا حل بالبيك الجليل واهله ، ولكنها خفايا غير عويصة ، وهي عندي أفضل من التصريح الوقح واللت القبيح .

أما الرمز فهو في التهيئة التي يلوح لك بها توفيق من بعيد ، ففي رغيفه معالم خفية يظهر شأنها فيما بعد ، وبها يعد أبطاله للعمل كما هيأ رشدي افندي للعطف على سامي . ان أكثر أبطال توفيق مهيأون بلباقة دقيقة فكأن القضاءوالقدر في شق قلمه . أما دلنا ، على ان سامي عاصم لم يقتل،حين قوّل خليل الملا : «هيبة الدولة كم مرة انا أنقذتها ! » (١٧١) . ومثل هذا تهيئة طانيوس (١٨٠) الخ . وكذلك ترحم كامل افندي المسلم على رفيقه سلوم المسيحي دون سواه .

أما التحليل عنده فممزوج بالتصوير . خذ مثلاً مشهد سامي عاصم في مغارة الخورية ،فهناك تحليل وتصوير وخذ مثلاً آخر زينة في عاليه (ص١٦٤) وما قبلها، ففي هذه تحليل ظريف وتصوير بارع لحيرة الغريب ونفسيته. فهذا المشهد في نظري أبرع مشاهد الرغيف، بل خير ما فيها على ما فيها من خير. أما اللون المحلي فعام في الرواية كلها، فرقم ٦ (١٧٥) فيه شعر ووصف نفيسان، ولتوفيق نبرات انشائية تكاد تكون شخصية ولكنه يعلو فيها ويسفل كالسنونو . ويعجبني فيه انه لا يفكر بالرواسم ، فعسى أن تتفق هذه النبرات في قابل مع اخواتها .

أما التناقض فكثير عند ابطاله، فزينة التي دل تعليقها الذخيرة في عنق سامي على ايمان متين ، لم نر فيها فتاة مسيحية متدينة ، فهي في احرج الساعات لم ترفع بصرها الى فوق — اللهم إلا مرة واحدة — مع أن النساء من طبعهن التدين والصلاة كما نرى في بطلة البعث لتولستوي . كانت تترك صلاتها لتقضي حاجاتها ثم تعود تصلي ساجدة للايقونة ، إتماماً للفرض ... واحد أبطالنا المحليين كان يستوقف ابناء السبيل ليتم صلاة المسبحة ثم يعود ليسلبهم أموالهم. ان المؤلف حر بمخلوقاته ولولا غرابة أعمال زينة لم نقل شيئاً. ومن الأغرب ايضاً ان تقص زينة على سامي، في أحرج الأوقات ، حلماً كرؤيا يوحنا ودانيال ، وان رأينا أثر علم فرويد في حلم زينة وسامي ، فحلم كامل افندي وليد ابن سيرين .

اني أرى توفيق عواد موضوعياً في عينيه اللاقطتين كعدسة المصور ، وذاتياً في نفسه التي تتأثر جداً وتحمى لأقل لهبة، فعينه تلتقط المشاهد الخارجية بالضبط، أما نفسه فقلما تهضم كل الهضم — لا بد من الكربونات —. تحس السينما صارخة في

مشاهده، اقرأ وصف مغارة الخورية ومصباح سامي الضئيل. والمصباح أحوج توفيق الى استعمال مشحات للسراج وهي سريانية لا عربية . ان هذه النظرات اللاقطة أفاضت اللون المحلي على المؤلف. والى اللون المحلي أضف اللون الخاص، فلبعض الأدباء لون خاص كخليل تقي الدين في كثير من تعابيره ـ اقصوصة الديك ـ ومثله عواد ، فان له لوناً خاصاً أحيانـــاً لكنه ضيق الانطلاق والاتساع . ولولا قلة المؤونة اللغوية لجاء هذ اللون صارخاً ، ولكن قلة توفيق اللغوية غامضة فكأنه من العيال المستورة. انه يتاجر بالوزنتين ويريك ان مخزنه ملآن وتجارته واسعة ، وهو على قلة بضاعته مدقق في التصرف بها .

ينقص الرغيف زخم العرض ، وتصوير المسارح ، وتوفيق في أقاصيصه أيضاً لا يصور المسرح ، وقد رأيته يتعمد حل قضايا اجتماعية في اقاصيصه ـ الصبي والقميص ـ حاول هنالك الدروس النفسية على مصباح فرويد وتلاميذه فخسر في هذه المحاولة شيئاً من سليقته ـ والغرامة لا بد منها دائماً ـ اقرأ قميص الصوف تر ان حب تلك الأرملة لابنها قد استحال حباً جنسياً. كل ذلك لأن فرويد يقول هذا . ففي أم قميص الصوف، وديك خادمة خليل تقي الدين تحليل فرويدي عنيف لا مبرر له في نظري. كان عمي انطون كأبي عروة السباع «يصيح بالسبع وقد حمل الشاة فيخليها ويذهب هارباً على وجهه » (بيان وتبيين ٧١ ج١) وكانت زوجته رجا ضقة العين تدّخر البيض الطري لبوفارس فلا تطيق ديكاً يأكل مع الدجاج مع ان عمي كان فحل شول .

أما شخوص الاستاذ عواد فمنتقاة من عالم الآثار ، نقول عتيقة بالية . ينظر اليها نظرة عصفورية ، أي يدور عينيـه حين اللزوم ، فهو سائق مغامر تلذ له الاصطدامات العنيفة ، والتزمير وما يليه من شتائم ومسبات . وهو تارة يصور ابطاله بريشة الرسام، وطوراً يرش النشادر ويكوي بحجر جهنم ونترات الفضة . ولهذا اسباب طبيعية اجهل عللها .

ان هذه النظرات الحادة تجعل فنه كالسلاح المشحوذ حديثاً ، يقطع جيداً ولا يرضيك بريقه ولمعانه ، وهو قبل كل شيء عابر سبيل يلم كل ما يقع في دربه

ويضعه في عبه لحين الحاجة ، فعينه مفتوحة دائماً حتى في الظلمات ، وهو على أخذ ما يرى أقدر منه على الخلق . ولو لم ترجح كفة الواقع جداً على خيـــال الرغيف لكانت خير ما خرج من نوعها .

يصور توفيق العاهات ببراعة تشوبها القسوة والكراهة ، فكأن له ثأراً عند صاحبها . فالعنف هو فن توفيق عواد وهو الذي يبث الحياة في قصصه ، فيخيل اليك انك امام خلية نحل في يوم قيظ . فليكن توفيق عنيفاً ما شاء فهذه حسنة فنية يزينها تنكبه عن التعابير المهيأة .

يحسب قارىء الرغيف وغيرها من قصصه ان درس الطباع فيها غير عميق لان مؤلفها لا يسير توّاً الى هذا الغرض، انه لا يشتغل وحده بل يسخرك للعمل معه ، فبدلاً من ان يصف اخلاق الابطال يريك اعمالهم التي تحددها ، ولكنه يتطرف فيطلب من جدته الاولى ان تلبس مثل اخته الصغرى ، او مثل عروسه ، وإلا فيعدها غير لابسة .

اقرأ لتعلم كيف يقسو على ام قميص الصوف ، حتى لم يبق إلا ان يضع على بابها مصباحاً احمر ... اني لأزعم ان اكثر دنيا قصص توفيق عواد صادرة عنه في اكثر الاحيان ، وأراه يرى الاشخاص ولا يرى التفاصيـل ، او يراقب من ناحية واحدة .

وكأني به قد قرأ القصص الشعبية كثيراً فصار يصدق كل شيء ، وكأني به ايضاً قد قرأ لقصصيين عديدين فآمن ايضاً بالعنف حتى في الحب فصور لنـــا كأناتاول فرانس تلذذ المعشوقة باللكم والضرب . فصور لنا وردة التي لم تحصن فرجها من صراع ليلي مع جندي تركي وتلاوص زينة لتأخذ درساً ... ولكن هذه المشاهد العديدة التي تعج بها الرغيف يبدو بعضها غير متماسك والسبب طمع توفيق بالاكثار منها . قد يبدو المشهد جميلاً بحد ذاته ولكنه لا يمتزج بما حوله . يجعل من سامي عاصم بطلاً لا يهاب المنية ثم يعمله عمل الاطفال إذ يلحس أصبعه حين يلمسها كرباج السجان .

لقد أكثر من استعمال حكايات الاصوات فعبر عنها مكرراً فجاءت كقول

الراوي العامي : ومشينا : دي دي دي حتى وصلنا الى البيت وهناك : دق دق دق وفتح الباب الخ . ان كثيرين من الروائيين يستعملون ألفاظاً كهذه ولكن هذا الاكثار غير مستحسن .

قد نكون نظرنا الى رواية الاستاذ عواد القيمة بالاكبار والاعجاب لو كانت لمؤلف عالمي فلا نتناولها بما زعمنا ، فتوفيق إن لم يصب في كل شيء، وهذ المحال، فقد أصاب في أشياء كثيرة . ولكن توسيع البيكار ، حتى في البيوت ، مضر ، فيعجز المرء عن تأثيثها وربما عن تكنيسها . فهو لو حصر روايته في مدى اضيق وعمل على تنقية اجوائها من كل ميكروب لجاءت اوفر عافية وصحة . انها في كل حال خطوة واسعة في طريق الفن ، وقد خلقت اجواء غير اجوائنـــا المألوفة وعللتنا بسمو القصة عندنا .

بقي ان نقول كلمة في «نهايات» رواية توفيق وقصصه ، فهي بارعة حقاً. انها أشبه بقطمة القلم او انطباق الفخ ، كما قال سنت بف. فنهاية الرغيف في منتهى الروعة الفنية . فقول زينة وهي تشد يدها على الذخيرة : «لا شيء» رائع جداً، بل تحته معنى لا توضحه الصفحات العديدة .

أما ابتداءاته فدون نهاياته روعة . ان أكثر اقاصيصه في الصبي الأعرج، وقميص الصوف مبدوءة بـ «كان» حتى تكاد تحسب كل القصص واحدة لولا العناوين .

ليته ينتبه الى هذا ففيه ما فيه من الدوافع وخصوصاً الأقصوصة ، فان الزخم يجب أن يرافق أولى خطواتها. أما في الرغيف فقد دخل من الشباك لا من الباب كالعادة.

وبعد ففي الرغيف نقيضان : أولها خير من آخرها فنياً ، وآخرها خير من اولها بيانياً ، وفي عمومها ، اذا درست كل مشهد وكل شخص على حدة، فزت بالفن الجميل، وأعجبت بهذا الكاتب الذي يحذق التصوير ويجعل كل همه في تعزيز الخطوط المميزة . اما العلاقات بين مخلوقاته ودنياهم ففاترة لا ترتاح اليها ارتياحك الى كل منهم على حدة .

وقصارى القول ان رغيفاً واحداً لا يشبع أمة . فليخرج توفيق من فرنه الذهبي ما استطاع من أرغفة ، ولا ينس ابداً ذلك الكعك الذي قامت عليـه شهرته . بارك الله في عمره وزاد نشاطه الأدبي . عاشت الشباب .

قصص تقي الدين العشر

١

تعبت، والله، من عرض عقلي على الناس، واريد أن استريح فلا أقدر. كلما بردت همتي ينكزني شيء لا أدري ما هو، وهكذا لا أقف ولا الطريق تنتهي. ان لذّات الفتى عندي غير التي لطرفة، واشهاهن الى قلبي مذاكرة ابناء الضاد، ومذاكرة الرجال تلقيح لألبابها. كانت النصيحة بجمل أما الآن فنؤديها كالأمانة ولا طماعية لنا بشيء، ما نبتغي إلا وجه الفن الكريم، وتناسي ما يمر على رأسنا من هموم تهدّ الجبال.

أما أولئك الذين يتشفّون منا بكلام مثل وجوههم فلسنا نبالي بهم، انهم كالحبارى ليس لها شيء إلا سلاحها المعهود ... ففي جوفها خزانة لها فيها رجيع معدّ كما لهؤلاء في رسائلهم العنترية! قال جدنا الجاحظ: ربما رأى الحرباء انساناً فتوعّده ونفخ وتطاول له حتى ربما فزع منه من لم يعرفه وليس عنده خير ولا شر.

إذن فلتزرق الحبارى البلهاء، ولينفخ الحرباء حتى ينشق، فنحن في طريقنا ماضون وموعدنا الساعة. كان أحرى بهؤلاء أن يفاتشونا، او يتحفونا بنتفة من آيات صاحبهم هذاك، لنذوق الكوثر ونصلّي لربه وننحر.

لماذا يحمون لغير سبب؟ لا أدري.

وما ضرّهم لو جاؤوا الى كلمة سواء؟ لا أعلم.

ان تكوين الأدب كمشروع القرش، ومثلما يربو المال بجمع دينار الى دينار هكذا تتكون ثروتنا الادبية. فالنقد إذن واجب مقدس لأننا نربأ بخزانتنا الأدبية ان تحشى بالزيوف، ولكن من تحدث؟ انهم صم بكم عمي ان مدحت غيرهم حسبوك تسبهم، وكلما صدقتهم النصح تفتحت حناجرهم كالقبور وراحوا يغرّضونك.

خبرنا مار بطرس ــ والعهدة على التوراة ــ ان الله حلف لنبيه داود بقسم ، فهل يصدقنا هؤلاء ان حلفنا لهم يمين النابغة لرب القبة ؟

أيصدقون ان قلنا لهم ليس في الدنيا بشري يكون كلامه برمتــه كلمات مأثورة ، واننا ان مدحنا واحداً غير مسمىً فلا يعني اننا نذم من يمشون فينــا مشية الفحل ؟

وأخيراً ماذا يتوهم هؤلاء ؟ أخلقهم الله وكسر القالب ؟

اذا كان المسيحي يترجى قيامة الموتى في الدهر الآتي ، أفنكفر نحن ان ترجينا جيلاً جديداً يكون خيراً منا ومنهم ؟

وهب ان الله قطع النسل ، فما تكون العاقبة ؟ ! ألا نبكي كالنبي الكريم ونقول : « اننا عليك يا ابراهيم لمحزونون ؟ »

فنصيحتي لهؤلاء أن يضعوا ألسنتهم في موضع دافىء ويسكتوا ، فذاك خير وأبقى . ولو درى صاحب البريد بما يشحن الينا من مسك وعنبر ، لتقزز وصام شهراً بلا أجر .

خبرنا أحد النقاد ان الشاعر بودلير خاف على صيته الداوي من قصيدة سمعها لالرمه ، ولكنه كان ضالاً فما عوّق هذا ذاك . فمن مبلغ عنــا بعض الرؤوس العصفورية ، ان تاريخ الأدب ارحب صدراً من معاوية ؟

●

كان اول مقال كتبته في النقد سنة ١٩٣٤ (١٧ ك ١) درست فيه بعض قصص الاستاذ كرم ملحم كرم . وبعد صيام ثمانية أشهر شرعت أفقص كالجراد ، وارسل هذا النسل المبارك طياراً وزحافاً فقال نفر : أكثرت يا صاح ، من عيث وافساد ، وقالت فئــة : انه على سفر لا بد من زاد ... وقال فريق ... سلمت يده ، أتلف هشيماً ما فيه خير .

لست اؤرخ ولكنني اريد الوصول بك الى كتاب بعث به إلي الاستاذ خليل تقي الدين عند ظهور هذا النوء ، واليك منه ما يعنيك :

« فتقبل مني ايها الصديق الفاضل هذه التهنئة ، واذا كان لي ان أتمنى عليك

شيئاً فهو ان لا تحجم بعد ان اقدمت، وان تقول ما في نفسك وكل ما في نفسك لقوم يعقلون ، والسلام عليك من أخيك» .

١٢ آب سنة ١٩٣٤ . **خليل تقي الدين**

وفي غرة عام ١٩٣٧ اخرجت جريدة المكشوف كتاب عشر قصص للشيخ خليل فوجهه إلي « للغربلة » ولكنني لم أقل كلمتي فيه بل قعدت له ، وحدي ، قعدة امرىء القيس وصحبته بين المذيب وضارج ... اتأمل .

حقاً انهـــا موجة كطوفان امرىء القيس الشهير ، ستحوم بعده مكاكي الجواء ... وتظهر اتابيش العنصل ...

والآن ماذا يحتاج الفرس الاصيل، وحجته في رقبته ، كما يقولون ؟فالكتاب نفد كما نقرأ في كشف دار المكشوف ، ومتى نفقت البضاعة قـــام الدليل على جودتها ، فالنفاد حجة كدامغة جرير .

ولكن يضل ضلالاً كبيراً من يستنتج اننا رمينا سلاحنا . فالفرس ، وان كان البراق جده،لا يسلم من هنات ولو هيّنات، او شيات سعد ونحس على الاقل. واننا نكاشف الاستاذ تقي الدين بنيتنا . قد نوينا ان نكون نخّالين لا مغربلين، فالغرابيل للزؤان والشيلم ، أما الدقيق فما يأخذ منه الغربال لا حقاً ولا باطلاً . وليثق الاستاذ اننا سنقول له : « ما في نفسنا وكل ما في نفسنا » . فليس الغش من شأننا ، واننا متماسكون وفوق المتماسكين ، ولن نتهافت ابداً .

اما شعارنا مع هذا الرف الجديد ، الذي لا يطلب الحسنة بالدبوس كقرومنا العتاق ، فكما قال زياد : « لين في غير ضعف وشدة في غير عنف » .

للشجرة الشائخة الفأس ،ففي حدها رجوع الشيخ الى صباه،أما الفروخ فتقوّم برفق ولباقة لتعتدل،ولا يلين اذا قومته الحطب . والأواني الطريفة تساس بفطنة ونباهة وتوقّى حتى من مروحة سيلي بريدوم... وجهاز العرائس يصان في الخزائن ذوات المرايا ، اما صرر ام الحليس الشهربة فتقبر في صندوقها الدهري ...

أمسيت لا أميل الى الالفاظ الداوية كألعـــاب قيصر عامر ، فتلك أتركها

لكل مرقعان فرقاع ، ولن تسمع مني هذه الألفاظ المفلطحة مثل بسيكولوجيا وشقيقاتها ، وكل بنيات هذه العائلة الشريفة التي يحدثنا عنها كثير من الناس وربما لا يعرف اكثرهم عنها إلا ما عرفنا من عـاد وثمود ... لست اعتقد ان الاديب يتعلم هذا كالنحو والصرف ، وانا أجحد اكثر من ثلاث مرات اخضـاع الأديب للعلم ، ففي ايام المغفور لهم راسين وشكسبير وعمر والجاحظ والمتنبي لم تكن هذه المسميات ، وفي أدبهم منها شيء كثير . فالاديب الموهوب يعرفها ولا يدري انه عرفها . اما اذا كان غير مؤزر بطبيعة خصبة فهو لن يفلح ابداً ، ولو تعلم ذلك العمر كله .

واحدة فقط أظنها تكفيني شرك ايها القارىء العزيز ا بحياتك قل لي من علـّم الاستاذ الجليل عنـــترة بن شداد علم النفس ؟ أدركايم ام فرويد ؟ أعن شيوخ السربون أخذه أم عن جهابذة اكسفورد ؟ أما حلل لنا نفس بهيم كان يركبه ليخلب لب عبلة فلا تغدف دون القناع ؟ وهذاك النابغة الذبياني أما حلل لنا في تلك المسجدية التي حبا بها غسان ؟ نفس «عصائب طير تهتدي بعصائب» ؟ فمن علمه ذلك يا ترى ؟ واخيراً ماذا تقول بوصفه نفس المتجردة :

نظرت اليك بحاجة لم تقضها   نظر السقيم الى وجوه العوّد

تباركت ايها الفن ، وجل جلالك . فلندع هذه الفقاقيع التي يتمطقون بها ففي أدبنا منها كثير ، ولكنها ومضات . فالعرب لا يحبون هذا «الأدب المغـّط» الذي يصطنعه جمهرة كتاب اوروبا لانفسهم . فهم يمرون عجالى ، وادبهم كحياتهم تلك ، مختصر وجيز كملبسهم ومأكلهم ، انهم كالنحلة تأخذ كثيراً وتترك اكثر . شعارهم : اللبيب من الاشارة يفهم .

قال احد الكتـّاب الفرنسيين : يريد بعض الكتـّاب الثوريين ان يجعـــلوا الأدب خادماً لبعض القضايا ، ويحاولون جعله بوّاباً على بعض القلاع الحكومية مع ان مهنة الادب استقلال الروح .

فالأديب مستقل يستنير بالعلم وكل المعارف ، بيد انه لا يتمكز عليها . هو حر ان يبدي نفسه من خلال مرايا بلورية كالتي في قاعة فرسايل ، او من سجنجل

امرىء القيس ، او ماوّية طرفة ، او من خلال قرارة كالدرهم ، كما فعل سيدنا الحطيئة اذ حبانا بوصف وجهه البهي ...

قال فولتير : كل اصناف الادب جيدة إلا المملّ المضجر ، امـا تولستوي فعدّلها هكذا : كل الاصناف جيدة ما عدا التي لا تفهم ،او التي لا تؤدي الغرض.

اظهر لنا العرب انفسهم من خلال إطار القصيدة الضيق- ليتني اقول البرواز فهي تؤدي المعنى اكثر - وظل الشعر كبير أناس في بجاد مزّمل حتى أتى الدهر باعجوبته الجاحظ العظيم فمناه من مشاكل الحياة ما يعنينا نحن اليوم ، واحل النثر في مرتبة الشعر ، ثم سرت روحه في ظهور الكتب فخلف لنا نسلاً مباركاً كالاصفهاني والهمذاني والمعري والشدياق .

وما أغنانا عن رأي العلامة مسينيون الذي نفحنا به الشيـخ خليل تقي الدين لنعلم ان مظهر القصة ابتدأ عندنا في المقالات ،فنحن نحس وندرك ان بعض مقامات البديع قصص بالمعنى الفني اليوم ، لا مظهراً من مظاهرها كما قال ذاك الفاضل : فالمقامة المضيرية والاصفهانية والبغدادية والمكفوفية والموصلية والنهيدية والخمرية والبشرية يقصر عنها كثير من كتّاب اوروبا . صدقني ان قلت لك ان زعيم القصة غي دي موبسان لم يكتب مثل المضيرية . وان صح زعمي ، ولا ريب فيه ، كنا السابقين الى خلق القصة Nouvelle كما خلقنا الرواية .

عرفنا هذه الألوان الأدبية يوم كان غيرنا يغط في نوم ثقيل . ثم جاءت نوبتهم فنشأت القصة عندهم ، كما نشأت عندنا : حكايات ، فأساطير ، فقصص خرافية ، فروايات فروسية الخ . ثم هذه القصة التي في المقامات. لم نقف حتى كانت الدولة علينا فانحلت عرى الملك وعفا أدب الطلول ، ولم يبق فيها لسائل رد . وظلت آثار السلف ملهى للخلف حتى كانت القرون الاخـــيرة فسبقنا الذين تقدموا الطغرائي قبلنا ...

كتبنا شيئاً عن القصة سابقاً فليراجع ان كان فيه خير . أمـا الذي يعوزنا اليوم فهو القصص المتنوعة ،أما تاريخ القصة فالمتمشرقون انفسهم لا ينكرون ان في أساطير لافونتين عرقاً من كليلة ودمنة ، وان في مغامرات روبنصن كروزي

ملامح قوية من سندبادنا . فليست القصة في الادب بنت أمس ، ولكنها مطلقة طريدة فقر فضيعت وضيعنا اللبن ... والحمد لله على تلاقيها بأدبائنا في فجر هذا القرن ، وان قلنا جبران ابوها فما نقول إلا الحق .

وأنتج الأدباء قصصاً فكان بعضها دبلة على القلب ، وخرجت من تحت اقلام آخرين كالدينار المصروف بالقرش وانصاف القروش. وأصدرها جماعة كالصخرة الملساء ، او كذب لافونتين ... ومن غرائب عصرنا الادبي ان كلا يخطط الأدب دارات ومنازل على هواه ، ولو منّ الله عليه ببعض مـــا منّ على الحجاج لحمل الكتاب على الأدهم ... فهذا يؤثر شاعراً فيقدمه على كل من قال شعراً ، لأن جيد شعره كركيك ذاك ـ كما فعل العقاد مثلاً ـ وهذا يدافع عن نول لأنه يحوك على مثله وهلم جرّا . وكأني بهذا المرض يعدي وإلا فكيف سرى الينـا من القاهرة ، فقال خليل تقي الدين في محاضراته : كيف أفهم القصة ؟ « والحادثة في القصة الحديثة ليست إلا عرضاً ، أما الجوهر فهو ما يقصد اليه الكاتب من وصف وتصوير » .

ويقول ايضاً في مقدمة عشر قصص : « ولكنني اذا عدت الى نفسي رأيت الحقيقة تنكر هذه الحوادث والعقد والحلول لأنها أمور متكلفة يجيء بها الكاتب ليتلهّى بها السذج من القراء » .

فإن صح ما يقول الاستاذ تكون القصيدة والمقالة قصة لأنها تحتوي وصفاً وتصويراً ، ولماذا يرى خليل الحقيقة تنكر هذه الحوادث والعقد والحلول ؟ أليس في الدنيا حيوات متعددة ، منها المعقدة كذنب الحرذون ، ومنها الملساء الناعمة كذنب القط؟ انما الذي ينكر هو التكلف ، والابن ، وهو أعز الخلق ، يمقت ابوه محضره إن كان متكلفاً ... فإن شاء خليل هذا شايعته عليه ، بل كنت من غلاة شيعته ، وإلا فانني أكفـّر كما كفـّر علياً أصحابُه ، ولا تحكيم بيننا .

ان رواية ذات عقدة كالأنشوطة يبسط فيها كاتبها مـــا يبسطه الكتّاب المصورون ، ويحلل ويدرس ويصور كما يريد الاستاذ تقي الدين لهي أحب الى القارىء من كاتب يمطمط ويمعطعط ، ويعطينا درهم دبس على قنطار حطب .

في ذلك الزمان، زمان الحمير والبغال ، دعي حكيم لمداواة أب مريض، وفي ذلك الزمان السعيد كان الحكيم يتنازل عن الجيدي اجرته ولا يترك غداه او عشاه . فسأل الابن الحكيم : تريد دجاجة محشوة أم مقلية ؟ فجاوبه الحكيم ٠ المرحوم جدك كان يعمل الثنتين ...

فرأيي انا كذلك الحكيم الذكي، أي ان نعمل الثنتين ، وان نكون بين بين، فلا نسمي الصورة قصة ، ولا نلبس « القبع الاخفى » او نحول الناس سمكاً يفز من المقلى ويجيب : نعم نعم ، وينشد شعراً .

ليس في الادب الفرنسي كتاب يعلم الروائي كيف يعمل قصته ، وان كان هناك شيء فآراء مبثوثة هنا وهناك وخطرات لهذا وذاك، فكما لا يعلم الانسان كيف يصفّ الحديث كذلك لا يعلمونه كيف يكتب قصة يسوق فيها ابطاله ويخلق اشخاصه . وقد خبرت ان في الأدب الانكليزي شيئاً من هذا فلم استغرب ، فعند الانكليز قوانين وتقاليد لكل شيء .

وجملة القول انني لا أسلم ان القصة بلا قصة تكون قصة ـ عفواً يا سيدي السكاكي عن هذا التكزار ـ ولو اثبت ذلك خليل تقي الدين وأيده ألف جهبذ فرنجي وكان بعضهم لبعض ظهيراً . ولا يهمني ان كان الفن اليوم لا يتشدد في ذلك ، فأنا اعلم علم اليقين ان اللحم المسلوق طعام أمرأ من اللحم المقلي بالسمن الصريح والمتبّل بالبهار والفلفل ، ولكن هذا القياس البطني لا يثنيني عن رأيي بل يحملني على التعصب له ، فأنا لا استطيب الطعام بلا قليّة ...

لست ادري لماذا قال خليل هذا ، فالعقاد معذور ان آثر ابن الرومي ، لان جيده كارد إ ما عند شاعره كيوركيس ،.اما خليل فمحجوج لأن في كل قصة من قصصه قصة ، ـ عندنا يا سكاكي ـ ونحن لا نطلب اكثر . وكما قال بول بورجيه سيد الأدب المغط، بمناسبة كلامه عن بلزاك: «لا يقدر العالم من تجربة واحدة ان يقر ناموساً عاماً»، وكذلك نقول نحن لخليل : انه لا يستطيع، وهو لم يكتب إلا تسع قصص ، ان يضع قانوناً صارماً للقصة والقصصيين . فتحديد القصة عندي كالاسم الواقع بعد ولا سيما، حركه كما تشاء.ولا حرج عليك ان احسنت الاستعمال.

ولو كانت الحقيقة تنكر الحوادث والعقد والحلول لما امتنّ الله على عبده ورسوله بسورة يوسف دون غيرها إذ اوحى اليه : «نحن نقص عليك احسن القصص» .

دع الناس يقصوا ما شاؤوا شرط ان يقصوا ، فرب حاكٍ فتنك بقصته وهو لا يقص شيئاً، ورب آخر شوه سرده أطلى الأخبار، وأغرب الحوادث، فلا يفكهك حديثه فتكون حكايته كالدملة في ذلك الموضع ...

لا يعنيني كيف تكتب القصة ولا في أي موضوع كتبت، ولا يهمني أبضمير المتكلم أم المخاطب، لا يعنيني إلا الشخوص فإن كان فيها ما لا أنساه فهناك القصة الرائعة ولو خلت من العقد والحلول، كصاحب مضيرة الهمذاني، ولست أنسى قط ابن سوار قاضي الجاحظ ، ولا نعم ابن ابي ربيعة ، ولا فارياقية الشدياق ، ولا اعرابي الاصفهاني، حتى ولا ذاك الذي صرخ : يا حجاج ، الكلام الذي بيني وبينك اريد ان يبقى مكتوماً . كل هذه ليست قصصاً مقصوصة على هندازة اليوم ، ولكنها قصص كيفما دارت بها الحال . وثمة قصص ليس هناك اعقد منها تخلب لبك حتى تخال انك تواجه ابطالها ، إذ ينقلك كاتبها الى معترك ابطاله .

نحن الآن في صدد القصة الصغيرة التي انما خلقت لتماشي حياة هذا العصر المستعجلة ، فهي القهرمان الذي يموّن من لا وقت لهم ولا جلد ، وكما اظهر القدماء انفسهم بالقصيدة ففصلوها على قدهم ثم بالمقالة ، كذلك سيظهر اديب اليوم نفسه من خلال القصة ، والقصة رسالة مستعجلة يؤديها الاديب المتين الى قرائه ، فهي اليوم نقل القراء الذي لا يعوق مستعجلا ، كالسندويش للماشي لحاجته. والأدب على اختلاف اشكاله كالفواكه تختلف شكلا وطعماً وتتفق عنصراً . والفن وحده يحيي الأثر مهما كان نوعه ، وحيث لا فن لا حياة ولا بقاء . فرب مقال اخرجه اديب كامل ذوقه كان قصة بعينها ، وربّت قصة جاءت كالمقالة النيئة ، اشخاصها موتى ، وبروازها ابرش لا يبرر شيئاً منها ، ومشاهدها ممحوة كصورة ابن بلدنا ادونيس في الغينة .

قال خليل : «عشر قصص من صميم الحياة» . يا ويلي على الحياة وويلي منها ، أما كلُّ شيء من صميمها ، فكما يخلق الخلاق كل شيء هكذا يخلق الروائي

مخلوقاته المختلفة و كلها عجيبة اذا احسن تكوينها . ان حكاية خلقنا معروفة ، ثابتة لا يشك فيها عقل . أخذ الله ترابا ونفخ فيه فكنا نحن . ومنـــا اليوم ملكات الجمال ، وكواكب هوليوود ، ومنهم بنت شقيق سيدنا البابا كما قرأت ان لم تخن الذاكرة هذه المرة. فأي شيء أحط وأخس من التراب ، ومع ذلك استطاع ربنا القادر على كل شيء ان يخلق من الطين خالقاً آخر .

فبقدر ما في صدورنا من حرارة ايمان وما في رئتنـا من هواء سخن يجمد الطين وتشيع الحياة ... نحن لا نريد القصة كالتنور المسجور ، ولا نرضاها فرناً هامداً لا يصلح إلا للفاتو. فالقصة هي الخلق بعينه والكاتب خلاق عجيب يخلد ابطاله كالذين دوخوا الارض وقد يكونون امكن منهم . ان للكاتب في خلقه شؤوناً .

قال مالرمه : هذه مشاهد لا رؤى . فالقصة مشاهد رؤى ، وهي قبل كل شيء وبعد كل شيء حكي كما قلنـــا . فمن الناس من يحلو حديثه ومنهم من يفلقك . ففن القصة لا يعلم ولكنه يجود على الممارسة والاطلاع أما صاحبهـا فمخلوق كالشاعر . وما هؤلاء القصصيون الفرنج غير شعراء ، قالوا الشعر اولاً ثم انصرفوا عنه كما فعل المنفلوطي فخسر الاثنين .

ادرك العرب حتى الاعراب منهم : ان القصصي مخلوق كما نستدل من كلام الجاحظ قال : وتكلم يزيد بن أبان الرقاشي ، ثم تكلم الحسن ، واعرابيان حاضران فقال احدهما لصاحبه : كيف رأيت الرجلين ، قال : اما الاول فقاصّ مجيد ، وأما الآخر فعربي محكّك .

واذا قلبت الصفحة ١١٥ من البيان والتبيين سمعت الجاحظ يقول: وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام ... ويكون له طبيعة في الحداء او التعبير ، او في القراءة بالالحان ، وليس له طبيعة في الغناء ، وإن كانت هذه الانواع كلها ترجع الى تأليف اللحون... ويكون له طبيعة في قصبة الراعي ولا يكون له طبيعة في القصبتين المضمومتين ... ومثل هذا كثير جداً » .

أظنك أدركت القصد وهذا كاف . إن عصراً صار حريره وسمنه نباتيين لحري بالساهرين فيه الا يناموا لئلا يأتيهم السارق بغتة ... عليهم ان يبحثوا

ولا يملوا ، فالناقد كالاثري ينبش القناطير المقنطرة من التراب ليعثر على تمثال أكله الصدأ .

قال جيليان بندا : اريد ان يبحثوا كتاباتي كأنهم وجدوها في قنينة ملقاة في البحر . وكذلك نفعل ان شاء الله .

٢

وما عليّ ان خلقني الله مارون عبود ولم يخلقني انطونيوس البادواني المالك سعيداً في بيعة الله ؟ اما المعجزة التي حسدته عليها واشتهيت ان يتفضل الله علي باختها فاصير عديله، فهي ان هذا الطوباوي كان يظهر بساعة واحدة في مدينتين مختلفتين كبيروت وحلب ، مثلاً .

ان الله يعطي اللحم للأدرد ، فما احوجني انا الى هذه المعجزة لاكون بعاليه وعين كفاع في وقت معاً ، فاتناول الكتاب الذي اريـده من هنا ومن هناك . لذيذة هذه الحالة وألذ منها ان يخطفني ملاك الرب كما خطف فيلبوس بعد تعميده الخصي وزير ملكة الحبشة ، عند غزّة . فالملاك أسرع من طائرات اليوم، وظهره ناعم لين ... بطرفة عين نروح ونجيء والحبر لما ينشف ...

ولكن ما لنا وللتمني فليس لنا الخيرة من أمرنا، ما بيدنا ملكوت كل شيء.. فلينبر القلم لموضوعه كقنينة طرفة الشهيرة ... يدلني تاريخ الادب العالمي وخصوصاً تاريخ القصة على ان عقلية البشر هي هي . يتغير العرض اما الجوهر فلا يمس، وما نراه اليوم كاملاً ستأتي أجيال تهزأ به ، ولكننا نعمل ولا نبالي ، قد وجدنا وما يليق بنا ان نتوارى ولا نترك أثراً .

إن الذرية لهي جنس غريب عنا لا يعترف بجميلنا، ولا يهمه ان يرضينا، بل كثيراً ما يزعجنا . فكما فعلت ببيت أبي وجدي سيفعل اولادي ببيتي . يخططونه على هواهم ونماذجهم الحديثة ، وهذه سنة الكون .

ورأيت ايضاً ان الادباء ، منذ البدء الى اليوم، سلاسل مختلفة ، يتعارفون ولا يدرون . ورأيت أيضاً ان الجديد يحاول أن يعفّي على القديم ، وتلك غريزة دفنتها الطبيعة في تلافيف ادمغتنا لتدفعنا الى المثل الاعلى . والذي عندي أن كتّاب ذلك

الزمان غير ملومين لانهم فصلوا ثيابهم على هنداز‌ة عصرهم، بل هم حريّون بالعذر ان لم يستحقوا التعظيم كالذين غيروها بأحسن منها .

لا تتعجب اذا قلت لك ان تاريخ القصة هو تاريخ الآداب العالمية، واننا اليوم نسلك مسلك كتابها ، اما المفكرون فيتوقعون ، دائماً، لوناً جديداً . فمتى يخلق هذا ... وأين ؟ إن علم الساعة عند الله .

اننا ننتظر، أما الان فلنبدأ بقصص خليل العشر . فيهن واحدة وهي الأخيرة لمكسيم غوركي وأرى المؤلف حشرها في آخر كتابه كالمحصور بالا ّ ، لتقوم برهاناً على قلة اكترا‌ث قصصي العصر «للحوادث، والعقد، والحلول» . فإذا طرحنا هذه الواحدة بقي لخليل تسع ، منهن خمس مسرحهن الشوف ، وان سمينا البعض باسم الكل كما فعل مشايخ النحـــو قلنا : بعقلين . واليك اسماءهن : نداء الارض ، فارس الشامي، ذكرى الهوى الاول، طريق الوجيه، بعد العرس . وهناك ثلاث مسرحهن بيروت : في مهب الغرام، جحيم امرأة، سارة العانس . وواحدة فقط مسرحها خليل تقي الدين، وهي صاحبي الذي مات .

مدار هذه القصص — عدا طريق الوجيه — على ذلك القطب الذي لا يبريه الدهر ... فالحب هو العقدة الابدية الازلية التي لايحلها ملك الموت الذي وُكّـِل بنا.

في قصص خليل شعر كثير — لا أعني المنظوم — والشعر عنصر خطير في هذا النوع من القصص شرط ان لايطغى فيكون الفـــن من المغرقين ... وفي قصص خليل حياة ، والحياة عنصر اوليّ في كل قصة كما قال احد شعراء الفرنسيس :

« Là ou la vie est le plus la vie, sur les lèvres des hommes ».

(تكتمل ماهيّة الحياة بكل معانيها على شفاه الرجال)

فالحقيقة والخيال مجتمعان في هذه القصص . تقرأ وصفه لغروب بعقلين — بيت العقّال عند علماء السريانية والجنة المعلقة في نظري — فيتخيل لنا اننا نراه ونسمعه.

عند خليل كلمات غير هرمة ، وبين ألفاظه تناسق وتآلف، كانما الشيخ يزوجهن عن حب صحيح ليس كزواج ياسمين في « بعد العرس » ولا كفارس الشامي . اما الانشاء المصنّع فقليل في هذا الاثر، فعذارى خليل لا يتبرجن تبرج الجاهلية الاولى.

اساس هذه القصص وضعي، اما تفصيلاتها فتمثل شخوصاً حقيقية ، ولكنه قد يؤلف الشخصية من عدة اشخاص، واكثر الشخوص ظاهرناتي، كياسمين البريئة، وزوجها الهريء وسارة المقهورة. وبعضها يظهر بغتة ثم تختفي علاماته المميزة، وبعضها تظهر رويداً رويداً حتى تكتمل اشد كمال مثل فؤاد «في مهب الغرام» اما العنصر المسيطر على هذه الكائنات كلها فهو هزء خالقها بها. انه ساخر كالقدر.

عرفنا خليل باشخاصه في مقدمة كتابه بقوله: «وفي وسعي ان اضع على جبين كل منهم اسماً يعرفه الناس» فهو اذن شاهد عياني كما قال تين عن ماريه . وما هذا بعيب فعلينا ان نلاحظ بدقة عظيمة لنكتشف ما لم ير، كما قال فلوبير.

ورحت اقلب قصص خليل تقي الدين رأساً على عقب فرأيت التبدل في المطلع مرعياً في اكثرها، اما خطته فواحدة تقريباً. يدخل موضوعه، دائماً، من أوله، فكأنه يحفظ جيداً: وأتوا البيوت من أبوابها. بيد ان هذا التغيـــير هو الطعم الذي يتصيد به الكاتب قراءه . أما التنوع في نهاية قصصه — أعني الحوادث لا الخاتمات الفنية — فحسنة. لكل قصة نهاية تختلف عن اختها، وهذا شرط لاقبال القراء على الكاتب.

اشخاص تقي الدين مختلفون، وان لم يكونوا اربعين بالضبط كما قال موبسان لبورجه. انهم يروحون ويجيئون على قدر حظهم من القوة والنشاط. والذي لا يشك عاقل فيه فهو ان شخوصنا كأبنائنا منهم المتحرك الوَرِش، ومنهم الجامد الهادىء ومنهم البين بين.

نداء الارض

عنوانها اكبر منها ، بطلها سعيـد وهو شاب يتوحّش في البرية ، ولولا بنت عمه خيزبان عروسه العتيدة لا يدخل الضيعة . ونعم الأسم خيزبان ففيه لون محلي صارخ ، وهو خير ما ينتقى لقصة ابطالها جذعان .

تلسع سعيـد حية فيقتلها بمداسه وينجو من سمها بمصه ، ولا غرابة فيما فعل فهذا معروف عندنا، وسم الأفاعي لا يؤذي الفم والمعدة السليمين . قال الانجيل

المقدس : يشربون سماً ناقعاً ولا يؤذيهم . فلدغت بولس رسوله حية في مليطة فرماها بالنار ولم يصب بأذى فآمن البرابرة بسيده يسوع المسيح . الحمد لله كان سعيد سليماً كما سمّى العرب الملدوغ تفاؤلاً .

وشاءت خيزبان فهجر سعيد عرزاله واستقر في الضيعة ، ثم أتت ساعة الزواج فوصف لنا المؤلف عادة المحيط في الدعوة الى العرس وصفاً متحركاً . ثم دنت ساعة «قيم الجرن» فيحامل معروف سعيداً ، ولهؤلاء رواسم في مثل هذه المواقف كالطقوس والمناهج الحكومية لا يخرمون منها حرفاً .

وبعد اللتيا والتي يفوز معروف ويقصر سعيد فينكمد هذا بعد الكسرة ، فيعيش عيشة غير راضية الى حين ، ثم يطلق الضيعة ويعود سيرته الاولى .

ان تلخيص القصة تشويه لها . فالفنّ في التفاريق لا في الجملة . اما العيب الذي بدا لي من هذه القصة فهو أن تصوير بعض عاداتنا الاجتماعية يأتي متكلفاً كقوله : «ثم جاءته بابريق الفخار فبرد بمائه عطشه : ومسح فمه بطرف كمه» ثم قوله . «وهو زعيم شباب القرية» ، فهل حقوق كلمة «شيخ» محفوظة ؟ ثم هذا الذي يصفه خليل انه «ليس للتفكير كبير شأن في حياته بل هو مجموعة اعصاب تعمل بالفطرة وهو اقرب الى ان يكون آلة منه ان يكون رجلاً يعقل ويفكر» كيف يجيب بنت عمه : «لقد زلت بي القدم وانا منحدر عن صخرة عالية فتلقيت الارض بيسراي وأصبت بخدش بسيط .

فمثل هذا الفدم لا يقول أكثر من وقعت . وهي لائقة جداً به وبنا ناهيك ان قد وحُدَها لا تأتي في كلامهم فكيف بها مع اللام ! ولماذا نقوّله : يسراي ، والقرآن الكريم قال : عن يمين وشمال . وهذا هين عند قوله لمعروف : أنت له يامعروف (ص ١٩) .

ويقول المؤلف عن سعيد : «ثم بصق بيده اليمنى وفركها باليسرى» . انهم لا يبصقون ولكنهم ينفخون فيها انفخا يطرّي الراحة . ان الاستاذ تقي الدين وان يكن ابن بعقلين فهو لا يعرف حركات العوام بدقة ، لانه ليس منهم ، فهو لا يخالطهم ولا يعايشهم ، ولا اظنه يحضر عرس الذي يمسح فمه بكمه بعد الشرب . اما اذا

كان من المحسوبين عليه فيزوره بعد حين. فهو ابن محمود بك وبيته برأس الضيعة .

يريد خليل ان يتغلغل في القرية فتعوزه أشياء يدركها ان عمل بنصيحة فلوبير ، ولكنها وظائفنا تحــول دون اعمالنا الفنية . فلكي نبلغ من درس كل ما يمكن الحصول عليه يجب ان نستسلم اليه بكليتنا ، وان نتزوجه لا ان نخالّه ، ففي نداء الارض شيء كثير من المخا"لة ، اما الزواج المبارك المقرون بالرفاء والبنين « ففي مهب الغرام » وفي « بعد العرس » وفي ... كما سنرى .

وبعد فليس كل حوار نداء الأرض غير موفق ، فهناك كلمات تذوب رقة وتمثل الواقع ، وكلها فصاحة وان كانت من الكلام المبتذل ... ونصيحتي لخليل صاحب الانشاء الانيق ان يستشير القاموس طبيب الادباء الخاص ، فيسلم من بعض الاملاح التي تصلب الشرايين فلا يقول: التحديق في ابن عمها ، وعصا النوطرة. ولو خرجت العبارة الأخيرة من فم سعيد او احد ابطال الرواية لقلنا معذور ، ولكنها من كلام المؤلف والمؤلف بليغ والحمدلله . فلا يلائم انشاء خليل الناصع ان تقع فيه تمنطق ، ولا « او لم يرسل اليهم نعي من ماتوا من اهله » وفي نعى غنى عن يرسل اليهم .

اما تصوير المشاهد والأشخاص فجميل جداً وهذا مجال واسع لخليل وحده ، الآن ، لايزاحمه فيه قصصي . انه يمثل شعباً ، او قطعة من حياة شعب وعاداته التي يعرفها حق المعرفة ، وهذا "مهم" جداً في الادب يخلد من يكتبه ويحله محله في تاريخه .

ولو لم يعز خليل تقصير سعيد عن رفع الجرن لتركه البرية كان افضل ، فللقارىء مجال واسع ليفكر ويعلل ، فهو لم ينس تلك الحية الملعونة ... وان شاء خليل ان يعيده الى مراحه فلايصعب عليه ان يخلق سبباً كما خلق هذا البطل الباسل. ناهيك ان مناخ يعقلين وعرزال سعيد واحد فكيف تم هذا التفاعل الخطير ؟

واذا انتقلنا الى « في مهب الغرام » رأيناها تعـوم في بحر يعج بالفن كفرات الاخطل ، فخليل يصف فيها من يعرف ومن يرى . فهذا الفؤاد صورة صادقة لكثيرين وقد اراناه خليل على مهل فكان يظهر في القصة كما تظهر الصورة البالغة على الزجاجة تحت يد المصور في الغرفة السوداء . فخليل في هذه القصة روائي من

الطراز الاول .. هو لو يشبه ياقـــة فؤاد الضخمة بركبة البعير لا خفه لجاء التشبيه ابرع، ولكنه أراد ذلك الأمر لا يجهله الفنان ... فليكن . لا ألخص هذه القصة، ونصيحتي لمن يهمه الأدب والفن أن يقرأها، انها تجري كالنهر الهادىء، وفيها اطوار خسيسة قد تحاماها الشباب المغترّون . يذكرني تأليف مكتوب فؤاد بخطبة رئيس بلدية الفونس دوده في حكايات الاثنين . ويذكرني أيضاً اعتناء فؤاد بالورق بكلمة ماريه : وبحبر أحسن .

ويظلّ خليل يقلب هذه الشخصية الفذة في طيجنه حتى تنضج نضجاً صالحاً تشتهيه العين قبل القلب . ثم يجمعه بجرمين التي عُشقت وهي غير دارية، فيسائلها عن رسالته تلك فتجيبه: حسبتك تكتب مقالة لجريدة. وكذلك سمت مي كتاب جبران « النشيد الغنائي » كما ادركنا في رسائلها اليه .

اما انصراف الفتاة وغضبها «سرّاً» في قاعـــة سهرة فيها من كل فاكهـــة زوجان ... فلا أدري ماذا أقول فيه، ولكن تلك «السيدة المتصابية التي تعرف معنى الحياة أكثر من جرمين واترابها الجاهلات الغبيات» أنستني ذلك .

وهكذا عام فؤاد في ذلك الغبيط ... وسبحان مقسم الارزاق . وانعدمت السيدة المغبوطة في ذات ناسوت فؤاد انعداماً كلياً لا يشبه الا انعدام «البهائي» في ذات وحدانية ربه ...

وفق الله خليل تقي الدين الى أمثال هذه .

« اما ذكرى الهوى الاول » فهي أقرب الى الصورة منها الى القصة، ولكنها في ميزانهم قصة راجحة، فعند أشهر القصصيين مثلها وأقل حادثة منها . تذكرنا بتصوراتنا القديمة فهو يرى البحر من بعقلين كما كنا نراه من عين كفاع، ويتوهمه كما توهمناه، فقد كان يعيش في ذلك الزمـــان السعيد كما نعيش نحن اليوم ... في خيمة ... ولكنها من غار ... غار الحطب لا الاكاليل .

القطعة شعر منثور رائع تصف تأثيرات خليل الصبي بكل شيء : بالبحر، بالغاب، بالغروب، برنين الأجراس، بموسيقى الغابة، بالظلام، بالأنوار، بالرعاة، بالأغاني العامية، بكل ما يبشرنا بان صاحبنا سيكون شيئاً في عالم الوحي والالهام.

ثم يعشق المسكين ثوباً وقامة ومنديلاً، كما كنا نعشق كل ذات خمار ، او فستاناً منشوراً على السياج . ويتراءى له انه يحدثها فيقول لها كلاماً أعلى منه ومنها–طبعاً في ذلك العهد – فمن كان في ذلك العمر لا تأتيه هـذه الفصاحة الغراء ولا يعرف هذه الفلسفة الغرامية ، فهي بضاعة عتاق قارحين .

فقوله «اتكئي على صدري ودعيني انظر الى عينيك الساحرتين، ولاتتكلمي» مشهد لا يحسن وضعه الا عباقرة الفن ... ولا سيما انه يليه : « وانسي في هـذه الدقيقة العابقة بطيب الهوى كل ما في الوجود ما خلا حبنا . ودعي أناملك تعبث بشعري حتى اذا تعبت استراحت على شفتي» .

وهذه أيضاً حكمة سليمانية يعز نظيرها على غير نشيد الانشاد ... ولهذا اشك في ان خليل الامس يحسنها، ولكن نيابة خليل عن صاحبه الذي مات جائزة...

ولا حرج علينا ان وسعنا الدائرة، وكل ما كتبه خليل أصبح يعنينا . رأيت الاستاذ ذا ولع خاص بالعبث بالشعر ، فاعلاً ومفعولاً . لمحت هذه الخصلة بشعره اذ خاطب واحدة اسمها « مها » ودعاها لتأتيه قائلاً لها :

وألقي برأسك فوق ضلوعي تداعب شعر حبيبي يدي

اما ذات المنديل فتأتي على عادتها الى العين عند الغروب فتعاود خليل النوبة فيحتر ، ثم يبرد، ويوحوح، وينام ملقياً التبعة على أيلول، وأيلول طرفه بالشتاء مبلول ...

لقد كانت هذه المرأة كذلك العصفور الغريب الذي رآه ماريـــه في « Arène de Nimes » (الملعب الروماني المستدير في مدينة نيم الفرنسية) وكلا الـكاتبين لم يظفر بغير الخيبة : قريب بعيد ...

أرى ماء وبي عطش شديد ولكن لا سبيل الى الورود

وسواء أكانت ذكرى الهوى الاول صورة او قصة فهي خـير ما يكتب في هذا الغرض . ولو وقف خليل عند «اكبر ظني انها دمعة» لـكانت الخاتمة اروع وابرع .

٣

فارس الشامي

ملاك القصة شيئان : المحيط ، والعالم الذي يعيش فيه . اما المحيط فلا يخلقه المؤلف خلقاً، بل يصفه ويصوره بالوانه وأشكاله ومميزاته . لايعني قولنا هذا ان يصف كلّ ما هب ودب، فالفنان ينتقي ويكتب" الاقذار في الساقية...ومتى تم له هذا ظهرت القصة كأنها حقيقة . اما 'الاشخاص فالمؤلف يخلقها . وكذلك اشخاص خليل وان قال : « وفي وسعي أن أضع على جبين كل واحد منهم اسماً يعرفه الناس » . ان النواة حقيقية كما قال ، أما هذه الجذوع المفتولة والفروع المتطاولة فمن عمل الأرض التي اقتبلت النواة فانبثقت شجرة أصلها ثابت وفرعها ...

ففارس الشامي وان يك شخصاً معروفاً ، كغيره من أبطال خليل، فبوتقة الفن صهرته وأخرجت لنا منه شخصاً قلما خلت منه ضيعة لبنانية . وهب أنه شخص خيالي فالفنان قادر على جعل شخصه تاريخياً ، وقد صار .

جميل دخول ساعي البريد الى بعقلين في موكبه الساذج الذي يشبه اثنين الراهب ... فهذه الصورة لاتمحي من مخيلة اللبنانيين بعد ما أكلوا مما عز وهان. كان اللبناني إذا مست كرامته تمرد وأبى وتمثل بقول أبيه وجده : ما أحد يموت من الجوع، حتى كانت الحرب العظمى فألبسهم الله لباس الجوع والخوف، وصار الموت أرخص من الفجل . فكم دفنا بأيدينا من شبان لم يزودهم اباؤهم بدمعة لأنهم شغلوا بأنفسهم . وفي فارس الشامي يصف المؤلف حالنا بعد تلك الزوبعة فيريك بأيّ أبهة كان يدخل «البوسطجي» الضيعة . لقد صور المشهد كله ولم ينس الولد الراكب على بغلة ساعي البريد« الغبراء » . وما انتهى شريط الموكب حتى عرض أمامنا معلم الأولاد يقرأ ذلك المكتوب البليغ الذي عقبته فرحة ام فارس بالخمسين انكليزية وجيئة ابنها . ثم يظهر المستر فارس الشامي على الميناء بين

المسلمين عليه بهيئة تميزه منهم وترينا مـــا علق بأذياله من عادات لم يهضمها حتى الهضم فاتخمته ، وأصبح كالغراب يمشي مشيــة الحجل ... ولا يبلغ البيت حتى تفاجئه الوالدة بحديث أدما مرعي التي اصطفتها له عروساً ،فاستغرب فارس الأمر جداً كما لا نستغرب نحن هذا العنف اللبق الذي صدم به أمه ، فالرجل قد تأمرك وعاشر القوم أكثر من أربعين يوماً ... ولكنه تروّى بعــــد أيام ولان ،وها كه مرتمياً على يدي امه معلناً نزوله عند ارادتها «فتبتسم وتهز رأسها علامة الشك فيما يقول» . ان في هذا البيان الصامت لاكثر من السحر واني اهنىء به الاستاذ .

ويتزوج الابن وتموت الأم ، بعد أيام ، وما هذا بغريب الوقوع ، ثم يهاجر فارس وتصير زوجته أرملة لم يمت بعلها . وما أكثر هؤلاء الارامل عندنا ، وما اصبرهن على أحكام الله ...

لم تعجب بعضهم شخصيات هــــذه القصة ولكن ليس في اليد حيلة ، فكم في الحياة من مخلوقات لاتعجبنا ، ولكنها موجودة وما لنا حيلة في اراحة الدنيا منها. اما انا فما على ضرسي مر ، كل الاشخاص تعجبني ، وقد ارثي للقبح فأهواه كما قال ابن المعتز . ما لي على المؤلف شرط غير تقديس الفن . وهذا ما يعمله خليل .

قصة فارس الشامي طبيعيــة ومقدمتها الطويلة غير غريبة عنها ، ومن الطير الهدهد والطاووس والغرانق ... اما هذا الدبّوس الذي يشكه فارس في ياقته فما اظنه يمثل حــذاء ، بل نعلة الفرس التي تتشرف اليوم بيوتات كريمة في بلادنا برفعها فوق أعتابها لتحل عليها البركة ... ومع كل هذا فلست أستغرب فعجائب اميركا اكثر من عجائب القديسة تريز .

ولو قال خليل حين تحــدث عن موت الأم : « وانطفأت بين يدي ابنها كما تنطفىء الشمعة » ووقف ولم يزد « وقــد نفد منه الزيت » لاسترحنا من مشكلة خطيرة وهي الخلاف على الزيت في دولة الأدب ...

أما الحوار فيتعقد أحياناً مع أن لغتنا العامية طيعة لينة لا تحتاج الا الى عناء قليل لتصير فصيحة ،فبدلاً من قول ام فارس: «قم بنا ياولدي فقد اجتمع الناس وعليك أن تخرج الى اصحابك فتسليهم» (ص٦٠) تقول: قم ياولدي ،بل قم يا ابني

سل" اصحابك – لان ياولدي تستعمل غالباً للتحسر ! – ثم لا ادري لماذا يقول الاستاذ حلوينة وعنده حلوان، ولماذا يضع المصطبة والغيّاب بين هلالين وكلتاهما فصيحتان . اما اذا كان قد فعل لفتاً للنظر فهو حر . وكلمة الجيب مذكرة فلتبق كذلك، وان قال بعض المتنطسين ما هذا معناه في كلامهم ، قلنا له : وما علينا ان حملنا الكلمة معنى تطيقه ونحن في حاجة اليه ؟

وأخيراً لو صار امر هذه القصة إليّ لختنتها وقطعت قلفتها هذه : «امرأة كانت كل آثامها ان القـــدر اختارها ليلهو بها ، والويل من القدر المكتوب» . انا لا اطالب الاستاذ باداء رأيه، ان القارىء اللبيب أدرك هذا، ونحن لا نكتب لغير الالباء . ليست القصـة اطروحة لتكون ميداناً لآراء مؤلفها ونظراته كما أراد احدهم . ومن شاء ذلك فما عليه الا ان يكتب رواية فتلك ارحب صدراً ، أما هنا فعلى القارىء أن يستنتج وما علينا نحن أن نعبر له .

سارة العانس

كتب خليل تقي الدين قصة بطلتها «سارة العانس» المقهورة فطلع علينا العقّاد من مصر السعيدة بـ« سارة » اخرى ولكنها فالتة خالعة النير فهل من حرج عليّ ان تذكرت بهذه المناسبة قصة أول « سارة » وسردتها لقارئي خطفاً ؟

لعل قصة سارة زوجة سيدنا ابراهيم الخليل أبي الآباء اقدم قصة عالمية . والذي يظهر لي انها كانت طيبة كزوجة الفرزدق التي وصفها لابن ليلى . وابن عظمة دارم من عظمة بيت أبينا ابراهيم ، فالله جل جلاله تعشى عنـده واستراح تحت الشجرة وغسل رجليه . وخاطبه بعد حين في سدوم ، وكان بينهما اشياء كثيرة لا علاقة لها بموضوعي .

ان سارتي هذه كانت «حسنة جداً» كما تقول التوراة ، ولما هاجر ابراهيم الى مصر اصطحبها واتفقا على ان يقول وتقول «انها اخته فيكون له خير كثير بسببها وتحيا نفسه من أجلها» (ت، ف١٢ ع١٣) فاستحلاها فرعون ، جد طه حسين ، فأخذها وعاش سيدنا ابراهيم مطمئناً حتى اعيدت اليه . ولا تظن ان اعادتها كانت

هينة، فالله الذي وعد خليله ابراهيم مواعيد شتى قامت قيامته وضرب فرعون لاجلها ضربات كثيرة فانتبه ودعا ابراهيم وقال له: «لماذا لم تخبرني انها امرأتك، لماذا قلت هي اختي ؟ خذها واذهب» (ت، ف١٢ ع١٨و١٩) وهكذا صرفها فرعون من الخدمة بلا تعويض ... ولا تقاعد .

وعاد ابراهيم الى فلسطين ثم انتقل بعدحادثة انتقام الله من سدوم، الى ارض الجنوب، وهناك أيضاً قال عن سارة انها اخته فأخذها ابيمالك ملك جرار، وتدخل الله في القضية حالاً، فأعاد ابيمالك سارة الى زوجها، واعطاه معها — دوطة — غنماً وبقراً وعبيداً واماء .

اما سارة الاستاذ تقي الدين، يا حزني عليها، فغير نافقة كسارة ابراهيم . مسكينة هذه البنت، انها لا تحتمل ولا تطاق، حملها خالقها — أي الاستاذ — وجهاً متكرشاً كالجراب العتيق، فضاقت به وها هي منفردة في أحد بيوت المروج، تحرّق الناب على الناب وتصرف في سريرها كناقة النابغة .

لخليل تقي الدين عناية خاصة بمدخل قصته، ففي مطلع كل واحدة منها انشاء كالعسل المصفى الذي وصف به الشعر الزهيري . وصف بيت سارة وصفاً جميلاً طويلاً مع أنه لم يدخله أحد من الناس غيرها، واراك سارة المبتلاة بوجه جاحظي غارقة على شرفته في أحلام اليقظة ... حتى اذا أقبل الليل المتمطي بصلبه تذوب ذوباناً وتموت من الكمد ولا يعلم بها أحد ... يهيئها المؤلف كما هيأ « فؤاد مهب الغرام » لفاجعة غريبة الشكل، والامور بمقدماتها .

وبقيت الشقية تلزم بيتها حتى فرج الله عليها واتصلت بعائلة مصرية، غير اتصال سارتي بفرعون، ثم تصير معلمة لبنت تلك العائلة، ومرغريت جميلة مخطوبة تنتظر صاحبها ... واتى أميل فتعرف بسارة وكان يحدثها أحياناً فقام في نفسها ان كل نظرة من نظراته دعوة الى السرير ... واتت ساعة زفاف مرغريت الى اميل فسبقتها سارة الى الكنيسة واحتلت كرسي العروس احتلالاً انكليزياً، وهي تظنها اياها، وأخيراً جنت المسكينة كما جنت خوريّة توفيق عواد يوم أحد الشعانين.

كل هذا حسن ولا اغراب فيه، وما زلنا نرى مجانين الحب أكثر من الهم

على القلب . اشخاص القصة وحادثتها عادية وما أحياها الا فن خليل فجعل منها هذه القصة الرائعة . اجاد خليل الدرس والتحليل كل الاجادة، وقد رأى غيري ان التحليل ميدان الاستاذ اما انا فأراه يصلح لكل ميدان ، وسيعنى في قابل بالحور وغيره فنرى ابطاله عمالقة ، فحياة الأبطال في كلامهم، وهو الذي ينم عن كل شيء .

جحيم امرأة

اذكر انني قرأت منذ سنوات قصة بهذا الاسم ، وما زلت اتذكر موضوعها جيداً فهي لا تتفق وهذه بشيء غير العنوان. ان هذه القصة جحيم حقاً لاتنقصه الا شجرة الزقوم ، وقد كانت المرأة فيها كما تعودت ان تكون كل مرأة غير حصان، جحيماً لنفسها. فدارت عليها الدائرة. القصة عامرة، فيها حب شبق حتى الكلَب واقتتال حول حوض سائب لا يذود عنه أحد بسلاحه ... احسن الأستاذ المساق فلم تلتف فيها الساق بالساق ولكن السطر الأخير قد جاء علاوة عما يطلب الفن، اذ ليس على المؤلف ان يزكّيها، كما انه حمل نفسه فوق طاقتها حين كلفها شرح : خائنة زانية (ص٩٢) .

وهنا لا بد من ذكر بعض مآخذ لغوية طفيفة كقوله : حتى هوم من النعاس، فكلمة من النعاس فضول، وهوم وحدها تؤدي الغرض . ثم قوله: أشار اميل على الخادمة، والوجه تعديته بالى، فليس هناك ارشاد بل امر بالعمل. وشراب التوت المثلّج، والمسموع عنهم: المثلوج . ثم في الصلعة وحدها غنى عن القول صلعة رأسه، وقوله : ملأ حفنته، فالحفنة هي ما يؤخذ لا ما يملأ . وقوله : استروحت رائحة الفريسة، فرائحة زائدة . وأخيراً تهربت، فهي غير فصيحة .

سيقول بعضهم ما اثقلك واكثر تعنتك، اما نحن فنجيب : وهو كذلك . ثم نسأل هل فينا من يشير الى غبار على ثوب كلاس او طحانٍ ؟ ومن منّا لم يتفق له ان نفضه بظفره اذا رآه على ثوب نظيف أنيق ؟ وهذا شأننا مع خليل .

قال أناتول فرانس في ختام فصل عقده لنقد موبسان: «انني مغبوط لقولي ان موبسان يكتب بلغة افرنسية حقيقية ، ولا أعرف تقريظاً اجمل من هذا». ونحن

نقول لصاحبنا الذي افترضناه: أن خليل تقي الدين يكتب بلغة العرب، ولذلك نريد أن ننزهه عن هفوات قد يكون عندنا مثلها وأكبر منها .

طريق الوجيه

لماذا أحس أن هذه الرواية واقعية وانني اعرف بطلها؟ لا أدري. تمثل القصه صراع الزعماء مع الاوادم الطازج – الطازه – وهـذا كثير في لبنان بعد افتقار زعمائه واغتناء عوامّه والناس حيث المال مالوا .

ان حركات سعادة البيك ومن حوله من رجاله لعلى أعظم جانب من الفن، ولو كنت مخرجاً سينمائياً لاخترتها مشهداً. وقد لا يتذوقها مثلي كل قارىء، فماذا افعل لأحـل فيه خمس دقائق كما حل الروح القدس في التلاميذ؟ لا أراني اغالي اذا شبهتها بروائع القصص الاجنبية. اقول، ولا يوبخني ضميري، انني لم أقرأ احسن منها عندهم، فاذا قارناها بما يشبهها عند موبسان رأينا الاستاذ يجري معه في هذا الشوط كأنهما فرسا رهان. وان كنت لا تصدقني فعليك بقراءة قصة Décoré (حائز الوسام) ثم خبرني بعد هذا كيف تجد خليل تقي الدين .

اسمع تهكمه ببيكنا الجليل : « أيعقل أن يضطر البيك غـداً الى السير على قدميه من آخر الضيعة حتى بيته لان الفن يقضي بذلك، ولأن المهندس لا يستطيع مخالفة ما يقضي به الفن؟ ترى أين كان الفن عندما كان أسعد بك يركب حصانه الادهم في الأيام الصائفة تحت أشعة الشمس، ويقصد الى مركز المطران ويظل الساعات الطويلة يدافع عن حق «جبلين» في الطريق؟ ام قضي عليه أن يتعب ويشقى وقدر لرجل غر أحمق كميلان الياس أن ينعم بالطريق تأتيه صاغرة اليه اكراماً لعيني الفن؟ » .

ويجاهد الاستاذ في وصف البيك وهركلته حق الجهاد، ثم يطوفه على الابواب الدينية والمدنية حتى يقفه اخيراً امام الخريطة كالبهلول ويقول له المهندس: «أرني أين يجب ان اضع الطريق لتكون حضرتك راضياً» ! الخلاصة خاب سيدنا البيك والعوض بالله، ووفق خليل فأجهز على هذا البطل وختم قصته احسن ختام .

ان قصة طريــق الوجيه وجيهة في عالم الفن كما كان المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين .

بعد العرس

كأننا بخليل تقي الدين يفعل بنا كقوله تعالى : وما نريهم من آية الا هي اكبر من اختها . أو كما قال رئيس المتكئين في عرس قانا الجليل : انـــكم ابقيتم الخمر الجيدة للآخر. فقصة بعد العرس طرفة فنية تتراءى لنا شخوصها ناتئة كأنها تماثيل لا صور بيانية . كل ما فيها طبيعي ينكر عليّ ما انكرت من خليل في نـــداء الارض، فهو هنا خبير جـــداً بشؤون القرية ، وان كان ينظر دائماً « من فوق » الى أبطاله .

ثلاث نسوان يأتين مع الصبح الى عنبال ليخطبن بنتاً سمعن بحسنها، لعريس محطم فانٍ ولكن غني، والمال ستّار العيوب ، فتفلح سفارتهن بشروط وتكون ياسمين البريئة كبش المحرقة .

في القصة أشياء كثيرة من درس ، وحـوار، وتصوير ، ولون محلي، وكل ما يفرضه الفن على الأديب الموهوب ، ما ترك الاستاذ شيئاً حتى العصفور الذي فر عندما سمع وقع الخطى...ولم ينس الخروف المعلوف ولا بعض خرافاتنا كاختلاج العين اليمنى،والشؤون التقليدية التي يفعلها الشباب بالعريس،ثم عادات ليلة العرس البيضاء وصباحها الاحمر... واخيراً ختام هذه المأساة الذي تتفطر له الصخور.

كل ما في القصة جميل ، واني اسأل من يعنيهم الفـن أن يطالعوها فهذه قصة قلما يقعون على مثلها .

صاحبي الذي مات

قصة مسرحها خليل تقي الدين، كما قلنا وهي غريبة عن اخواتها، ولا يقاربها الا ذكرى الهوى الأول. ذكرتني قصة صاحب خليل الذي مات – أعاضنا الله ببقاء الحي مع المرأة التي راودته،يوم لم يكن يعرف قيمة الرزق – بحكاية لموبسان يأتي

فيها رجل الى مرأة ليسألها بعد عشرين سنة ماذا كانت تريد منه في احدى ساعات بعض النزهات فضحكت وعادت الى المطبخ ... ويختم خليل قصته هـذه بقوله لتلك المرأة وقد عتب عليها لانها سكتت اذ رأته غـير شيطان كجرير : « انا يامرأة رجل مادة وكفاح، أما الفتى الذي تعرفين فقد مات...ولقد ولد صاحبي معي ومات ، ثم بعث ثانية ويدي اليوم على قلبي وقلبه معاً نخشى عليه أن يموت فلا يبعث من جديد » .

قلت : لا تخف يا صديقي، عليك بخائيل نعيمة، ألم يقل في رثائه أمين مشرق: « ليس في الحياة انفصال على الاطلاق ، فأمين معي من بعـد أن جاءني نبأ موته مثلما كان معي من قبل ذلك النبإ » .

لاشك ان هذه العبارة كفكفت دموع شقيقته المفجوعة ، وعزت كل اصدقاء أمين . اما عرفوا انه لا يزال مع الاستاذ نعيمه مثلما كان ؟ . . . فثق انت اذن ان صاحبك سيظل يبعث من جديد، آمن ياأخي تغلب الموت.ثم ما لنا وللأستاذ نعيمه فهو من الطارئين عليكم ، وما غلب الموت احد غيركم انتم الدروز .

ان تذكاراتنا هي بقايانا الميتة ، فكما تتغذى الشجرة باوراقها التي تسقط منها هكذا نعيش نحن بها ، فتصويرها عذب والتحدث عنها شهي ... فصاحبي الذي مات لون أدبي ظريف يبشرنا ان كاتبنا المجيد سيحلق في الدرس والتحليل ـ بضاعة اليوم الرائجة ـ وسيكون بدراً كاملاً ان شاء الله «ففي الواحة والديك» تباشير نهار جميل، أبعد الله غروبه .

أما قصة السجين لغوركي فلا تعنيني ، وما ارتكب خليل كبيرة بحشرها في كتابه ، فقد رأينا ماريه يفعل ذلك قبله، واظنني أصبت الهدف حين زعمت انه اتى بها حجة وبرهاناً .

وبعد، فهل اسيء الى أحد ان قلت أن عند خليل تقي الدين قصصاً سيكتب لها العمر الطويل في لوح القـدر ؟ ان ابطاله عاديون قلما خرجوا على المثل الأعلى المعروف . ليس للحكاية عنـده المحل الاول، ككثيرين من قصصيي اليوم . فاين هو الفن اذن ؟ ان مواضيع كهـذه لا تشيع فيها الحياة الا اذا انتدب لها قلم

فنان ، فبيان خليل هو الذي يحبيها ويهون عليه اقتحام هـذه الثغور والفجاج ، فيلجها غير هياب كانما يدخل ندوة المجلس النيابي ...

ان الفن في نظري تعبير بليغ عن حبنا للحياة ، وعلى قـدر الحب والالهام يكون تقييدنا لأوابد المشاهد فتحيا الى الأبد .

وأخيراً ثق ياصاحبي الذي لم يمت اننا كنا عندظنك،فما حابيناك ولا داجيناك بل قلنا لك ما في نفسنا ، وكل ما في نفسنا . وانتقادنا بعض هفوات لا يحـــول دون اعجابنا فالى الامام يا شيخ : اننا نبشرك بغـــلام اسمـه يحيى . . . أنجز « العائد » . . .

الباب المرصود

لعمر فاخوري

١

لا ادري ، ولست ادري لماذا لاأدري، علة ابطائي في درس الكتب، فبعد عامين لاينقصان ولايزيدان وجدتني مسيراً لامخيراً للكتابة عن «الباب المرصود».

طالعته والصف المنتهي باباً باباً لم نخرم منه حرفاً ، فكان لهؤلاء الفتيان فيه متعة لم احسها عندهم من قبل . كثيراً مـــا كنت الجأ الى غطرسة الاستاذية في اثناء قراءة الكتب الاخرى، فاحض هذا واحث ذاك،اما في هذا المرج الخصيب ففي وسع الراعي ان ينام عن القطيع ولا يتولى رعيه أســـد ... كانت تخالط الاستفادة لـَذ ّة ترقص على قسمات الوجه وهـــذا ابعد مدى يبغيه الكاتب او القارىء من مطالعة كتاب .

اسلوب عمر فاخوري طريف قوي، وقلما تجتمع الطرافة والقوة . فالكتاب لـَذ ّة للقارئين، ولكنها لذة غير مرمية على قارعة الطريق. جمال غير وقح، ملثم ببرقع خفيف يزيد الفتنة نعرة. فعمر كموسى يغطّي وجهه حين يكلمه الرب...

لم يسم كتابه الباب المرصود عبثاً . يخيـــل اليك – ان كنت نحوياً – ان ذلك من باب تسمية الكل باسم البعض، كما سمى أشياخنا افعال المقاربة . ولكن لا، فعلى كل شباك ونافذة رصد . يحبس عمر في كل قمقم عفاريت ومردة تعجز عن احضارهم عرّافة عين دور ، مصعدة صموئيل لشاول . يطمر في الطريق الغاماً ، ويزرع القنابل ، ويمـــد الأسلاك، وهو يعدو عدو الشنفرى، فيحار فيه قراؤه ويجلسون فريقين في الغميصاء يسألون :

فان يك من جن لأبرح طارقـاً وان يك انساً ما كها الانس تفعل

هذه مصيبة بعض الادباء بالكتاب فكيف بالمتأدبين ومنهم الذي قـــال في المقتطف : « ما هذا كتاب نقد » . كأن كتاب النقد كبطل مكفوفية البديـع لا بد له من أجراس وجلاجـــل وشملة صوف ... اذا كنت من ذوي الالباب والراسخين في العلم ففي وسعك أن تدخل هــذا الباب الضيق ، وتعود من عند «الرصد» بالكنوز الثمينة» والا فابقَ في عرصات الدار وحسبك رؤية الداخلين والخارجين . ليست كل العيون تصدق في ادراك الألوان .

قلما تخلو كتابة أديب اصيل من « رَصد » كما لا تخلو قريـــة من أخباره العجيبة ، فان كنت ممن يخشون الارصاد ولاتطيق الحياة في دنيا السحر والعرافة فما عليك الا ان تبسملْ وتعوذ بالآلهة من شياطين الفن .

في باب عمر المرصود حكايات فيها الغريب وفيها الواقعي ، وفي قرارتها جميعاً لبّ يسيل له لعابك ، فكدّ ذهنك تصل ، او استعن بمن يقرئك بالمِدلّ ... والا فاعلم انك لست من قراء هذا الكتاب العبقري . فلنبدأ :

في «الشاعر وأبناؤه» حكاية الفتى عمر الفاخوري . ظن عمر الغلام انه سوف يجدد الشعر العربي يوم نظم أبياتاً معدودة من قصيدته الاولى. اعجب بها اعجاب الأم «بطرفتها» يوم المولد وبعده، ولكن الأيام نكـّرت تلك الملامح وبدلت السيماء، فراح عمر يردد سقياً لك يا عهد الصبا ورعيا ، لقد كنت تسكر بزبيبة .

بطل «الشاعر وأبناؤه» عمر في الظاهر، اما البطل الحقيقي فكل شاعر يشفق على العرج والمخلـّعين والخرس والطرش والعمي والبله من بنيه وبناته... فيبلو بهم دنيا الفن، ويصبح عالم الشعر مأوى عجـّز وعوه، أو مستشفى مجاذيب . وان لم يستخفك الطرب بهم مثله أحصاك في زمرة الحساد، اذ كيف تنتقده وهو يحسب ان لن يقدر عليه احد، وان شعره أُنزل في ليلة القدر ؟

هذا اول قسط من المبلغ المرقوم أدّاه عمر، مع الشكر، باسلوب تحت زئبره المخملي إبر تلذع كتيار كهربائي خفيف يدغدغ ويؤلم. وفي الكهرباء شفاء الشلل ...

وفي المقال الثاني وعنوانه «الباب المرصود» يخبرك عمر أنه شهد السيناء فوقع بين فتى عربي وعجوز فرنجية بكيا تأثراً. لم يزعم عمر انه كان كالجزيرة بين دجلة

والفرات حتى خشي الطوفان، ولكنه يشهد أن صاحبيه بكيا، وهمّ بأن يتمشيخ في زمانه ويتولى عقد قرانها فمنعته كراهية الدخول فيما لا يعنيه . وحسناً فعل

تظن وأنت تقرأ هذا المقال ان عمر يكتب فصلا لا قرابة بينه وبين السابق واللاحق، والحقيقة انه ابن عم لحّاً لهذه الأسرة الكريمة . فالمعالم التي ينصبها عمر في مفاوز مقالاته ترشدك فلا تضل «فهذا الفتى الباكي يمسح عينيه خائفاً من سخر الناس الذين سيعلمون أنه صدّق ووقع في حبائل الفن» ثم «وهكذا الفن ، سواء الموسيقى والشعر وغيرهما يخرج المرء من طوره الى طور ثان» (ص١٩ و٢٠) .

ورجل عمر خفيفة ينقلك من عند كاتب انكليزي الى آخر فرنسي، ثم يطير بك الى دنيا «النرفانا» لتتم كروية الأرض. ويسيّرك ولا يخيرك مع قوافل البشرية المتنقلة من ازل الآزال الى ابد الآباد، فتستريح على مصاطب الصوفيين حيث السعادة خلف الباب المرصود ... وهنا يتطاول عمر الى معرفة ما وراء هــــذا الحائط فيقول : ولكن من تراه يفك الرصد ؟ ويكون عمر في عداد الضائعين فبدلاً من ان يجد السعادة في أفيون بودلير يمني نفسه بالنعيم لانه يمسك الى صدره كتاباً... وكان لسان حاله يقول : الكل باطل وقبض الريح .

وفي كنوز « الفقــراء » يسرد عمر حكايات كثيراً ما علل بها اللبنانيون غنى فلان وفلان، ويخبرك بسخر المعري المؤلم كيف أن المرحومة جدة أبيه ــ السيدة صفية ــ لم تأخــــذ نصيبها من البقرة المذهبة، وان عمر كاد يكون غنياً في ظهر الغيب في النصف الأخير من القرن الثاني عشر للهجرة ، وان لم يكنه فلأن جدته المرحومة ما أرادت . وهناك قصص مواقد غير هذه ترافق نقل الشتاء والشاي الذي يشرب على ذكر الحبيب الربيع .

وهذه الاقاصيص التي تخلق على هامش الواقــع عوالم غنية بالاحلام والأماني ليست وقفاً على وحي الانبياء ووحي الشعراء بل لها ينبوع يفيض ولا يغيض هو الآداب العامية التي لا يتجلى فيها الروح القومي فحسب بل تترجم من جهة ثانية عن النفس الانسانية على اطلاقها، فهي كالبقرة المسرجة بالذهب تحمل كنوز الفقراء (ص ٣٠) .

ففي الباب المرصود، كما ترى، سلك ينظم فيه هذا العقد الفريد، وما عناوينه الا مسميات تـدل على اعيانها . لم يشر عمر الى الآداب العامية عبثاً ، انه يهيئك تهيئة دبلوماسية بقوة عارضة المدره البليغ لقبول ما يعرضه عليك. انت مقبل على باب حنين « شاعر الشعب » فاسمع ما يقول فيه ، أي في عمر الزعني :

« وهذه قصائدك بمبانيها ومعانيها وأغراضها لن تضيرها تلك اللهجة الوسط بين الفصحى والعامية ، بل انها في هذا الثوب المنوع الألوان البهيج الزي لاحسن استيفاء لشروط البلاغة في المعنى، والفصاحة في التركيب، من بدائع ادباء العصر الذين يحبون في منظومهم ومنثورهم على هامش الحياة . فقصاراهم اذن ان ينطرح أدبهم جثة على هامش الأدب الحق الذي لا يصدر ، سواء كان فصيحاً ام عامياً ، الا عن مورد واحد .

« أما الجثة فيبالغون في تنميقها وتزويقها وتأنيقها ولكنها« تواليت » الميت الذي لن يخدع طويلاً . لن يخدع في صفوفنا هـذه الفئة الفتية التي تطمع فيما هو خير من نسخ الأقدمين واعسر من تقليدهم ، وتطمح الى ما وراء صب الالفاظ في القوالب الجاهزة» (ص ٣٥ — ٣٦) .

وفي فصل ثانٍ وعنوانه «حنين والشعر القومي» يتمادى عمر في اطراء عمر. وفي الثالث وعنوانه «العمود الهادي» — والعمود الهادي، او الصوى بلغة البوادي، هو الذي يرشد أبناء السبيل الى الجهة التي يجب أن يمشوا فيها — ويرى عمر أن الاعمدة الهوادي كثيرة في مجتمعنا «فان مجتمعنا غابة من الاعمدة البكنسيفية الترتوفية . لايدعك بكنسيف واحـــد الا ليسلمك الى ترتوف آخر ، اما في أدبنا فغير موجودة البتة ، فان أدبنا مشغول بما لا أدري عن تمثيل نواحي الحياة وتصـوير اخلاق الأحياء . أدب لفظي لا أدب حي (ص ٤٤) .

«لا تجد في غير أغاني حنين العامية تمثيلاً صحيحاً لنواحي حياتنا حتى لو أن مؤرخاً بعد خمسين سنة حدثته نفسه باستشهاد أدبنا على زماننا، او بالتماس صورة لعصرنا في أدبنا لكان أكثر تعويـله على ديوان شاعر الشعب حنين . لولا حنين لكان هذا العصر أبكم ليس فيـــه من يشهد له او عليه ، هو اذاً شاعر العصر» (ص ٤٥) .

وفي الفصل الرابع وعنوانه «حنين والهجو الاجتماعي» يقول: «وليس الذنب ذنبه اذا كشفت له بصيرته عن عورات الاجتماع فمثلها لنا بصورة لطيفة بل «ملطفة». ومن قال أن الفن رداء يجب أن يطرح على سوأة نوح في غفلته ؟ » (ص ٤٦) .

«فلا بد لنا في كلتا الحالتين من أن نحمد الى حنين هـذه النزعة المباركة في أغانيه العامية . هو أولاً الشاعر الجيد فنّاً ، وهو أخيراً المصلح المحسن اخلاقياً واجتماعياً» (ص ٤٧) .

ويرفع عمر فاخوري حول رأيه هذا دعائم من الباطون المسلّح تسنده من الجهات الاربع وكأنه خائف عليه من غابات الاعمدة الهوادي فأرانا ان في صراحة حنين «الملطفة» كل الحق ، وأخيراً فذلك رأيه «هكذا تريدون أدباً صحيحاً فلندع الحياء الكاذب ، وتريدون اصلاحاً اخلاقيّاً فلندع الرياء الاجتماعي» (ص ٤٨) .

فلنعد الى هذه الأقوال كلها ، مبتدئين بكلمة بنى عليها الاستاذ رأيه في حنين ، وهي حجته القاطعة لجعل حنين شاعر العصر . الكلمة للفيلسوف رنان : «الأدب الحق في زمن ما هو الذي يصور ذلك الزمان ويعرب عنه» (ص ٣٥) .

اقول : اذا قصرنا الشاعرية والفن على تصوير العصر والاعراب عنه فحنين شاعر العصر بلا منازع كما سمـاه عمر ، ولكن السلف الصالح يفهمنا في علم البلاغة ان التشبيه مثلاً ، اذا كانت أداته مثل أو شبه لايعدّ تشبيهاً طبقاً «للمرسوم» الذي صدر في ذلك الزمان... فمما لا شك فيه ان أغاني حنين شعر رفيع ، وان اغاني حنين تشريح وبضع للدمامل والبثور الخبيثة المقيّحة في جسمنا الاجتماعي . وان أغاني حنين تدخل الآذان بلا استئذان ، وان اغاني حنين تضحك وتبكي في وقت معاً :

هرج ومرج ، وسوق فرنج   وتكسيات بتكرج كرج
غرقانين بـين النهرين   نهر ابراهيم ونهر الكلب

اشهد ان اغاني حنين احب الى قلبي ونفسي وعقلي من شعر فلان وفلان ... واني لاجاري الاستاذ عمر الى ابعـد مدى وهو «ان لحنين كرامات في حياته وما هو من الأولياء» ، وانه «ما كاد يصرخ – كما قال ذلـك البعض لعمر –

في اغنيته من قلب مجروح قائـــلا : « حاسب يافرنك » حتى وقف بمثل كن فيكون » (ص٤٠) .

كل ما كتبه عمر في تمجيد شاعرية حنين لا مبالغة فيه ، ولا غلو ولا ايغال ، فهو من ناحية «المطابقة لمقتضى الحال» شاعر فذ . ولكن هناك شيئاً غير مطابقة مقتضى الحال والواقع . هناك مادة يجب أن تظل أولى في عناصر الفن ، وهي اللغة . لا أقول الفصحى كما يريدها المتزمتون ، ففي كلامنا الفاظ وتعابير فصحى ولا تعد منها . فما ينقص الزعني غير هذا ليكون في أعلى عليين ...

ان شعر الزعني كيفما قلبته لخير من قصائد كثيرة تنعت بالعصماء، وهي منتهكة، وغراء وبوزها أسود ... لا قرابة بين أبياتها، ولا «قران» بين ألفاظها ، فكأنها بعر الكبش كما قال أبو الادب العربي في شبيهاتها ان شعر حنين لخير من هذا الشعر الخرّوبي الذي لافائدة فيه الا انه يليّن المعدة، ويغني عن حبوب الدكتور روس. ان قصائده هذه لأفضل من شعر أصحابنا الذي يطرحونه في غيابة الجب فلا يراوده ذئب عن نفسه، ولا تسومه قوافل الحياة لتشتريه لانه لا يجاريها: ادب ضفدعي قوته في حنكه ولا يعيش الا في المستنقعات .

وقبل ان نودع على أمل العود لاكمال سياحتنا في دنيا عمر الباقية فاننا نحتكم الى «الباب المرصود» فهو الخصم والحـــكم في قضية شاعر الشعب المحبوب ، وما احلى تلك الآية القائلة : من فمك ادينك .

قال عمر في فصل كنوز الفقراء (ص ٣٠) : « وان في الآداب العاميـــة او «الفلكلور»، كما يسميها الافرنج ، لطرائف شائقـــة ممتعة غزيرة المعاني ، سواء الاقاصيص والأمثال ام الأساطير والعقائد، توفر على العناية بها جمعاً وترتيباً وتأويلاً كثير من اختصاصيي الغرب، اعتقاد انها فنون غير الفنانين، وآداب غير المتأدبين، ودواوين غير الشعراء، لا يتجلى فيها الروح القومي فحسب بل تترجم من جهـة ثانية عن النفس الانسانية على اطلاقها » .

اذن يا صديقي عمر، فليكن شعر صاحبنا الزعني : فن غير الفنانين ، وادب غير المتأدبين، وديوان غير الشعراء — يزاد عليها الرسميون — وهـــذا لا يسخط

التقاليد العالمية ويرضي « العمرين » ان شاء الله .

يكبر في عيني عمر فاخوري كلما انفتح لي بابه المرصـود، فكأن الذين بنوا تدمر بالصفاح والعمد كانوا في عون الاستاذ يوم شيد هـــذا القصر المسحور . أسمعت بكؤوس ابي نواس التي في قرارتها كسرى وفي جنباتها المها ؟ انك لواجدها في هذه المأدبة الفنية التي أعدّها عمر للجياع والعطاش الى ملكوت الفن . اما عن الخمرة فلا تسل فهي كما قال ذلك : تؤخذ بالعين فتغفي اغفاءة حالمة .

ان قارىء الباب المرصود اللبيب – لا أعني لبيب المعري الذي ليس يفـتر بكون مصيره للفساد ، بل الذي يعشق الكون ويجن بجمال الحياة – كالسائح في لبنان تطل عليه المشاهد الغريبة كلما توغل فيه ، لايطوي قمة حتى ترتفع له ذروة ، ولا يعلق نظره بشماريخ الجبال فيخاف على طربوشه من التدحرج حتى تنفتح تحته اشداق الاودية فيخشى أن يذهب بجملته . وهكــذا يتقلب بين ذراعي الجمال والجلال ما استطاعت ركبتاه حمله . اما اذا كان عقـله من صنف الطنك المصفح فحيلتي فيه قليلة. ففي هذا السفر الصغير لذاذات . هو ينبوع حي يتدفق من فكر فياض فينعش ويحيي ، يوجه الادب المريض في طريق النقاهة ، يصف الداء والدواء ويرشد الى الاجواء الطيبة والماء والغذاء ويفتح الأبواب والنوافذ للهواء والنور ، ومن لا تعاوده الصحة والعافية على يد هـذا النطاسي فانفض يدك منه وبشّره بالموت . خير ما في هــــذا الطبيب لسانه فهو لا يبئسك اذا انذر ، ولا يطمعك بسواعد شمشون اذا بشرك بالسلامة . يترك شيئاً للقضاء والقدر ولابد عنده من اذا.

نحن الآن أمام باب « الاحلام » وهو ذو ثلاثـــة اقسام . اولها البحث فيه غزّاليّاً وديكارتياً وفرويدياً ، ثم الاستطراد في ختام الباب الى ان الشعراء هم اهل الحلم . ومنهم السيد شفيق معلوف الذي نشر منـذ أيام (سنة ١٩٢٦) قصيدة عنوانها الاحلام – مجموعة شعرية صغيرة .

شفيق المعلوف هو صاحب عبقر بعد عشر سنين من ذلك التاريخ ، وحديثنا مع شاعر عبقر ليس بسر . لا اعرض لهذا الفصل المثلث خوفاً من ان يحمى عليّ غضب أبيه . اني اتجاوز هــذا الفصل لئلا تعاودني ذكرى الماضي ، ويزلق القلم

زلقة اخرى فاغضب امام اللغويين عضو المجمع الملكي المصري ، وحجة المؤرخين صاحب دواني القطوف، والاسر الشرقية ، فلا يلحق نسبي بمجـــدي عبود الذي كان له عرش في الاندلس فخسرناه كما خسر صاحب الباب المرصود تلك الثروة الضخمة في منتصف القرن الثاني عشر للهجرة ... او بذلك العبّود الآخر التقي النقي الذي قال فيه الفيروزابادي انه اول الناس دخـولاً الجنة ، وانه نام سبع سنوات فقط، وهبّ لايرى الا انه نام ساعة من نهار ... او على الاقل بابن عبود وهو محدث ...

هذه نعمة مسرولة من نعم الحسب ليس بالهـين خسارتها ... ألست كغيري من الذين الحقهم الاستاذ عيسى المؤرخ المدقـــق بقريش وغسان، فاكثر المسلمين وبعض النصارى ، ومنهم صديقي الشاعـــر أمين نخله، اصبحوا بفضل المعارف قرشيين، وكل نصراني امسى منسوب الجدّين من غسّان . ان لعيسى عجائب في التاريخ لا تقصر عن معجزات بنيه في الشعر ! غفر الله لنا ولهم .

اما الان فلنستيقظ من الاحلام فقد أطل علينا موكب « المرأة المجلوّة » ، وللمرأة عندعمراليوم ما كان لها عندعمرالامس... «للمرأة المجلوة والمرآة الصدئة» عنوان عدة فصول يعرض فيها عمر للصوص الادب، اصحاب الغارات السردابية الذين يسرقون عن سابق تصـور وتصميم ، والذين لا يسرقون متعمدين « ولكن لا ذاتية لهم واضحة ،فشعرهم ونثرهم كالأمواج التي لا تفور حتى تغور زبداً وتذهب جفاء (٦٧) وشر هؤلاء جميعاً « حادث الجيل الأدبي الذي يقتل التقليد والصنعة والبيانات روح الصدق والبراعة والطبع فيه » (٦٨) . ويلخص عمر ما قرأ عن الادب الروسي بما نلخصه :تأثر بعض آداب الامم ببعض كما هي الحال في اوروبا، ولكن التأثر هناك كان حافزاً الى الخلق ولم يكن تقليداً محضاً كما هي الحال عندنا. تأثرت آداب اوروبا بأدبي اليونان والرومان ثم تأثرت روسيا باوروبا فكان أثر التقليد أبين في الادبين الفرنسي والانكليزي ،لان عراقتهما في المدنية التالدة ابعدتهما عن الفطرة الخالصة فكانوا خاضعين للعرف والتقاليد اكثر من خضوعهم للطبع ،فبانت في ادبهم تلك الكلفة التي تدعو اليها النظم الاجتماعية المتواضع عليها . اما الادب

الروسي فابتعد عن هذا فلم نر مسحة التقليد على ثمار قرائح كتّابه .

يريد عمر ان يكون الادب صورة كاملة للحياة ، كما كان الادب العربي الاول قبل أن يكافحه شرطي الأخلاق ، فلم يبق منه الا اثر ضئيل لم تكشطه تلك الأيدي الطاهرة العفيفة . وهو يرى ان اول ادبنا خير من آخره لان ذاك صادق وهذا كاذب . الجرأة مفقودة في ادب اليوم لانه تقليد ادب الامس ، وسير على «الطريق الموطأة الرود التي يتخبط فيها العميان من غير ادلة وعكاكيز» (٧٣) فافضل ما في أدبنا العربي نتاج طفولته فهو «كالهرم قاعدته ضخمة ،دق ودق حتى صار رأسه كالمسلة ، ويضؤل ويضؤل حتى يضمحل (٧٢) وسبب اصدار هذه البضاعة المتماثلة هو أن «المواضعات الاجتماعية والأخلاقية» تصد الادباء عن تصوير الحياة صورة صادقة . فأدبنا لا يصور حياتنا الا كما تصور المرآة الصدئة المرأة المجلوة . اظنك أدركت الآن سر العنوان . فأدبنا الحاضر — المرآة الصدئة — لا يصور المرأة الا مشوهة كالمرآة التي تمسخ الوجوه وتشوهها . فأدباء اليوم لا يخرجون الا صور القدماء المعلومة «قد كالغصن ، وجه كالبدر ، ردف كالكثيب» وهلم جراً . وقصارى الكلام ان المرأة كما هي غير موجودة في شعرنا لان الجمال والحب لم يوصفا وصفاً خليقاً بهما ،فما هناك الا عواري ينظمها الشعراء تحت كابوس الحلال والحرام ، ولذلك لم يجرؤ شاعر او كاتب على وضع قصة « دلالة الهوى » واذاعتها بين الناس .

ويخص عمر امرأ القيس بفصل ممتع فيترحم بقلب مقروح على قائد الشعراء الى النار ، ويرى فيه شاعراً صادقاً كانت حياته شعراً ، وشعره حياة ، ويزعم ان القدماء ظلموا الادب الجاهلي « فطمست المبالغة في الاشادة بمحاسن الدين الجديد على كثير من محاسن الوثنية ، اذ صور ذلك العهد البائد باشد الالوان سواداً ليطلع منها العهد المحدث باشرق وجه واصبحه » (ص ٧٩) .

أجل ، كذا كان نصيب الوثنية في كل دورة من دورات الزمان ، فالناس على الرائح ، فبعد اندحارها في اوروبا انحى الكثيرون على قفاها بالسياط وشوهوا محاسنها الفنية التي كانت اروع مواد الفن . . . ان لعمر شركاء في دم يوسف .

فهذا اناتول فرانس وغوتيه وغيرهما من كتّاب فرنسا قد قدسوا الوثنية في معتقدهم — الفن للفن — اما في غير الفن للفن فعمر مسلم ، والحمد لله، كما انا مسيحي بنعمة الله . انه لايرى في الوثنية خيراً او اقل خير مما يراه في الدين القويم، وحسبك ان تقرأ آراء شرقية في مسائل غربية لتعرف أيّ شيء هو عمر . ليس هذا عذراً انتحله له فهو يقول دفاعاً عن قوله بفضائل الجاهلية ومحاسن الوثنية : «لايذهب الفكر الى القيم الدينية والاخلاقية ، وليس هنا موضع معارضة ذلك القديم الماثل من الحجارة بهذا الجديـد الحي في القلوب ، فاني قصرت الكلام على القيم الادبية والفنية الصرف» (ص ٧٩) .

ما اجمل انتصار عمر للشعر الجاهلي في زمـــان يزمّ قراؤه الجهال بانوفهم اذ يقابلونه بشعر غوته وهيغو وبيرون وبودلير وغيرهم. انهم يقيسون البداوة البكر بالحضارة الارملة، فهل من يفهم هؤلاء ان الشاعر الجاهلي قد صور حياته؟ فليصوروا هم حياتهم مثله بلا كذب ولا نفاق فينتجوا أدباً يقرأ . اما يترك لهم كل صيف آلاف الاطلال ومئات الدارات ؟ فحتام يضيمون اللبن ؟

ويخشى عمر أن يكون قـد أدى بالمسافرين الى حيث لايريد أن ينتهي بهم فيعود الى شرح كلمـة «لا اخلاقية» في الادب فيقول «لست اعني ما كان منافياً للاخلاق المصطلح على انها فاضلة ، او ما كان داعياً الى نقيضها حاثاً عليه .كلا . فأنا اعني ما كان خلواً من الهموم الاخلاقية مجرداً من نية الوعظ وقصد العبرة ، واعني هذا ليس غير . قد تأتي العبرة الواعظـة عفواً وقد تكون أبلغ كذلك ، ولكنها اذا لم تأت فيا للقرد !! ليس هـــذا بضار الادب من جهـــة أنه ادب صرف» (ص ٨٣) .

ما اكبر مصيبتك يا عمر ! يريد ان يسوق ويغامر ويشق الطريق ، ولكنه يتذكر الاعمدة الهوادي المنتصبة كمردة ألف ليلة وليلة ... ويخشى أن يصطدم بها في منعطفات بجثـه فيزمّر ويدور بمهارة، ولكنه في كل حال يدور ... ليس موقفه أقل ارتباكاً من موقف سكست فيلسوف بورجه . يريد أن يدافـع عن «تلميذه» جرسلو فتعترضه عقبات لا يدري كيف يقطعها .

وينفذ عمر أخيراً في هذا المضيق بعدما دوّخه الطي والنشر فيقول: «كثيراً ما سمعت اخواناً لي يتساءلون منكرين: ما المغزى من هذا كله، وماذا يريد المؤلف؟ واين العظة والعبرة؟».

قلت ان هؤلاء الذين يستعيرون الأضراس ليطحنوا أكلهم سألوني كذلك حين قرأوا الباب المرصود فاجبتهم بكلمة عمر: في الفنون شيء غير القيم وغير الاحكام. واني لعالم ان احكام عمر صريحة ولكن امثال هؤلاء لا تهضم معدهم الضعيفة الا الاعشاب والالبان...

لا انكر على عمر أن جلّ ادبنا «مرآة صدئة» كالمرآة التي جليت لبشار بقضاء وقدر، ولو لم يسبق السيف العذل لما كان شيء من ذلك. اما هؤلاء فمن يجلوهم، لقد ذهبت ماويّتهم ولم تبق إلا زجاجة لا تنعكس عليها الاشباح.

وينقلنا عمر من دنيا الواقع في الفن وتصوير الحياة بشحمها ولحمها الى منزل آخر من نظامه الشمسي حتى يبلغ بنا برج الحمل أي دارة الوحي والالهام. هذا البرج الجديد هو فصل من كتاب الشيطان، في الالهام الشعري. لا تعجب اذا سمعت بكتاب الشيطان، فللشيطان مهمة لا بأس بها في الوجود، فالتوازن ضروري ليس في السياسة فقط بل في كل شيء. الخالق، عزّ وجل، خلق له خصماً لان الحياة بلا خصوم ناقصة مملة...

قال عمر: الشاعر ليس له شيطان كالرجل لا ظل له. ثم يحدثك عن الوجود وعدم الوجود، حتى يخيل اليك انه غير موجود. ثم يأسف بتلك الروح الساخرة المسيطرة على كتابه كله كيف صرنا لا نرى الجن والشياطين بعد ان كانوا على اتصال دائم بآبائنا واجدادنا... ويرينا بظرف يشبه الجد كيف كان لشعراء العرب شياطين تطرقهم حاملة اليهم بدائع الفن وطرائفه، فهم ليسوا مثل صديقنا السيد حليم دموس، مثلاً، الذي لم يطرقه الجن مرّة واحدة ولن يطرقوه، لا اذا اوقد ناراً لطعامه، ولا اذا اشعل مصباحاً لنظم قصائده، فان المسألة مسألة مزاج (٩٣).

وبمناسبة ذكرى أبي النجم القائل:

اني وكل شاعر من البشر شيطانه انثى وشيطاني ذكر

يستطرد ايضاً ويعـرج على الشاعر بشارة الخوري فيلكمه لكمة عابرة، ولكن بقفاز تمرين محشو قطناً «لا ننس من شعرائنا من يؤثر ان يكون شيطانه انثى، بشارة الخوري مثلاً» . ثم يقول: «ما اكثر الذين يسمون بالشعراء وهم في الحقيقة طواحين الفاظ. ألك أيها الشاعر شيطان ؟ اذن قل ثم قل، والا فانقلب طاحوناً على ضفاف العاصي» (٩٤) .

ويروي طائفة من أخبار شياطين شعراء العرب والمغنين وغيرهم ، وينتقل الى الغرب فيرى اولئك القوم كالعرب في هذا الوهم ويستخلص اخيراً : «ان كل فاعلية فنية او شعرية عظيمة — في الفنانين والشعراء العبقريين على الاخص — لها جذور تستشري فيما وراء الادراك، أي في المنطقة اللاوجدانية من النفس الانسانية، ومن هذا اللاوجداني مادة الابداع والاختراع» (١١٠) .

اذن الاستاذ عمر الفاخوري بشّر بنظرية اللاوعي منذ سنة ١٩٢٦ ولكنه لم يمنح العلامة المسجلة ... (اقرأ كلام بول بورجه ص ١٠٩) .

بارك الله في عمر وأهاب بشياطينه ليأتوا الى نجدته من كل فج عميق، وسترى ان لهذا الجني الف شيطان مريد، أن أنجز « حنا الميت » .

«الشاعر الشهيد»، «والشاعر السوق» فصلان يطري فيهما صاحبه عمر حمد. قال في هذا الصدد : كنت ادعوه «شاعري» ويدعوني «راويته» . ولكن عمر اصمعي اليوم لم يرو لنا بيتاً واحداً من شعر شاعره. حدثنا فقط أن هذا الشعر كان يثير في نفوس السامعين حماسة لاتوصف واعجاباً ليس له حد، ولو مدّ الله في عمر الشاعر لاصبح في فحول شعرائنا (١١٦) . اننا لنؤمن على السماع برأي عمر في شاعره ليكون أجرنا أعظم ، وتتم فينا كلمة السيد : طوبى لمن لا يراني ويؤمن ...

ولم يسلم العاملي من مداعبة الفاخوري فخصه بفصل عنوانه «ساعة مع العاملي» وفي ساعة فقط رأينا عمر ادهى من معاوية، ورأينا العاملي فاذا هو «رجل تعبت فيه الطبيعة كثيراً» حتى اخرجته « ولم ترتجله ارتجالاً كما يرتجل هو الشعر » .

ان صاحبنا العاملي كغيره من الشعراء المدرسيين يهجس بالأولية في الشعر

العربي. واذا كان هنالك شيخ كار وشيخ شباب وشيخ خضرجية فكيف نبخل على الشعراء بأمير ؟ العاملي في نظري انا شاعر مظلوم . فيه غفلة اذا جئته من صوب الحكومة والشعر، فبيته عورة ومدينته مفتوحة ، وكل ما ترغب فيه يجوز عليه ويصدقه . وقد يكون مشدوهاً عن نفسه كما قال اناتول فرانس ، ومن هنا أتته العبقرية الشعرية . ففي الرجل مزايا عديدة منها ذاكرته العجيبة وقريحته السيالة حتى يكاد يكون قفلة . وله شعر ، وان متفرقاً في قصائده الطويلة ، يضعه حيث يضع هو نفسه . وقد يكون أصح الشعراء المدرسيين المعاصرين لغة ، اذا استثنينا الشاعر امين بك ناصر الدين الذي يضاهي العباسيين ديباجة . فالعاملي يطبع على غرار العرب ، كما يريد أصحابنا الذين يرون خير الشعر ما كان كذلك.

أما الحديث عن الزهاوي تحت عنوان « الشعر والداما » فقل في طرافته ما شئت وليس من يؤاخذك ، فهو خير فصول الكتاب في النقد الخاص . بلغ فيه عمر القمة في التهكم . نرى النقـد في فصول الكتاب السابقة واللاحقة يكاد يكون عاماً او شبيهاً بالعام ، أما في هذا الفصل الرائع فالنقد خاص يتجلى فيه كل اسلوب عمر الطريف وسخريته التي يمشي فيها الماء تحتك ولا تحس... اطنب عمر ساخراً مكبراً اختراع الزهاوي لمئات من اشراك لعبة الداما . ثم استطرد الى رباعياته فقال : «واذا كان كثير الاختراع في الداما فهو قليل التوليد في الرباعيات. واذا كان للداما ان تخلد اسماً فهي التي ستخلد اسمه: صاحب المئة اختراع بعد الخمسمئة ، وسيقال في ترجمته في ذلك الموضع : كان ايضاً ينظم الشعر » .

تذكرني « في ذلك الموضع » كلمة احمد فارس الفارياق ، وهي في محلها مثلها وان اختلف الغرض ...واذا كان رسول الله (صلعم) نظر الى زهير بن ابي سلمى كما جاء في الباب المرصود وقال : اللهم اعذني من شيطانه ... فمندي ان يركض الزهاوي الى من على العرش استوى ويضرع الى ذي الجلال ، فلعل عنده سفيراً داهية يوفده الى عمر فتحل المشكلة ويمحى هذا الفصل من الباب المرصود ... فهو وحده أشد من عذاب القبر على هذا الشاعر المسكين . ان مقال عمر اجتاح كل دنيا الزهاوي ولم يترك بها شيئاً حتى الأطم المشيّد بالجندل. فمنجنيق

عمر يقذف بالكبيرة والصغيرة ، واشهد انني عدلت عن الكتابة في موضوع الزهاوي بعد ما قرأت هذا الفصل الخطير .

ثم يعرض بفصلين لقصيدة اقتبسها المرحوم الشاعر الياس فياض ولم يذكر اسم شاعرها الأصلي سيلي بريدوم . وهذه خطة كثير من شعرائنا . فالشعر بحر ، وما اكثر القرصان ...

لعمر في كتابه هذا خطتا دفاع : أحدهما سلبي والآخر ايجابي . في أحدهما دفع عمر شاعراً معدوداً – الزهاوي – فأقصاه الى أبعد حدود منطقة الشعر ، وحسبه هذه البطولة في زمن–١٩٢٤– عدّوا فيه الزهاوي شاعراً خطيراً وكانت تحتفي بعبقريته العواصم وتطبع بيروت رباعياته . وفي الثاني يكتشف– ومهمة الناقد الاصيل الاكتشاف – شاعراً جديداً هو يوسف غصوب في ديوانه القفص المهجور. يقدم عمر لهذا الديوان فيتحدث عن التجدد مبتدئاً بكلمة لريمي غورمون : « كل تبديل يطرأ على أدب أمة من الأمم فلا بد ان يكون ناشئاً عن علة خارجية او أجنبية » . ثم يستعرض النزاع القائم بين القديم والجديد لافظاً هذا الحكم النزيه : «واذا كان التبديل طارئاً على حياتنا في كل مظاهرها فأين نجعل أدبنا كي لا يناله تبديل ؟ هو هذا الطوفان « ولا عاصم اليوم » (١٦٣) .

وتعجبه الوحدة الكاملة عند يوسف غصوب المتأثر بالأدب الغربي ، «حتى يصح القول ان مجموع القفص المهجور قصيدة واحدة » ثم « ولهذا نقول ان لشعر يوسف غصوب دلالة انسانية بليغة عامة ، وهي أولى مزايا الشعر وسائر الفنون» (١٦١) ولكن تأثر غصوب بالآداب والثقافة الغربية « ليس بضائر أسلوبه في شيء فهو أسلوب عربي مبين ، لا سمة للعجمة عليه (١٦٦) فالقفص المهجور حادث أدبي ذو شأن : زهرة نضرة في هذه الايام الجديبة ، في بيداء حياتنا الأدبية . وزهرة واحدة – في عالم الشعر – تكفي لأن تملأ البادية أرجاً وطيباً ، وحسناً فاتناً ، وحياة بهيجة . ان في هذا الديوان الفريد لعزاء لنا عن كثير من رزايانا لا سيما تلك القصائد والدواوين التي نطعن بها في كل حين (١٦٧) .

وأخرج الشاعر يوسف غصوب «العوسجة الملتهبة» فضمها الى القفص المهجور

فكان منها ديوان طريف شعراً واخراجاً. فأعد له عارفو قدره مأدبة سنية أكلوا وشربوا فيها على شرف عبقريته وفنه، فكتب عمر فصلاً سماه «المأدبة» مجّد فيها الشاعر تمجيداً يستحقه جهاده : أليس من فضل الله علينا أن يأتينـــا بيوسف غصوب داعياً، كرة بعد كرة، الى احدى المآدب الملكية التي يأدبها الشعر لأبنائه ـ صفوة الخلق ـ . أنا أعني بعد القفص المهجور هذه العوسجة الملتهبة التي طلت علينا كعروس شقراء كما جلتها يد الماشطة، بل الطابعة (١٦٨) .

وما فرغ الاستاذ من كلمته للشاعر المختار حتى عاد فحلل نفسه هو فعثر فيها على ثالوث ـ طبعاً غير أقدس فالحقوق محفوظة ـ وهذه النفوس الثلاث فطست واحدة تلو الواحدة، وكان مدفنها جميعاً في شخصية صاحبها، فاذا هو كالام المتئم تحمل في أحشائها أجنـّة موتى واليك قوله : « ويلوح لي ان في نفس كل امرىء ثلاث جثث على الأقل : عنترة عبس، فسندباد الف ليلة وليلة، فمجنون ليلى، في ثلاثة أضرحة مكتوب على قبرياتها « هو الحي الباقي » دون تاريخ »(١٧٠) .

أمد الله في حياة عمر ليدرك نفسه الاخرى، نفس زهير بن ابي سلمى ... فكتابه هذا خير أثر في بابه، انه احدى أيادي «دار المكشوف البيضاء» على نهضتنا الفتاة، وهو خير بائنة لهذه العروس . فليت المدارس تجعله في منهـــاج دراسة الصفوف العليا فيكون للنشء خير دليل لهم في متيهة الأدب .

والخلاصة ان في هذا الكتاب مؤونة، وذخيرة وعتاداً . لغة ناصعة نقيــة حافلة برموز شتى، طوراً قرآنية وأحياناً شعرية . مادة طريفة مستقاة من ثقافة عميقة واسعة . تسيطر على كل ما في الكتاب، شخصية قادرة لها أسلوبها الممتع فتجرف القارىء جرفاً . يستعين عمر على اخراج مقالاته بخيال خصب، ويؤثر الفصل على الوصل حتى تكاد تنفصم العرى احياناً . مولع بتعابير معلومة يرددها كثيراً . ويا سوء حظ العصر ان لم يكن فيه عدة أخوة للباب المرصود .

هلم القلم والدواة يا عمر .

عمر فاخوري

عمر فاخوري أديب حسن السمت . في وجهه حيرة مقعدة ، وابتسامة مغلقة لا تدل على صاحبها أكثر من دلالة بعض الأعشاب على ينبوع مكبوت في حشا أمه . حديثه متقطع مفردات وجملا ، لا يكرر في حديثه ، ولا يكرر كر في ضحكه ، فأخونا في الأمرين مكره لا بطل . ليس بالكهاكه ولا بالجهم ، وهو على سلامة البشر من يده ولسانه ، عقدة يصعب فكها .

أقوى سلاحه ، وأدل ما فيه عليه ، تلك الابتسامة التي نوه بهـا عمر في « أديب في السوق » فقال : لكني ، لحسن الحظ ، ابتسمت ، فغاظته ابتسامتي الخفيفة كشيء ايجابي .

أفلا ترى مثلي كم في قوله « لحسن الحظ » من عرفان لقدر تلك الابتسامة الخرساء ؟

وقد ذرّ قرن هذه الابتسامة في الصبا فكلمت الناس في المهد ، إذ « أضاءت عتمة الصف ، فكسر الحساب عصا الجغرافيا على ظهر عمر » ، كما حدثنـا في « لا هوادة » .

ان كيد ابتسامته لعظيم ، فهي شكته ، أديباً ناقداً ، في « الباب المرصود» و «الفصول الأربعة » وهي عتاده ، كاتبَ نضـال في « أديب في السوق » و « الحقيقة اللبنانية » و « لا هوادة » . انها لفي كل مكان ، تتحدث بنعمة رب عمر على الأدب . وان آسف ، فما آسف إلا على الحوار الذي جرى بينه وبين منكر ونكير ... أترى فعلت ابتسامة عمر فعلها هناك فأضاءت تلك العتمة الضيقة ... عتمة القبر ؟

من الخير ان نفي هذه الابتسامة الشاحبة حقهـا من التصوير ، فقد كانت تشع في العينين والجفون والأنف والفم ، حتى تخالها تطل عليك من شرفات الحاجبين . انها موزعة في جميع قسمات الوجه ، ولكنها في كل مكان أبرز منها في مكانها ، أي الفم ، فقلما كان ينشق انشقاق القمر !

«الباب المرصود» و«الفصول الاربعة»أحلا" عمر مقاماً رفيعاً في الادب. بصيرة نقاده تنفذ الى الاعماق ، وعينان كأشعة رنتجن ، واسلوب ملك صاحبه ولا غبار على عروبته ، متأثر بلغة الكتاب العزيز والسلف الصالح ، وفي جعبته ، دائماً ، لقاح جديد ،فيغرز ابرته الدقيقة برفق في الشرايين المتصلبة . واسع وعميق في الفصول الأربعة ، يشبع الفن تمحيصاً ، ويجول مع «ألن» صاحب نظام الفنون الجميلة ، كما سمّاه ، جولات جد موفقة .

يمزج أدب العرب بأدب الغرب ، فيزاوج ويقارن بين الأدمغة المختلفة . يجسها جميعاً كأنه يقلب رؤوس بطيخ لينتقي منها الانضج والأذكى . فبينما تكون في حضرة المتنبي اذا بك تصدم بأبي نواس والجاحظ والجرجاني والبحتري الخ ، وهيجل وفرانس ورنان ودوستوفسكي وبلزاك وفلوبير وديكنز. وكذلك شأنه في كتبه الاخرى فينقلك من عند كبلنغ شاعر الانكليز ، الى مارك توين فكاهي الاميركان ، الى هبنّقة نابغة العرب في الحمق ، ولا ينسى غاليلو .

نعى عمر على الادباء ترفعهم عن «الواقع» فسماهم ادباء من حبر وورق ، لا لحم ودم . ثم هجر البرج العاجي الذي تعود الادباء ان يكنكنوا فيه مجترين .. ونزل الى الساحة عارضاً رمحه ، فأرانا كيف يسمن الأدب على الواقع . وهكذا اصبح عمر كاتب نضال ، ورجل عمل ، ولكنه ظل اديباً لم يتخلّ عن اسلوبه ولا عن خياله ، ولا عن الاخراج الفني لمقاله النضالي . فهو في النضال كرخّ الف ليلة وليلة ، ينهضك من أعماق الاودية ليحط بك على شماريخ الذرى . ان فحص القلب ضروري لقارىء عمر ، والا فمن يكفل سلامته اذا رافقه صُعُداً وقدماً ، وانقضاضاً ؟

يبدأ عمر مقاله النضالي فلا تدري الى اين يذهب بك حتى تصل . تخاله يحدثك عن الأدب المحض ، فاذا هو نضالي بكل ما بالنضال من شدة وقوة ، قوة يخلقها الاسلوب ، وشدة تولدها العاطفة الوثابة وفن تبدعه المخيلة ، فتخلق أشياء من لا شيء .

ان عمر في مقالاته النضالية كفحول شعرائنا الأقدمين ، كان اولئك يتغزلون

ويتخلصون الى الممدوح ، وعمر يبتدىء بغرائب عجائب ، تارة من عـــند ابن خلدون، وطوراً من عند ابن بطوطة . اسهم حادة تمده بها ثقافته الواسعة فيصوبها فكره الثاقب الى غرضه بزخم رائع ، فيهاجم الفاشستية او يمـــدح السوفيات والحلفاء . فاذا كان للشعراء المداحين تخلصاف غير حسنة ، فأشهد اني مـــا وجدت لعمر تخلصاً غير ساحر .

يعجبني مزجه النضال بالادب، ونفحة الروح الفنية في هذه المواضيـــع التي تلوكها الاقلام في كل ساعـة . انها لتخرج من معرض جمال هـــذا المزين اللبق بأحسن تواليت .. حـلي ، وغلائل فتانة تستر العورة ولا تخفي الجمـــال ، ولا تعفـّي على الفتنة .

لا يفارق عمود الأدب والفـن في أحرج ساعـــات النضال ، فهو السياسي الاديب ، والمدافع عن قضايا «الحمر» بقلب لو عمر بمثل هـــذا الإيمان لأمسى في الجنة، وهو في حلل خضر !! لا يقف عند الحوض ، ولا يروعه عبور الصراط .

قالو : ما دخلت السياسة شيئاً الا أفسدته . امـــا أنا فأقول : حاشا أدب عمر . قد وطدت كتبه ايماني بان الأديب الأصيل لا يتخلى عـن خاصياته حتى في قاع جهنم ، حيث تسيل النـــار أنهـاراً ، وتصطخب أمواجاً . أقرأ فصله «البرج العاجي» في أديب في السوق ، تعلم انك من الأدب في نقطة البيـــكار ، وان هناك درة ثمينة التقطها عمر من السوق . اقرأ كلمته عن لبنان في « الحقيقة اللبنانية » تعلم ان هناك مصوراً وشاعراً يحدثك عن هذا الميليمتر مـن خريطة المسكونة .

قال الرسام الفرنسي النابغة دومه : يجب ان نكون مـــن زماننا . فقال عمر : يجب ان نكون مـــن زماننا، وفي زماننا ، ولزماننا . ثم كان كما تشاء ، وظل أديباً كبيراً .

يتكلم عـــن رسالة الأديب فيقول : « كان للأنبيـــاء ، وحدهم ، رسالة . فاذا كل مـــن عليها له رسالة : الطبيب ، والمعـلم ، والصحافي ، والمحامي ، ويتبعهم الأديب ، حلة مبهرجة اسلار الفاقة . حبذا لو أن هؤلاء يقلون من

التبجح برسالتهم أقل كثيراً ، ويكثرون من آداء وظائفهم أكثر قليلا » .

فيتحدث عن لبناننا فيقول باسلوبه المعهود : « لقد أتى علينا زمن في لبنان وبين الطائفة والاخرى ، أو بين أبناء دين وابناء الدين الآخر كالحدود التي تفصل وطناً عن وطن . كدنا نحتاج الى جوازات سفر بين الطوائف والأديان » .

اجل يا اخي عمر ، وبكل اسف اقول لك : قلما نجد ، حتى اليوم ، من يؤشر على هذه الجوازات ، ولأقل نسمة ترفع الطائفية اذنيها ، ولأقل بادرة تقفل الحدود .. كما كنت ترى بعينيك .

ان اسلوب عمر النضالي يحمل أبداً سمة الأدب الرفيع . اسمع كلمة من فصل عنوانه : كل شيء يتغير .

« كل شيء يتغير » حتى النازية التي كان لها لبدة الاسد ، تغيرت . ها قد نبت لها في الصقيع الروسي صوف حمل للدفء ، وفي القيظ الافريقي ساقا نعامة للهرب .. اما الجيش الايطالي فقد لبس بادىء بدء جلد الحمار لعدم الفهم » .

وبعد ، ومالي والتعجب ، ان عبقرية الكاتب الكبير تقوده في جميع الآفاق والدرك . في مصنع يخرج منه كل ما يدخله مطبوعاً بطابع الفن ، من ذبان الجاحظ الى الانتخاب في لبنان عند عمر .

ليهنأ الاتحاد السوفياتي ، فله في اللسان الروسي كاتبه العظيم الحي ايليا اهرنبورغ ، وله في لسان العرب عمر فاخوري ، اديب العرب ، الذي مات . كلاهما نضالي اديب ، والقول ينفذ ما لا تنفذ الابر ، كما قال شاعر بني امية ، النضالي الاسبق .

عمر في يومه الأسود

لا أظنني امنح عمر فاخوري وساماً بعد الموت اذ اكتب عنه هذه الكلمة المغمومة . لقد تناولت عمر في ما مضى جملةً وتفاريقَ ، والعهد بآخر كلمة

غير بعيد . كنت فيها مصوّراً ومقارناً وباحثاً جهد الطاقة .

لست آسف على سنوات عجاف يعيشها عمر ويمشي فيه أدبه مشية السرطان في بدنه . لقـد أحسن القضاء صنعاً اذ جذب ثني الطوّل المرخى وأراح عمر من بقاء هو فيه . .

عليل في مكانـــين من الاسقام والدّين

كما قال الجاحظ عن نفسه في آخر العمر .

عدت عمر في أول مرة فخلتني امام مومياء تحدثني، فارتعت ثم تجلدت لئلا أريعه ، ولعله قد رأى ذلك في وجهي حتى قال لي : وجهك اصفر !!

فأجبته : الدرب طويـل ، والسلم عال ، وانا ابن ستين ، فاصبر عليّ قليلاً يعد جمالي الهارب !

فابتسم ابتسامة دميمة جداً وقال: تتهكم عليك اذا لم تجد واحداً غيرك ...

فقلت ما وجدت ترياقاً لسمّ الحياة اشفى من الهزء بها وبناسها ...

●

رأيت اليرقان قد خلع على عمر كل مـــا عنده من زعفران ، فسألته عما به فأجاب بعد سكوت لا أجـــد له نعتاً : قلة العافية ، وعناء الحمية . الغمرة انجلت ، ولكن ...

قلت : دعنا من لكن . السلامه غنيمة يا أخي .

فأطرق ولم يجب ، وأطرقت مثله ألوم نفسي . وطال السكوت فقلت له : متى تعود الى عشك ؟

فأجاب بهزّ شفتيه ، فعلمت ان لليرقان احلافاً تشد ازره في حـــرب عمر .

ثم مشى بيننا حديث متقطع ، موجع ، انصرفت على اثره بامل قصير الخطى .

وبلغني ان عمر عاد من عند امه، فهرعت لأهنئه بالسلامه فقالت لي الخادمة: معلمي في السبيتال .

فقلت : والست ؟

فأجابت : معه . فكملت طريقي الى المستشفى الامريكي فلم استطـــع

مقابلة عمر . وتلفنت مراراً اسأل عن صحته ، فكان الجواب برداً وسلاماً .

ثم فصل بيني وبينه الصيف ، فما ضيعت اللبن فيه . وعاد عمر الى بيته فجئته مستكشفاً ، فرأيته لا حيّا يرجى ولا ميتاً فيسلى . وتسقطت رأيه في نفسه فوجدته عريض الامل، كبير الرجاء . وقعدنا حيث اعتدنا ان نجلس فلم يشك عمر الداء بل شكا سوء الحال وقلة الوفاء .

رجونا ان يكون سفيراً احمر فإذا به يمسي شهيداً أخضر ... ويتباحثنا الغد ، فإذا بصاحبي متبرم ساخط . تعاون عسره ومرضه على هيكله الواهي . عاف عمله في الاذاعة انتصاراً لوطنه فذاعت القلة في كيسه ، وخسر موردين : الاذاعة وكلية الآداب ، وأثقل دينه ظهره . لم يبق له غير جراية وظيفته الحكومية وهي لا تسد ثغرة العقاقير ، فاضطر الى بيع أعز المقتنى ، وكانت مكتبته كبش المحرقة .

قال لي : غداً — وغداً بمعناها اللبناني الواسع — ادع كل هذا وانصرف الى العمل حراً .

فقلت : وما نويت أن تعمل ؟

قال : اعود الى المحاماة ، واعلّم معك اذا اقتضت الحال .

وحدقت اليه لعلي ادرك عمق يأسه ، ومدى أمله ، فرأيت بريق زجاجتيه قد تضاءل ، وزيت قنديله قد شح فقلت له : ياقليل العقل ، تعود الى المحاماة والتعليم بعدما خيمت في الشاطىء يا أبا منذر !

فانفرجت شفتاه زهاء مليمتر ولم يجب ... فقلت له : كفاك الله شرهما ياعزيزي ، فالذي لم يسهل عليك عمله شاباً يعتاص عليك كهلاً . اما سمعت قول المثل اللبناني : بعد ما كبر وشاب حطّوه في الكتّاب ؟

قال : ولم لا تقول شيخاً ؟

قلت : لكيلا اصير انا هرماً .

فضحك ضحكة فزعتني ... ليس بينها وبين ضحكة الهيكل العظمي فرق كبير .

كان عمر قليل الكلام معافى ، فكيف به وقد هدّ حيله اليرقان ، وله كبد مقروحة لا يبيعه أحـــد بها كبداً ليست بذات قروح . كان يعاني مرضاً كالنعاس يهدّ ولا يؤلم .

وثنيت عنان الحديث صوب النوادر والفكاهة فوجدته لا ينشط لها، فعدت الى دار المكشوف احدث صديقنا الشيخ فؤاد حبيش عن الخطر العتيد .

●

وفي خطرة ثانية سألت الشيخ الحبيشي عـن حال عمر فقال لي : بخـــير ، كان هنا . فقلت في قلبي : أذن ما ابعد المـــوت عنك يا مارون ، انـ صحّ عمر وسلم .

وذهبت اليه لاهنئه بالسلامة فوجدتني اقول عفواً : لا تخدع نفسك ، توق ما استطعت . ما اراك كما اشتهي .

فاجاب : ما كنت يومـــاً في حياتي كما تروم انت ... احس انني اتحسن ، ولا أدري إذا كنت أبلغ المرتبة التي اجلس فيها أمام قـدح من عرقك المثلّث ، وخمرتك الدهرية .

فقلت : الله كريم ...

ونظرت اليه فخلتني ارى ملامح رجل من وراء برقـــع ، وانني امام شبح يمثل عمر . وقرأت أن أحدهم حمـل الى عمر وسام الاستحقاق اللبناني فقلت : ولِمَ هذه العجلة . خامرني ريب فيهـــا فسألت أصحابنا فقالوا لا ، ولكنني رجعت الى نفسي وقلت : انه فأل غير مليح ...

وعدت من « فرصة الربيـع » ومعي لأخي عمر شيء من تلـك التي شبه بها سليمان حب الشولمية في نشيد انشاده . ومـــا وضعت الأثقال لأفعل ، كما قال الأخطل عن قطار فلسطين ، حتى حمل الي الأثير صـوت الاستاذ رئيف خوري يؤبن صديقنا عمر . فضربت المكتب بجمع يدي وهجم الدمـــع الى الخدود ، ولكنه لم يتجاوزها ، كعادته في المصائب الجلّى .

ان حصة عمر محفوظة وستبقى مختومة على « السدة » ولا ترى النور الا حين

نشربها في عين كفاع مع اخوان عمر واصدقائه ، صانعين هـذا لذكر كاتب عظيم مات ...

سنصنع هذا الذكر ركن من اركان هـذه النهضة ، لذكر موظف عاش نظيف اليد والجيب . ما مدّ يـده قط ، ولا اشتهى مقتنى غيره . عاش لايفصل بينه وبين الناس ذاك التعفص الذي يتنكر بـه بعض الأدباء والمتأدبين لاصحابهم متى وظفوا .

كان لاطائفياً ، ولكنه لم يتشدق يوماً بـذم الطائفية كأصحابنا الأشد تعصباً من الكهان ، ثم يتفانون غيرة على الأوطـان . كان عمر لا يصيح ولا يماحك ولا يداهن ولا يصانع ، فظل حيث هو لانه لا يحسن المداجاة والمصانعة والمداهنة ، لانه أبيّ ثابت يزدري المنافقين والزنادقة الذين يكرون مـع كل خيل مغيرة .

ترك ما ترك من موارد رزق تعصباً لبلاده ، وانتصاراً لهـا ، ولم يشعر احد بما صنـع ، ولو فعل ذلك غيره لأقام الدنيا وأقعدها .

عاف موارد رزقـه وعاش مكثوراً عليه ليتضامن مـع بلاده . فعل كل ذلك صامتاً لانه ليس من الذين يجعلون مـن الحبة قبة ، ومن القبة جبة ... لانه من غير الدين يجمزون كالقبابيط في حقل المراتب ، ويدعسون على جثث اصدقائهم ليرتقوا درجة ويكسبوا ليرة ورق .

ان هذا الاستطراد يجرني الى الكلام عـن شخصيته . لم يكن عمر حسوداً ولا حقوداً ، كان على مـا فيه من شمم واباء لا يزهى ولا يتكبر . كان محباً واذا ابغض اعرض وازدرى ، وخرج بالصمت عن لا ونعم كصاحبة بشار .

كان فمه نظيفاً لا يتبدل حتى في المجالس الخاصـة التي كنا نعطي فيها المرح حقه . فكان يقابل تلك النكات الصارخة بربـع ابتسامة ، ويشارك بكلمات كان يستعد لتأديتها استعداد طالب غير واثق من ذاكرته .

ولم يكن عمر عـدواً في ثياب صديق ، ولم يكن من الذين يقتلون الرجل ويمشون في جنازته شاقين الجيوب حزناً على الفقيد الغالي . اما في الأدب فكان

مؤمناً ولكنه غير ممارس الطقوس المنظمة . يصلي لآلهة الفن بما يدور على لسانه ... لم يكن أديباً محترفاً بل كان أديباً هاوياً . كان كسميه عمر ، غفر الله لهما ، موكلا بالجمال يتبعه . كان لعمر بن ابي ربيعة ، لذة النظر ، كما زعم ، وكانت لعمر فاخوري لذة العمل الفني ، وما معشوقاته غير الكلمات اللواتي يؤلف بينهن ولا يجعلهن ضرائر ... أولع بالجديد ولم يتنكر للقديم فكان من خير من كتبوا بلسان العرب من المحدثين .

وأخيراً مات هذا النسر وعينه الى القمة ، لم ينظر قط الى الأوحال التي يتمرغ بها بعض زرازير الأدب .

لا أقول ان خسارة الأدب العربي لا تقدر او لا تعوض ، فحسب الذرية ما تركه لها عمر من نماذج ، وقد لا يصنع اجمل منها لو عمر كمتوشالح ..

في ذكرى عمر (١)

لقد اشبعت عمر درساً في حياته وبعد مماته . اما الآن فسأتحدث اليكم كما يطيب لي ان أتحدث ، ولعله يطيب لكم .

أفلا يعنينا من الأديب غير تعبيره وتفكيره ؟ فأين نحن من أخلاقه ؟ ألسنا أحوج الى هذا منا الى غيره من الخصال ؟ .

مساكين أهل «الفن» حتى قبورهم عليها تراب الذل دون الخلائق

أسرجوا الخيول،واقرعوا الطبول . أي خيول ياسادة؟ خيول الفكر لتجلي في ميادين الورق ، وطبول الخطب لتقرع في حفلات التكريم والذكرى، مسكين الأديب . يعيش على الكلام ويموت على الكلام . فكل ما يُعمل للأدباء عندنا هو من بضاعتهم تلك . « حكي بحكي » والذي مات بداء الحكي غماً نحاول نحن أن نحييه بالحكي ، ثم نعد هذا خلوداً .

خلود ، نعم خلود . قال جبران : يقولون لن تعرف قدرك حتى تموت . لقد اصابوا.فمن ياترى يعرف طبيعة البذور التي تطرح في الارض قبل ان تنبت؟

(١) القيت هذه الكلمة في دار المكتبة الوطنية ببيروت

هذي غير تلك ياجبران ، وأنا لست على رأيك في هـــذا القول . لا بد أن اموت ليعرف الناس قدري . فيوم حلو جميل ، وامسية أو عشية نتمتع بها بمثل هذا الاجتماع بكم يا سادة ، يسوى ألف خلود أدبي بعد الموت . وما هذه الآمال والأماني الا تعلـّة البائسين ، وجلهم من الأدباء .

هذه علكة كالتي يلـهون بها الأولاد عن أكل لباب اللوز حين يستأجرونهم لتكسيره . ما لنا ولهـــذا الخلود الكاذب . أنعيش فقراء منكوبين بجيوبنا ، أينعم سوانا بخيرات الأرض لننعم نحن فيما بعد بحفلة تكريم ؟ أليس كل راحل عظيماً ؟ أليس كل ميت عبقرياً ؟

انا لا أقول ما قاله الحجاج : والله ما احب ان ما مضى من الدنيا لي بعمامتي هذه . يظهر ان عمامته تلك كانت ارثّ وأعتق من عمامة نقولا الترك التي سأل الأمير بشيراً أن يعتقها مع ذلك الشروال . . .

وبعد فلنفترض ان أديباً عظيماً مات ، فمن يشعر بمـوت هذا الأديب غير المصابين مثله بداء الكلام ؟ يموت رجل وراء الكيس ، منتفخ الصندوق ، فتهتز الأرض بالطول والعرض ، حكومة وشعباً . ويمـوت الأديب الألمعي فلا يشيعه غير جيرانه وأخوانه .

وبعد هذا ، ماذا ؟ اسمعوا . علينا ان نقيم لنوابغنا آثاراً مشهودة لنحث شبابنا على اقتفاء آثارهم ، فقـد كادت لحية لبنان ان تتصل . علينا ان نعزز الأديب حياً ليقتدي به النشء ويكون للوطن غيره ، وإلا انقطع النسل الأدبي . فهذا الأديب العظيم الذي اجتمعنا لاحياء ذكراه الليلة ، أتعرفون مـــاذا حل به قبل ان لفظ روحه ؟ لقد مات معوزاً وكفى ، ومـــا يوم حليمة بسرّ . فلننتقل الى أدبه .

قرأت ، بعد موته صفحة من انشائه فكدت انكرها لو لم يثبت لي ذلـــك خطه . تسمعون ، ولا شك بالعملية القيصرية . هكذا كان عمر يضع مواليده . اثنان كانا مقلين مجيدين : جبران وعمر ، وكلاهما كان صائغاً متأنقاً ، وقـــد عرفت ذلك بعد اطلاعي على مخلفاتها التي لم تبـع كمخلفات الجيش .

كان عمر صريحاً لا يواري ولا يوارب ، وحسبك منه قوله : « فاذا بما يفيض من عبقرية جبران يروي بطاح المستقبل ، بينما عبقرية شوقي مسفوحة على هضاب الماضي . شوقي من الشرق وجبران من الغرب ، فـلا يلتقيان الى يوم القيامة . ويغلب على الظن ان الشرق سيظل كامرأة لوط ، في موكب الزمان، ناظراً الى وراء فيمسخه الله صنماً من ملح ، أي من دموع جوامد ، على حد قول آندره جيد الذي يزعم ان لوط ضاجع ابنتيه في احدى منعطفات التاريخ ، وهو ناظر الى المستقبل ... »

اجل ، كان لعمر فصول ولكنها روائع حقاً لانها ملك صاحبها ، وعليها ماركته المسجلة .

اما وقد انتهيت من عمر ، فلا بد من كلمة دعت اليها الحال . أما حان للأدباء ان يدعوا الشكوى ؟ فاصحاب ارميا كفوا عن البكاء ...

الادباء من المواطنين ، ولهم من الدولة ما يطالب به كل مواطن منكوب بزلزال ، ولهم اسوة بمن ذهبت الثلوج والعواصف بموزه وليمونه ...

الادباء دعاة الامة ولهم على الدولة ما له عليها كل رجل من رجالها . فاناشد الله من يعنيهم الأمر ان لا يتركوا الأديب حتى يموت ليتبرعوا بتجهيزه ..

ان يوماً هانئاً على وجه الأرض لخير من كل ما يعمل له وهو في بطنها . اذا ذهبت النفس فلا أسف على الجيفة .

وانتم أيها المحتفون ، بذكرى عمر ، هلموا بنا نعمل اثراً يحيي ذكرى عمر في غير هذه القاعة ايضاً . اخرجوا «الأديب الى السوق» فينعم بمشاهدة ابطاله . لقد كثرت ضيوف المكتبة الوطنية ، وانني لأخاف أن تضيق صدورهم يوماً فتعلوا صيحتهم ، ويتكلم كل منهم على هواه ، فما يفهم الحداث إلا التراجم . فهيوا بنا نخرج الخالدين الى الهواء الطلق .

رحم الله من سمع ووعى ، والسلام عليكم .

كرم ملحم كرم

وألف ليلة وليلة

أطلت على الوجود منذ ست سنوات،وها هي اليوم في مطلع عامها السابع، بالغة الرشد،يجتمع معظم أشدّها،دارجة في حياتها على ناموس النشوء والارتقاء، ولكن شريعة النمو كالشجرة المغروسة على مجاري المياه . ولو أتيح لمنشئها كرم ملحم كرم ان يعيد النظر ولو مرة واحدة فيما يكتب لأرانا عرائس فنه الروائي البارعات الجمال أشدّ فتنة .

فالرواية اليوم هي كل الأدب الحديث ، رافقت الانسانية من المهد وستماشيها الى اللحد . كانت اسطورة حافلة بالجنّ والعفاريت والمردة ، فأصبحت حقيقة ، بل صارت قطعة من الحياة ، إن لم نقل الحيــاة بعينها ، فأعظم بالروائي الحاذق مبدعاً ، يخلق عالماً لا يموت .

لا تستهوي الخطبة والمقالة الاطفال والصبيان والشباب ، بل الرجال الذين نسميهم بحق — مع اغوسطينوس — اطفالاً كباراً ، كما تستهويهم القصص الرائعة التي تلقي على الحياة أشعة ثاقبة تمزق ظلماتها ودياجيرها . ألم تر الى ابيك الشيخ كيف يرى كل اللذة في ان يقص على الناس حكايات حياته وما فيها من مغامرات تنبثق من طبائعه ؟ ألم تر الى غضون وجهه كيف تتبلور حتى تمتــلىء نوراً اذا رأى في وجوه السامعين اصغاء وارتياحاً ؟

فالقصة حديث البشرية مذ تجمع الناس في الكهوف ، بل الانسانية برمتها قصة ابدية ، كثيرة الألوان مشتبكة الخطوط ، أبطالها عباقرة . ومن تأملهــا رأى جمالاً كثيراً حتى في أشد مشاهدها قبحاً ، وما هذه القصص « الدهرية » ،

ذلك الميراث الخالد ، الا فصول رائعة من هذه القصة الكبرى .

وكلما دنت القصة من «الواقع» قاربت الكمال الفني ، فالروائيون مصورون بغير الألوان ، وكم رأينا الملهمين منهم يوحون الى نوابغ المصورين رسوماً وألواحاً خالدة . والمصورون كالروائيين ايضاً ، خيرهم من دنا اكثر من تقليد الاشباح والاظلال ، فكأنما حسن التقليد قمة الفنون الجميلة . فهنيئاً لمن أوتي من الروائيين سلامة ذوق ليختار من اللغة الواناً ويبدع من تمازج ألفاظها ألوان قوس قزح .

وهذا ما أخذت ألمسه في روايات كرم ملحم كرم منذ عام وبضعة اشهر . أجل ، لقد صار يحسن تقليد الطبيعة ومحاكاتها ، ولم تكن أوليات رواياته في نظري غير محاولات في هذا الفن الرفيع ـ وإن كانت ناجحة ـ ومن يكبر هذا القول فكأنه يتعض اذا قلنا له : كنت طفلاً تحبو ، ثم غلامـــاً تعدو ، فشاباً مكتمل الرجولة . وأي لوم على كرم في فن هو أشبه بمفازة لا اعلام فيها ، وقد كاد يكون بلا أصول حتى في الأدب الغربي .

فأكثر ما قرأنا قبل روايات كرم ملحم كرم مترجم الى العربية ـ ما خلا نزراً يسيراً يعوزه فن كثير ـ لا يحدثنا عن شؤوننا بشيء ، فتلك إذن روايات غريبة عنا ، زيها غير زينا ، وعاداتها غير عاداتنا ، لا نلمح فيها شيئاً منا إلا تقاطيع الانسانية الشاملة، فلا نستلذ طعمها ولا يفتننا لونها ، فكنا أشبه بشرقي في وليمة غربية .

أما التي أرضت الجمهور منها فملاكها المفاجآت والازمات وليست هذه كل الرواية ، فعهد المفاجآت والأزمات مضى وراح ، فالرواية العصرية ترمي الى غرض أسمى من التسلية . هي درس عميـــق يخفيه الروائي اللبق تحت ستار القصص،ويدسه في سياق الرواية دساً كما تدس العقاقير للاطفال في قرص الحلوى. فالروائي النبيه يريك ما تراه كل يوم ولا تدركه ، ويلقي روايته من بين يديه تهتز كأنها جان،مزينة بالرسوم والمشاهد البيانية فتلمح صورة المجتمع حية يجسمها لك التمثيل وتجسدها لك السينماء متحركة ناطقة .

ولا اخطىء اذا قلت ان الرواية اطروحة تتقوم بنبالة اشخاصها وسمو اخلاقهم.

يلقيها الكاتب النزيه على الناس مصلحاً ، لا مفسداً ولا مخدراً للاعصاب . فاعتماد الانسانية في نشدها المثل الأعلى اصبح يعتمد على نزاهة الروائي واخلاصه للاخلاق والفن ، فخير الروائيين من شق بقدم سفينة خياله عباب المفاسد متجهاً بقرائه الى ميناء الفضيلة الحصين ، دون ان ينسى ان الرواية للتسلية قبل ان تكون للوعظ الجاف ، والتحليل العقيم المملّ .

قلنا اننا قبل روايات ألف ليلة وليلة لم نقرأ روايات قومية تحدثنا بلغتنا ، وتصور لنا عاداتنا أصدق تصوير ، ولكن يا للأسف ان معظم القراء لا تروقهم الرواية إلا اذا كانت حادة لاذعة ، غريبة كالأساطير ، ذات مفاجآت وازمات كروايات البوليس السري ، والذين يقدرون ما يقرأون نزر عددهم . ولا أراني مخطئاً اذا قلت انهم يقبلون على ألف ليلة وليلة بقدر ما فيها من اكسير الشباب ، لابمقدار ما فيها من فن، وان نفراً غير قليل منهم يحسبها كقصة الزناتي ونجمة السحور .

فيا كان أشد ألمك يا كرم ، وما اعظم جهادك ، ولله صبرك ، بيد أنك ربحت المعركة ، والله مع الصابرين .

أما كيف ، فإليك الخبر : حبّب الى الجمهور مطالعة قصصه الفصيحة ، ومال بهم عن تلك السفاسف فرقّى ميولهم وعلمهم التفكير ــ وهذا اول دروس الحياة ــ ورغبهم في قراءة القصص المتصلة بحياتهم كل الاتصال ، وبسط لهم بمهارة الروائي وحذقه الحوادث التي تلابسهم كل حين فخدم اللغة والفكر ، وأرانا فناً روائياً عربياً ما رأينا مثله من قبل .

لم يسمع كرم ملحم كرم بحادثة رائعة ، بل لم تقع حادثة ذات شأن في البلاد إلا انبرى لها يسكبها بقالب روائي جذاب وأظهرها بعد اسبوع في مجلته ، وهذه لعمري جهود جبارة يقدرها لكرم الأديب الجسور كل من ادركته حرفة الأدب . فكأني بكرم معمل روايات لا تقف دواليبه هنيهة حتى يستطيع كل هذا الانتاج والاصدار . فأكثر الروائيين انتاجاً اليوم لا يصدر في عامه نصف ما يصدره هذا الشاب المقدام الخصب المخيلة .

والذي يتراءى لي ان كرماً لا يرسم لرواياته هيكلاً فهو كالحاسبين عن ظهر

قلبهم ، يجمعون ويطرحون ويضربون ويقسمون دون ان يلجأوا الى القلم والورق . ان كرماً لا يدبر الخطة اذن، بل لا يراجع ما يكتب الا ساعة تصليح المسوّدة ، واذا صححها مرة صارت المبيضة ، هذا إن كان يكتب دائماً كما رأيته مرة . كان يسلم كلاً من منضدي الحروف قصاصة فيها بضعة أسطر حتى اذا نضدها رجع اليه. فالمنضدون الى مكتبه رائحون جيّاؤون وهو يكتب ويقص ويسلم . حرب سجال بينه وبين منضدي الحروف ، لا هدنة ولا نزع سلاح حتى يغشاهم الليل ، وعند الصباح يعودون كما بدأوا .

قرأت له تسعاً من رواياته ، اولها « ماذا فعلت أيها المحترم » وآخرها « في قبضة الجبار » . قصص مختلفة البيئات والشؤون، اكثرها واقعية ، فرأيت اللون المحلي حتى في البعيد الدار منها. وتتبعت سياق الرواية السهل فاذا بي كلما دنوت من يومنا « هذا » أدنو من الجمال الفني في بروز الاشخاص التي تكاد تتحرك في سهولة القصص المترقرقة كالجدول الصافي ، في الألفاظ والتعابير التي ينطق بها اشخاصه ، وأفرحني تجنبه بث الآراء الشخصية كأنه يعلم ان القراء يستسمجون الرواية اذا كانت لحمتها وسداها فلسفة وآراء .

فلو كان كرم يكتب لغير من يكتب، أي للأدباء فقط، لأرضى الفن اكثر ، بل لجاءت روايته قطعة فنية لا « لو » فيها حتى في نظر اكبر الروائيين ، على حداثة الرواية في الادب العربي ، وقلة البضاعة التي يحتاج اليها الروائي في لغتنا الغنية الفقيرة . ولكن هو الرأي العام عقبة في وجه كل متفنّن ، فهناك تقاليد ونظريات تكبل الأديب فلا يفلص منها مهما حاول ، وأنّى لمن يتوكأ على الرأي العام ، مثل كرم ، ان يغضبه .

ولو استطاع كرم ان يخصص لروايته حصة من الزمن لجارى روائيي الغرب وكانت روايته التي اتمنى ان يتفرغ لها ، رواية العام .

فما أدق نظره عندما يضع لك رواية لبنانية، إذ لا يترك شاردة ولا واردة يتطلبها الفن ، فتبرز شخوص روايته ناتئة كأنها تماثيل ودمى من رخام كالبلور، وهو الى ذلك كأولئك الرسامين المختزلين الذين يرونك سحنة اشخاصهم بخطوط

قليلة جداً .

اقرأ صفحة ٤ من العدد ٢٥٢ تتجلى لك شخصية بطل روايته، واقرأ صفحة ٩ من العدد عينه تعرف كيف يكون الحوار وأي ألفاظ ينطق بهـــا اشخاصه الروائي الحاذق الموهوب ، حتى اذا انتهيت من مطالعة الصفحة العاشرة قل معي: هذا ما يتمناه لنفسه اوفر الروائيين حظاً من الفن، حقاً ان من الفن لسحراً.

ولفت نظري في كرم قلة تحامله على ابطال رواياته فكأن لا علاقة له بهم ، يسرد الحدث وينطقك غير مخير بالحكم الذي يريده حتى تخاله محدثاً او «شاهداً» لا أكثر و لا أقل .

أما مواضيعه فيستقيها كما قلنا من المحيط ويلتقطها عن طريق الحياة فلا تتغير إلا قليلاً حسب الحوادث والاشخاص . ومعظمها واقعية او كالواقعية ، إلا بعض روايات غريبة الاشخاص مترجمة بتصرف واسع الخطة ، ـ كما فعل تولستوي ببعض روايات موبسان ـ وغالباً ما يمشرقها . ان العاطفة تظل السيدة المطلقة في كل ما ينشر ويذيع .

وأراه يعطي أشخاصه احيـانا شواعر غريبة وفضائل نادرة كما في رواية « قاهر الامير بشير » . فلو لم يكن في الغالب أسير أشخاصه لكيّفهم كما شاء، ولكن ما الحيلة وهم أحيـــاء يعرفهم الناس ؟ إلا ان من يعرفهم يكاد يسمعهم يتكلمون ، وان كان كرم لا يعرفنا اليهم أكثر الأحيان .

واشهد انني تمثلت أمام عيني الشيخ عقلة القطامي ـ الذي عرفته في عمان ـ كأنه يحدثني في رواية « بعرضك يا باشا » كما سمعت الشيخ ابراهيم يتكلم في رواية « راهبة عبرين » والابتسامة الحائرة ملء فيه .

فلهذا أقول ان لغة الحوار او الحديث عند كرم لكأنها الراقع، وهذا مشكل لم يفك حتى في روايات الغربيين الذين يكتبون كما يتكلمون ، فكيف برواياتنا التي تكتب بلغتنا العربية ذات اللغتين الفصحى والعامية ؟

وأسلوبه الانشائي من طراز «السهل الممتنع» ـ حسب التعريف البالي ـ غير ان بعض فقرات تأتي من الطراز العالي، كأن كرماً نسي إذ ذاك أنه يكتب للجمهور،

وما هي إلا لحظة حتى ينقطع هدير الشلال وينساب جدولاً هامساً .

وكم أتمثله متى أقبل على نقض نقيصة يزأر المجرم بعينيه الحادتين وذلك الوجه العبوس الذي قلما يبتسم، وان تبسم فابتسامة غير كاملة، وهو في كل حال لا يريد إلا أن يكون روائياً قصصياً لا كاتباً اجتماعياً يتوسل بالرواية الى نشر بعض آراء يملأ بهـا أفواه اشخاصه والى أغراض يحشرها حشراً في سياق الرواية فتتفكك أجزاؤها ، ولا يتعمد الشعر الطليق فيأتي في قصته كرقعة جديدة في ثوب بال ، كما فعل ويفعل كثيرون من محاولي كتابة القصة ، فيصعدون بك الى الأولمب ويهبطون الى وادي جيهنّوم ، كل ذلك في عشرات من السطور .

ان مهمة الروائي في الأدب العربي شاقة جداً ، فلو أراد أن يدقق في الوصف ككتاب الغرب لعازته ألفاظ كثيرة وضعية ، فاللبيب من روائيينا من هرب ما استطاع من المحيط الذي يقلد المدنية الغربية فيدرك بذلك غرضين : الأول وهو الأهم أنه يرسم صورة شرقية صحيحة وهذه مهمة الروائيين اليوم ، والثـاني انه يتخلص ـ اذا شاء أن يصف ككتاب الغرب ـ من وصف أشياء لم تعرّب اسماؤها بعد . فعسى أن يكفينا المجمع العلمي المصري هذه المؤونة . وكيلا أكون حرجاً أقول ان كرماً لا يستطيع الفرار من هذه المعركة ، معركة الرواية الواقعيـة ، وهو حامل علمها الأعلم .

وقصارى الكلام ان كرم ملحم كرم ظل يجاهد حتى أرانا في مجلته « الف ليلة وليلة » ، وخصوصاً في الفترة الاخيرة ، روايات قيّمة بارعة لو كان كاتبهـا غير عربي لنعم بالشهرة والغنى .

فسر يا أخي ، بحراسة آلهة الفن وكفاك فخراً انك سددت ثلمة في جدران الأدب العربي ، وكأني أراك بعد سنوات تطبع فيها على هذا الغرار واقفاً على قمة الفن الروائي بين زعمائه العالميين .

ولي عود الى هذا الموضوع فأخص رواياته التي قرأتها بنقد وتقدير وإذ ذاك ننظر فيما لكرم الروائي وما عليـــه ، وأظن أن من لا يرحم أحداً حتى أعز أصدقائه في « عاصفته » التي تكتسح ابداً يفرحه نقد غرضه التمحيص ورائده

الاخلاص للادب والفن لا للاشخاص .

وحبذا الأديب هو لو مرحب فصولي العتيدة فتنزل على الرحب والسعة في «عاصفته» ، فخلّ التواضع يا كرم وقل أهلاً وسهلاً ، فالضيف خليق بالكرامة وأنت عربي لبناني ، فانا معك وعليك ، وهب انك قلت : يا ضيفنا ... فلك اقول : شرط في الحقل ولا قتال على البيدر ، أريد نشر فصولي « بحروفها » .

أقول هذا خوفاً من نشر النقد وطي التقدير ، وليس هذا بعدل .

وفاء الزمان - سجل التوبة

للريحاني

ألّف الريحاني رواية « وفاء الزمان » في الفردوسي ، واخرج مخائيل نعيمه كتاب « جبران خليل جبران » ، فكان الأول مسرحياً ، والثاني قصصياً وكلاهما لم يوفقا الى الفن .

الريحاني ونعيمه تقضى شبابهما في بلاد الدولار ، ونهلا من ينابيع الثقافة الاميركية الانكليزية ، لهما آثار واضحة في النهضة الحديثة لا ينقصها فقدانها بعض جدتها .

كان كتاب نعيمه أسبق ظهوراً فهو أولى بالتقديم ، ولكن هذه القافلة الفردوسية السالكة طريق التجارة القديمة حاملة الى بلاد فارس مرّاً ولباناً — كالمجوس من قبل — تخفى علينا آثارها اذا تباطأنا عن ترسم خطاها . والحمد لله في كل حال لم يفتنا « الموسم » وقلنا في الفردوسي نثراً وشعراً .

ما كنا لنعنى بنقد هذه المسرحية لو لم تكن للريحاني كبير كتّابنا والزعيم الأدبي الذي له في كل معركة غبار ، وفي كل عرس قرص ، ولولا ان ظهور المسرحيات في جونا الأدبي كظهور مذنب هالي .

للريحاني «الجديد» خطب ومقالات اجتماعية وسياسية حتى الصحية ...وله روايات وقصص وكتب رحلات عربية وانكليزية . وللريحاني « القديم » ترجمة نتف من لزوميات ابي العلاء ، وله شعر انكليزي ، وله كتاب « المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية » الذي شهره فتحدث الناس به ، وله أيضاً نبذة في الثورة الافرنسية ، وقصة المكاري والكاهن التي أعاد طبعها هذا العام .

قلنا ان الريحاني لم يوفق لتكوين مسرحيته الفردوسية ، وأنّى يوفق من يصبغ صبغاً ؟.. فالرواية فصلان في ست وثلاثين صفحة (قطع وسط حرف أول) يرفع فيها الستار اثنتي عشرة مرة ، فتأمل .

أما موضوعها فالأسطورة التي نسجتها عنا كتب التاريخ على شخصية الفردوسي ، وتناقلتها الصحف والمجلات بمناسبة ذكراه الألفية . لم يزد الريحاني عليها شيئاً غير شخصية « الزمان » و « الجمال » الذي رافقه الفردوسي ، فكان أبلغ من الشاعر والزمان ، مع ان المثل يقول : ان لم تعلّم ابنك فالزمان يعلمه .

واليك عرض الرواية :

في المشهد الأول يحلل الريحاني عقلية السلطان الروحية في حوار رائع مع الشاعر يكاد يدنو من الواقع . ويتدرج الى مجاملة الشاعر بلباقة وفن – وإن سمّاه الفردوسي قبل الاوان – أما حمل السلطان كلام الشاعر عنه وعن الرسول محمل الظرف فهذا كثير ، ولا يحدث مثله عندنا فكيف يكون منذ ألف عام ؟ وأغرب منه أن يكره سلطان فارسي « المجاملة » ويعدّها تبذلاً غير خليق بالشاعر . ان بدعة التبجيل والتعظيم كان الفرس دعاتها بين العرب ، فدنّا بها ولا نزال نركع ونقوم في هيكلها الرميم ...

فنحن – ولا فخر – اذا لم نسلم على الكتّاب والشعراء بألقابهم « بنصها وفصّها » عدّونا ممن يبخسون الناس أشياءهم ولا أدري ماذا...وحمّلوا البريد الينا رسائلهم « اللقيطة » النامّة عن وجوههم العظمية .

عفواً لقد شط القلم ... وينجلي المشهد الأول عن تعهد السلطان للفردوسي بدينار عن كل بيت تدفع ألفاً بألف ، أما الفردوسي فيرى ان يقبض المال جملة ويبني السد المزعوم الذي يتغنى به شعراؤنا ...

ويرخى الستار ليرفع عن وزير يفاتح السلطان الكلام ، وهذا لم يألفه الملوك القدماء ، وتبتدىء محنة الشاعر فيكيد له حسن واياز ، ويغالط المؤلف نفسه فينسى ما قاله في المشهد الاول ، فنخبر في هذا المشهد وما يليه ان الفردوسي ملحّ ملحف .

وبعد المناقشة يخرج حسن واياز ويرخى الستار ليرفع عن المشهد الثالث

فيظهر السلطان وحده في المكان عينه ، ليتكلم دقيقة او أقل ، ويقول : ان الفردوسي مثل سائر الشعراء مسترفد ، لجوج ، شتّام .

لقد حيرني ارخاء الستار ورفعه هنا ولم أفهم حكمة الريحاني فيه .

أما المشهد الرابع ففي طوس . الفردوسي ببيته عاتب ساخط على السلطان ، يعجب كيف لا يأمر وزيره بقضاء حاجته فيقول : أأستدين ثم أستدين ثم أستدين ... أطلب من اللئيم الجالس في باب الخزنة مائة دينار فيرسل إليّ عشرة دنانير ...

وفي آخر هذا المشهد ، وهو خاتمة الفصل الاول ، يوزع الريحاني « الملبّس » فيقول بلسان الشاعر : لولا الحاجة اليهـا ـ أي الدنانير ـ لوضعت كل دينار في بعرة جمل وأرجعتها اليه .

الفصل الثاني : وهنا يبتدىء التقطع والتفكك ، ففي المشهد الاول ، وهو صفحة واحدة ، يجتمع السلطان ببطانتــه ليقول لوزيره حسن : « أرسل الى الفردوسي حمل فيل ذهباً ، ستين الف دينار » فيقنعه الوزير بإرسال ستين الف درهم من الفضة ، ويرخى الستار .

أما كان يقدر الريحاني على قول هذا بلسان احدهم في المشهد الثاني ، فيستريح ويريح ويرضي الفن ، رضي الله عنه ؟

وفي المشهد الثالث يدخل « الزمان » على الشاعر في بيتــه . في هذا المشهد روعة عظيمة لولا حدة في الشاعر تشبه الجنون ، فلو قللها أمين لكانت أبرع . لعل له عذراً فربما نسي أنه يحدثنــا عن الفردوسي . لعله تخيل شاعراً آخر في تلك اللحظة فشوه الصورة .

وفي المشهد الرابع يهدر السلطان كالجمل الهائج ويسبّ الشعراء جميعاً . وضع أمين قصيدة الهجاء في يده ولم يبال بشكوك المؤرخين . يا ليته فعل هذا في كثير من المواقف فأنقذ روايته من القحط والجدب . وماذا عليه ؟ فحياة الفردوسي أسطورة وشعره أساطير .

أما الطعن في الشعراء جميعاً ، والنيل منهم كلهم بلسان هذا السلطان ، فما أشبهه بعمل يوسف وهبه في روايته « الدفاع » . أفسد الرجل فنه وجعل المحكمة

المصرية ملهاة وملعباً ليغمز على اللبنانيين ، إذ أبرز ذلك الشاهد العنتري الديابي الهلالي الذي أخذ صورته عن « صندوق الدنيا » .

أما المشهد الخامس ففي الطريق ، وعندي ان يجلس رفيقا السفر : الشاعر والجمّال ، لان ما قوّلهما اياه المؤلف يقصر دونه المسرح ، مهما بعد مداه. وحديث كهذا أخلق بالجلاس منه بالمشاة . المشهد جميل ولا غرابة فيه إلا ان هذا الجمال ـ قاطع الطريق ـ كان يستجوب الفردوسي ويستنطقه كالممتحن ثم يقـــول له : أعد الرمي ... ولم يكن ينقصه إلا ان يربّته ...

وفي المشهد السادس يندم السلطان ، ويأمر رئيس الديوان بأن « يعـــدّ » ستين الف دينار ذهباً ، واذا نقص شيء فليرسل بقيمته نيلاً ...

وفي المشهد السابع تمر جنازة الفردوسي ، والجمّــــال واقف مع رفيق له يتذكر صحبته الشاعر منذ عشر سنوات . ويأتي رسول السلطان بالمال الخ ... ما شبّهت هذا المشهد إلا بما يمثله النصارى في القرى يوم « سبت العازار» وأظن اميناً يتذكر مثلي ذلك ولا ينساه .

هوذا اليابسة. قد بلغنا المشهد الثامن وهو الأخير ، فتنفس معي أيها القارىء الكريم ، واستعد لتنظر «الاب نويل» ثانية... فهذ الزمان قد ظهر بعد الف سنة. هنا تظهر شخصية الريحاني بكل خطوطها فيقول ما يريد ان يقول ، ويقرر مـــا يريد ان يقرر من « الحقائق » ، بلا شك ولا تجمجم . لا يحسب لتقلبات الزمان حساباً . أفلا يرى معي أمين ان زمانه خرف إذ يقول : المستقبل للعلم الذي فيه خير الناس أجمعين وحرية الأمم جمعاء ، لا للمال المستعبد للشعوب .

هل قضى على الشعوب المستضعفة وأقض مضاجعها واستعبدها واحتلبهـــا ـ فنياً ـ غير هذا العلم الجشع الميت الضمير؟أليس باسمه يعاني الضعيف ما يعاني؟

كان على الاستاذ ان يأتينا بخير ما عنده من البضاعة الفنية ، ولا يضع بفم الزمان هذا المبتذل من الكلام ، ولا يسمعنا هذه التطويبات والدعوات والتمجيدات أيفكر الزمان يا ترى ان يفتخر بما جعله الريحاني يفتخر به؟ لقد بذ أمين المتنبي ، وابن هانىء ، وكل شاعر عربي .

ويجمل الرأي في هذه المسرحية انها «كدرب الصليب» ولا ينقصها إلا النشيد واللازمة، وأبشع عيوبها قلة الخطوط التي تميز الأشخاص، وهذا أهم ما يتطلبه الفن من الروائي، فهو كالمثّال. واشهد انني لولا قصة الفردوسي المعروفة ما عرفته في رواية وفاء الزمان. انها لم تظهر لنا منه غير رجل متكالب على المال، أمـا مثله الأعلى في الحياة فما فهمته من هذه الرواية، ولا من قصائد الشعراء.

الوزير هنا يصلح ان يكون وزيراً في الهند او الصين ولا بأس عليه، والشاعر ككل الشعراء بل هو والجمال سواء، والبيئة ككل مصر من الامصار الاسلامية المستعربة. ان انطاق اشخاص من الفرس كما كانوا ينطقون منذ عشرة اجيال لمهمة شاقة لا يحققها إلا درس عميق طويل. ولهذا تاه الأمين في صحراء الفن مع انه لم يته في الدهناء...

أما الحوار فكان يستقيم حيناً ويلتوي غالباً، وحديث الجمّال ـ لولا تلك الفلسفة العالية ـ كان خير الحوار، فكأني بأمين تمثّل مكارياً نبيهـاً يرافقه فأجاد ـ لولا التفاصح.

والختام لم يكن فيه شيء من «المسك»، فالزمان كان كخطيب فاته الختام البارع، فانقض كجلمود امرىء القيس، يتكلم ولا يعلم كيف ومتى ينتهي. لقد كان على الزمان ان يبقي شيئاً في نفسه، وان لم يفعل الزمان هذا فمن يفعله؟ ان الزمان في المشهد الاخير كان محاضراً لا ممثلاً.

وبعد، فقد تصادف هذه الرواية استحسان الناس ـ كما قالت الصحف الغراء ـ ولكن الفن لا يقوّم باستحسان الجمهور، فالناس يسرهم ويدهشهم شيخ كالزمان طويل اللحية يدب على العصا، وكم تدهش اللحى الطويلة، فهي وحدها رواية.

فليت اميناً كتب قصة ولم يؤلف مسرحية نيئة فجة، ليته فكر طويلاً ليقطع بالحجة اولئك الذين ينعون على العرب قلة الابداع والاختراع، منذ ايام الجاحظ.

وقصارى الكلام ليس في هذه الرواية جهود فنيـة بارزة تنبئنا ان صاحبها انخرط في سلك جوقة تمثيلية اميركية. فما هي غير عرض حكاية لا عمل للخيال فيها، ومشاهد متعددة، مفككة اسرع من جنازة بشار... لا تؤلف مسرحية

ولا سيما ان الريحاني كان كالملقن الاجش، صوته لا يختفي ، وأكبر عيوب الرواية ظهور شخصية المؤلف في أبطاله .

أين اختفت شاعرية الريحاني ، وأين توارى خياله الخصب ؟ هذا ما سألتنيه نفسي واحترت بماذا أجيبها .

انا اعلم ان الريحاني مغامر يكتب في كل باب ـ حتى قال الشعر الموزون مرة في زحلة ـ وهو يخرج كتبه بسرعة مدهشة ، فما أظنه إلا اكتفى بلقب الفيلسوف وما اليه ، وكم يجني الاطراء الجزاف على الأدب والأدباء . انني انصح له ان يتقن ويمحص ، فالغد هدام زلزال .

أما تصحيح الاخطاء المطبعية فليته تركه فقد عرف شيئاً وغابت عنه أشياء .

فالزمان نسأل ان يسدل على هذه المسرحية خصلة من لحيته الطويلة ، وقد كان على الريحاني قبل شحنها الى ايران ان يكتب عليها ـ مريعة العطب ـ .

اللهم ، انها شدة شديدة فاسترها .

سجل التوبة

هذا عنوان كتـاب « يتيم » ألّفه فيلسوف الفريكة ، ابو الشعر المنثور . أبصرت هذه المجموعة القصصية النور ، منذ اسابيع ، بفضل القيّم والوصيّ الوفي الأستاذ البير الريحاني شقيق امين ، وعناية دار المعارف بمصر .

خلق الريحاني مطبوعاً على القصّ فكان فيه غير متكلف ولا متعمل . ظهرت باكورة أدبه فيه يوم اخرج « المكاري والكاهن » و « المحالفة الثلاثية » فكان الامين فيهما كليهما كاتباً واقعياً وان تخيلها . ثم راعينا هذا النجم الذي تألق على منابر العالمين الغربي والشرقي ، فاذا بنا نرى أبرز عناصر أدبه في خطبه هو القص الذي يسترعي الانتباه ، بل يفتن ويغري .

فأمين لم يكن غير واقعي إلا في شعره المنثور الذي طبعـــه على غرار شعر ويتمان الامريكي ، ثم بهّره وفلفله بشيء من توابل الصوفيه الشرقية .

أجل كان امين في هذا اللون البكر من الادب متصوفاً ، ثم عافه وصار نضالياً

صرفاً. عدّى عنه الى أدب الرحلات والروايات والاقاصيص فكان في هذه كلها كاتباً وشاعراً واديباً، وناقداً ادبياً، واجتماعياً، وفنياً، وسياسياً مخلصاً للعرب داعياً الى توحيد ملوكهم وامرائهم ورؤسائهم، كما يعرف كل من قرأ «ملوك العرب» وغيره. ولكن الأمين ظل في تصانيفه التي لا قرابة بينها وبين الشعر المنثور دائم الحنين الى هذا الحبيب الاول فرصّع كتب رحلاته به.

ورأى الريحاني، بعد «المحالفة» «والمكاري»، ان يكتب روايات فكتب «زنبقة الغور» و «خارج الحريم». أما عنوان الرواية الاولى فلعله ينظر الى احد عناوين بلزاك ولا أخالك تجهل لاقول لك ان اميناً حاول في فجر حياته محاولات جمة، فمن فتى يلتحق بقافلة مسرحية ليكون ممثلاً فلا يفلح، الى طالب حقوق لم يثبت، وانا لنحمد الله على فشله في تلك الميادين، فلولا ذياك الاخفاق ما كان لنا هذا الاديب العالمي.

وأخيراً وجد أمين ذاته فكان الكاتب الممثل حين يخطب، والمحامي الفيلسوف حين يكتب، وكأن حنينه الى المسرح لم ينقطع فكتب مسرحية «وفاء الزمان» بمناسبة ذكرى الفردوسي الالفية، وها نحن نقرأ له اليوم في «سجل التوبة» مسرحية رائعة عنوانها عبد الحميد، وهي إحدى أقاصيص السجل الخمس. ان هذه الأقاصيص مختلفة البيئة والالوان، فواحدة اسطمبولية، واخرى تسالونيكية، والثالثة بابلية، والرابعة نيويوركية، والخامسة لبنانية سورية، وهي جميعها نضالية تحارب الطغيان والرجولة المنحطة في كل مكان وزمان.

عاش امين مكافحاً هذه الرذائل، وما ألقى سلاحه إلا ستة عشر يوماً غيب القبر بعدها ذلك الوجه الانساني النبيل.

قالوا في عمر بن ابي ربيعة: ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر، والريحاني الذي لم يفلح الفلاح كله في «وفاء الزمان»، لقد وفق جداً في مسرحية عبد الحميد المار ذكرها. وامين الذي كان قصاصاً عادياً في «المكاري والكاهن» أمسى قصاصاً فناناً في «نبوخذنصّر» وغيرها من أقاصيص سجل التوبة. ولا استثني من هذا القول إلا اقصوصة «بقضاء وقدر» لانها دون اخواتها، وقد تكون

السياسة هي التي أفسدتها.. كان الريحاني في «خارج الحريم» و «الزنبقة» يحوم في جو غير جوه، أما هنا فكتب في شؤون عجنها وخبزها فلم يكن عنها غريباً.

وبعد، فيظهر لي ان « اليتيم » محروس معان، فاذا نظرنا الى بواكير قصص امين بإعجاب فليس لانها فنية أصولية، بل لأنها نادت بفكرة اصلاحية، وحملت على التقاليد الهرمة فكان امين طليعة كتّاب العقل في صبح القرن العشرين، فأعلنها حرباً عواناً.

ان القص هو ابرز خواص فيلسوف الفريكة، فهو اذا حدثك عن أتفه الأشياء أحسست بمتعة لا تجدها في كلام غيره من المتأنقين. كان أكره مــا يكره امين شيئين : الاستبداد والتعصب الديني، فكانت مكافحتهما نجمة قطبه في خضم الحياة. فاذا قرأنا الاقصوصة الاولى « شريف افندي » وجدناها كفاحية، ترينا كيف يحن الشعب الى نيره، بينا هو ينتقل من مخالب نسر الى براثن نمر. أما أقصوصة عبد الحميد المسرحية التامة الالواح فغرضها معروف من عنوانها. لقد سلط امين على ذاك الطاغية الجبار اشباحاً شكسبيرية راعبة، فكادت ان تكون هي وأقصوصة نبوخذنصر من الروايات العربيــة التي تستحق ان يكتب على جلدها : لا تقرأ ليلاً، كبعض اقصوصات « بو » مثلاً.

واذا كانت اقصوصة عبدالحميد المسرحية رائعة جداً، فأقصوصة نبوخذنصر في القمة القصصية فناً وفلسفة. كأني بالريحاني قد تشبع من حكاية هذا الطاغية في التوراة، وأعجبته كثيراً حتى شبه حاله ببطلها في كتاب «ملوك العرب»، حين سئم اللحم الذي كان يصبّحه ويمسّيه مدة ثلاثة أشهر. وحن الى العشب فقال عن نفسه: تبعت «مبارك» الى مواطن المرعى الطيبة، ورحت أرعى كالبعير، بل رحت أدبّ على الاربع مثل نبوخذنصر آكل الحشيش (ص١٣٤ جزء ٢ الطبعة الثالثة).

ربما لا يعرف القارىء العزيز حكاية نبوخذنصر. هذا الطاغية كان ملك بابل ايام سبي يهوذا، فتنبأ له دانيال انه يطرد من مملكته ويعيش دابّاً على الأربع كالبهائم، حتى ينقضي الزمن المفروض، ثم يعود الى ملكه بعد انقضاء زمن التوبة. لعل هذا قد ألهم الريحاني قصته هذه، ثم أوحى اليه هذا العنوان، سجل

التوبة ، الجامع شتات أقاصيصه الخمس .

وفق امين توفيقاً عظيماً في قصة نبوخذنصر التي اخترعتها مخيلته ، وقديماً كانت التوراة مصدر إلهام للكتّاب والشعراء الكبار ، وامين واحد منهم ، فجعل من نبوخذنصر عبرة للطغاة المستبدين . نصر عليه بالاذان أحد أفراد رعيته ، فانتقم نبوخذنصر من هذا المتمرد انتقاماً غريباً عجيباً . لم يرض له بالموت ، لأن في الموت راحة ، ولكنه اخيراً مات غضباً عن الملك ، وأخذت روحه تصارع الملك فتظهر له في كل آن وتعذبه ، وكان خاتمة هذه المأساة الرائعة ما قصته عليه هذه الروح من أخبار العالم الآخر فاضطرب نبوخذنصر ، ومات معذباً .

يمضي امين في تصور « الآخرة فيذكرنا برؤى اغوسطينوس وحكاية الانجيل عن الغني المعذب في النار » ، وظل يطارد نبوخذنصر حتى « شفي من أمراض الحياة كلها » أي مات ، وكم لأمين من تعابير جميلة كهذا !

أما أقصوصة « اكليل العار » فطريفة كأختها ، وتزيد عليها هذا السحر الناعم الذي يبدأ بالعنوان وينتهي بالختام . ان خواص القصة الأصيلة تتجمع في « اكليل العار » ، فهي متشابكة الحوادث بلا تعقيد ولا كلفة ، يصور فيها الشخوص تصويراً ممتعاً ، فيرينا حركات أناس كثيراً ما نراهـا ، فنكاد نقول : هذا فلان ! وان كان لي شيء يقال هنا فهو ان المؤلف قطع كل صلة بين بطل قصة « اكليل العار » ومعشوقته الاولى ، فزحلت عن عتب الطريق تاركة توفيق زيدون يمضي بسلام . ولكن هذا طبيعي لأنه يحدث في مجاري الحياة العامة .

أما أقصوصة « بقضاء وقدر » فليست كأخواتها ، ولهذا أقسم سجل التوبة ثلاث طبقات : الأولى نبوخذنصر ، وعبد الحميد ، واكليل العار ، والثانية شريف افندي ، والاخيرة ، وهي أخيرة حقاً ، قصة « بقضاء وقدر » ، ولعل الامين قد كتبها بعد المنفى فلمّح ولم يصرح .

ان فيلسوف الفريكة لم يكن مقلاً كجبران ، ولا متنوّقاً مثله ، ولهذا تجد في كلامه الرائع والعادي ، فهو في نثره كخليل مطران في شعره ، دنيا من الفن والفكر فيها القمم والشماريخ ، والأودية والكهوف والهُوَى .

كان على الواقفين على طبع سجل التوبة ان يصححوا بعض تعابير مثل: «فاذا بتوفيق زيدون واقفاً هناك» ، فهي واقف لا واقفاً . ومثل : « كونوا اخواناً فتثرون وتسعدون » ومثل : واليك الاجرة ، وان كان الكثير من الكتّاب يستعملونها بمعنى خذ . ثم قوله : بخمر أرمني معتق . وتلصصني .

ان التعبير الصحيح شيخ السفرة في المآدب القلمية ، ولكن شيئاً آخر يسد سده عند امين الا وهو تلك العبارات الشخصية الطريفة التي يرسلها الريحاني هنا وهناك فتنعش وتحيي الكلام . ان خلق مثـــل هذه الروائع لا يستطيعه الا عبقري كالريحاني ، أما تصحيح ما ذكرت فيستطاع كل حين ، ولكن تصحيحه ضروري لأنه كالكلف في الوجه الجميل .

رحم الله الريحاني الأبيّ ، سفـــير العروبة المسخّر يوم لم تكن السفراء ، فعرف العالم بنا . لقد أعطى امين وأخذ ، وحلاوة الدنيا كلها الأخذ والعطاء ، شرط ان يكون ما يؤخذ ويعطى حلالاً زلالاً ...

ابو الهول وفنيانوس

لشكري الخوري

الاستاذ شكري الخوري مجاهد لبناني، بل هو شيخ المجاهدين في البرازيل. خدم وطنه بجريدته « ابو الهول » فجعل اللبناني يفكر بالوطن الأم كلما وقعت عينه على « الحرف » الذي كتب به جدوده معبرين عن أفكارهم .

كان علينا ان نتحدث عن عدد « ابو الهول التاريخي » فور صدوره ، لان صاحبه الجليل أخرجه تاريخاً للهجرة اللبنانية الثانية ، بعد مرور عشرات القرون على الهجرة الاولى التي خططت المدن والعواصم عبر البحر المتوسط. أجل بذاك يقضي علينا عرفان الجميل والاقرار بفضل الجهاد المثمر ، ولكن جاء من الطبل ما أسكت الزمر ، فنمنا عنه حتى الآن .

وبعد، فلسنا ننقد أثراً أدبياً لنؤجله شهوراً ، كما جرت العادة، ولهذا نقدمه على ما عندنا من دواوين وقصص ، وآثار أدبية مختلفة . لسنا نعني بهذا ان «عدد ابو الهول التاريخي » ليس بالكتاب الأدبي ، ففي هذا الكتاب الطويل العريض كثير من الآثار الادبية كالمقالات ، والقصائد ، والملح ، وحسبه ان يشتمل على قصة « فنيانوس » الخالدة ليكون كتاباً أي كتاب . فهي قصة فريدة ، بل هي أمّ الباب ، كما يعبّر أصحابنا النحاة ، بل هي بكر الطباعة العربية في البرازيل، أندلس اليوم .

القصة مكتوبة باللغة العامية ولكن اشخاصها أحياء حقاً ، تقرأها فتخال انك تحادثهم وتؤاكلهم وتشاربهم ، وبكلمة طريفة ينقلك شكري الخوري الى المحيط الذي يصوره لك فتظن انك فيه ، وانك لا تقرأ فقط بل تسمع وتنظر ايضاً ، وهذا هو الروائي ، وليكتب بأية لهجة شاء .

ما احلى اعتراف ام سكحا عمة فنيانوس ، بطل القصة ! وما أروع حمله لها حين قصّرت على طريق مار عبدا المشمّر، ورحم الله الياس الفرّان الشاعر العامي الذي قال مرة لزوار هذا القديس العظيم ، رزقنا الله شفاعته :

ان كان مـــار عبدا مشمّر   داعيكم من غـــير شنتان

قد لا يكون شكري الخوري من رؤوس النحاة وعلماء اللغة ، ولكنه دون شك ذو حظ كبير من الفن الذي ننشده ، وهو ممن يكتبون بالقلب واللسان . يتوخى الابداع فيبدع ، وله أسلوب شخصي ظريف خفيف. تقرأ الفصيح منه في هذا العدد التاريخي تحت عنوان « كيف تأسست الصحافة العربية في الارجنتين » وشكري هو مؤسسها . وتقرأ العامي تحت عنوان : « فاكهة جديدة » فتبدو صورة ناطقة لمجتمع لبناني في دار الغربة . وفي المقالين تبدو لك شخصية شكري الخوري من بين السطور ، مثل المليح يطل من شباك ، فتتضاءل أمامك أشباح كثيرة ممن هم عند انفسهم فحول الفصحاء .

قد تعجب لهذا التقريظ لرواية فنيانوس ولما يكتبه شكري الخوري، ولكن عجبك يزول حين تعلم ان رواية فنيانوس تدرس في المدارس العليا الاوروبية للمتشرقين . ليس عندي ما يقال في هذه القصة إلا ان ملكة الكاتب زجت عبارتين فصيحتين في غير محيطها . الاولى : يقوض الممالك ويثـــل العروش ، والثانية : ولكن أيديهم مغلولة .

وتطالع عدد ابو الهول التاريخي فتعرف جهود الرجل التي ينفقها فيما يجدي وينفع . فشكري الخوري فعّال أكثر من قوال . ترى على جبين هذا الكتاب صورة الأرز بألوانها ، وشكري ثابت في عقيدته كالأرز، وفي صبره كأبي الهول، وفي عزمه كنسور لبنان .

لا أحصي آثاره فأعددها ، انها لكثيرة ، ولكني أقول اني سمعت منذ نشأتي بزعيمين لبنانيين يتحدث عنهما كل مهاجر ، ويرى فيهما نصيراً وملجأ في الشدة : نعوم المكرزل في الولايات المتحدة ، وشكري الخوري في البرازيل .

وتلي صورة الارز صورة ابتداعية رائعة تدل على بلاغة شكري وذوقه ، وتغني عن الف مجلد ضخم ، ففي شطر منها يرينا اللبناني أول فتحه البرازيل ،

يحمل بضاعته على ظهره ، والتاجر الكبير من اللبنانيين من يقني أو يستكري حماراً . . . وفي الثاني كيف اصبح يسكن القصور الشاهقة وفي ساحتها السيارات الطريفة . وقد عرفنا بهذه الصورة إذ كتب تحتها : كيف كنا وكيف صرنا . وتمضي في الكتاب فتقرأ تاريخ الهجرة المجيد ، الذي أصدره الاستاذ شكري الخوري في البلايا والمحن، تمجيداً لأمته ، فتأخذك هزة الكبرياء ، ويستولي عليك عنفوان الفخر . ولا ينتصف الكتاب حتى ترى صور المعامل اللبنانية فتخال انك تطل على مصانع «سنت اتيان» ،وناطحات السحاب،وتزداد دهشة حين يريك شكري الخوري عمال هذه المعامل بالارقام فاذا هي ألوف مؤلفة .

ان من يقرأ هذا الكتاب يتعالى أمام أسمى أمم الارض ، فما أوفى شكري الخوري ، وأعظم خدماته التي يؤديها كل عام لهذا الوطن فيرفع قدره . وانما يتمجد الوطن بابنائه البررة الخيرين .

واليك الآن كلمة خالدة قالها شكري منذ نصف قرن في اللبناني،وقد نظمها حافظ ابراهيم شعراً ، فجاءت صورة رائعة : « والله ، ثم والله ، لو كان للقمر طريق لكنت ترى لبنانياً حاملاً كشته وصاعداً اليه ، وترى لبنانياً آخر قد شكّ دواته في زناره وسار لينشيء فيه جريدة أو مدرسة » .

صدقت يا استاذ ، وكتابك هذا بمقام الف شاهد ، فحيا الله شعباً صغيراً ناهضاً زرع لغته في تربة العالم أجمع ، وليس في الارض من يسأل عنه ، بينما مدارس رعايا الدول الاجنبية تتقاضاها الملايين ولا تفعل بعض ما فعله اللبناني .

ان عدد ابو الهول التاريخي نشيد العصامية اللبنانية الصامت ، وفي كل سطر منه عزيمة تلقي درساً على الدنيا . جزى الله خيراً هذا السبّاق لكل مأثرة عبقرية . وخير كلمة أختتم بها كلامي عن شكري الخوري هي ما قاله لي أحد أنسبائي المهاجرين : شكري الخوري لبنان في البرازيل .

ان من كان هكذا ليستحق شكر لبنان سبع مرات،فاذا كان لدى حكومتنا مرة تغني عن سبع فلتفعل ، وهذا أقل شيء يستحقه هذا المجاهد القائد البطل.

فلئن غنّى بنو اسرائيل مزاميرهم باكين في سبي بابل ، فنحن نسمع من وراء البحار أهازيج المجد،ونفخر بأن جاليتنا شيدت حيث حلّت مجداً عظيماً كلبنان.

الوعي القومي

للدكتور زريق

الجامعة الاميركية وقوميتنا

كما يرث الفتى عن أسرته غرائز شتى كذلك يرث عن مدرسته أشباه الغرائز فالمدرسة الرشيدة صيقل يجلو العقول المرهفة ، وأم تدرّب بنيها وتسيّرهم في اتجاهات عند غايتها الخير للفرد والمجموع .

يذكرنا الدكتور قسطنطين زريق بالبلد الطيب الذي أخرج نباته باذن ربه ، فهو ابن محيط أنبت ديك الجن في القدماء ، وكرامه والجندي في فجر نهضتنا. فالدكتور إذن عريق النسب في دنيا العلم. لست أقول دنيا الادب لان قسطنطين كما يشتم من كتابه «الوعي القومي» راغب عن هذه الاسرة الثرثارة ، وان كان منها في الصميم أسلوباً وتعبيراً .. ففي كتابه هذا بروق أدبية ورعود بيانية لا بد لنا في نهاية هذا المقال من ان نضع أصبع الدكتور عليها ليؤمن توما انه يجري في تيار الأدب الجارف من حيث لا يدري .

قلنا ان للمدرسة الأثر الثاني بل الثالث في تكوين الشخصية ، والجامعة الاميركية بيت العلم العتيق في ربوعنا ، يحج اليه المؤمنون بالثقافة ومعجزاتها . كانت هذه المؤسسة ولا تزال منبتاً للرجال ، ومزرعة تغرس فيها فسائل العقول الحرة ، فتصبح الحبة شجرة انجيلية تأوي طيور السماء الى اغصانها . وقد أجاد الدكتور فياض حين أشار الى هذا المعهد الرفيع العماد بقوله :

هذي منارة رأس بيروت وذا علم الهدى

يغتبط المرء وتستولي عليه عاطفة الاكبار والاجلال حين تقع عينه على تلك المدينة العلمية المنتثرة بيوتها على رأس بيروت كأنها الجنائن المعلقة . ولا عجب ان رأينا كتاب « الوعي القومي » يطل علينا من بوابتها فهي منذ ست وسبعين سنة تتاجر بهذه الوزنات ... فالى ربيبة فنديك المستعرب أصدق التحيات وأطيب التمنيات ، والى روح فنديك الذي أحب العرب ولغة العرب أسمى الاحترام وأبلغ التقدير بمناسبة مرور قرن كامل على مجيئه الينا – ١٨٤٨ – .

تمشرق الدكتور فنديك قلباً وقالباً حتى اذا نظرت الى رسمه المشهور تخالك بحضرة شيخ من بني تميم ، لا اميركي صميم . فالغرسة الاولى في حقل القومية العربية منشأها الجامعة الاميركية وبستانيها فنديك . والجامعة أول معهد شرقي غربي اعتمد التأليف العلمي في لغة العرب ، ودرّس الطب وما يتبعه من فروع علمية باللسان العربي المبين . ولا تزال طبعاتها العلمية القديمة في كل فن تحدث الناس بفضلها . وقد ضمت الى تليدها ذاك طارفاً مجيداً أعني « سلسلة العلوم الشرقية » وقد أربت حلقاتها على الاثنتي عشرة ، لصاحب الوعي القومي خمس منها : تاريخ ابن الفرات ٣ اجزاء ، وامراء غسان ، واليزيدية قديماً وحديثاً .

فالجامعة ، ولا شك ، هي اول مدرسة أجنبية عنيت بشؤون العرب وثقفت شبابهم ثقافة حرة متينة أقرب الى قوميتهم منها الى جنسيتها . وهؤلاء تلامذتها هم دعائم الثقافة الحرة في جميع الاقطار . واذا عدنا الى الماضي رأينا ان من بين حيطانها قد خرج ذلك الديك الفصيح الشاعر الياس صالح ، ومن على منبرها صالح في عهد الظلمة والاستبداد – ١٨٨٨ – .

لست عبداً أنا ولا أنت مولى   أيها اللابس الحلى الذهبية

ثم سمعنا بعده الشاعر الآخر سليم عازر يمثل لنا مبادىء أمه وتربيتها بقوله :

لا خير فيمن ليس ذا ثقة   من نفسه اسمعت يا نفسي ؟

كل هذه بذور صالحة ألقتها الجامعة الاميركية في حقل قوميتنا فحنت عليها راية النجوم تقيها لفحة الرمضاء . لا أستطيع ان أفتش عنها كلها في هذا المقال ولكنني أقول ان خواص هذه الذرية الطيبة تجمعت اليوم وتكتّلت في كتاب

« الوعي القومي » الذي أخرجه الى العالم العربي استاذ ـ لا نغالي اذا قلنا انه نموذج الشباب الراقي ـ .

فكتابه هذا وليد بضع عشرات سنين تناوبت على الجامعة الاميركية في أطوارها العديدة ، من مدرسة تبشيرية ، الى كلية انجيلية ، الى جامعة اميركية ، وحسبها بهذا الاسم شرفاً ومجداً . فهو إذن عصارة فكرة موجات متعددة حبلت بها الأذهان فأنتجها الدكتور زريق سفراً جليلاً ألقى بها الى العالم العربي في نهزة موافقة ، فاستقبله بالحفاوة التي تليق به كما تستقبل كل رسالة سامية . فنحن اليوم أحوج الى الوعي القومي من كل شيء لأننا أمة بلا وعي . أو قل وعينا قليل جداً ، فاتحادنا نشأ عن فتوحات جبرية ألّفت مجموعنا الموقت ، فكان سريع الانحلال لأنه لم يكتسب الروح القومية .

قد تظنني استحلت بين ليلة وضحاها عالماً اجتماعياً ، لا يا مولاي ، فما انا منهم . هذا رأي لغوستاف ليبون في تكوّن الجماعات فحذار ان تنسبه لي . واسمح لي بالعود الى موضوعي لأقول بلا تحفظ : ان الجامعة الاميركية كانت أول موقظ للوعي القومي وما برحت . والوعي القومي لا يكون في ناحية واحدة من نواحي الثقافة ، وهذه النواحي كلها أبرزها للعالم تلامذة الجامعة الاميركية من الشميّل الى صروف ونمر وزيدان وغيرهم . فبارك الله في قسطنطين الذي فتح لنا هذه البوابة انطل منها على مدينة العلم ، ونعرف الناس ، وهم يعرفون ، باسماء رجالها الذين كانوا قدوة حسنة ، والقدوة كبيرة معلمي الوعي القومي .

لا أظن ان مدرسة أخرى من مدارسنا أجنبية ووطنية عنيت بالتاريخ عناية الجامعة الاميركية به . فله فيها اساتذة اختصاصيون لا عمل لهم إلا درس تاريخنا والتأليف فيه ، لا نذكر لك إلا واحداً منهم هو الدكتور رستم الذي يستحق لقب الاستاذ في هذا الفن لتأليفه بل لاستنباطه كتابه الرائع « مصطلح التاريخ » الذي نحدثك عنه فيما بعد . أما الآن فنحن مع الدكتور زريق زميل رستم اليوم في تعليم التاريخ وتلميذه الأنبه أمس ما جرني الى ذكر التاريخ إلا كتاب الوعي القومي الذي لا يستطيع ان يصدره على حقه غير استاذ في التاريخ ، وأستاذ مفكر

كقسطنطين . فلدرس التاريخ ابعد أثر في تكوين الأمم والشعوب ، وفي تعلمه وتعليمه عبر وفوائد وتقويم اعوجاج وسد خلل... هذا اذا كان مدرّسه كحتّي ورستم وزريق فلا يعتمدون على الرواية والنقل : « حيث يلتقي البطلان كأنهما جبلان ويتنازل الفرسان اثنين اثنين ويحوم على رؤوسهم غراب البين » .

فمدرس التاريخ النبيه لا بد له من ان ينتهي الى فلسفة اجتماعية كما انتهى الدكتور زريق في « الوعي القومي » .

« الوعي القومي » كتاب أخرجته «دار المكشوف» فيما أخرجت من طرف ونفائس ، فرحب به العالم العربي فنفدت طبعته الاولى فور صدوره وأعيد طبعه بعد بضعة اشهر وأظنه نفد ايضاً .

ان للكلمات حياة وموتاً . فكلمة الوعي واللاوعي قلقة مرحة ،وهي تسيل اليوم على اقلامنا كوثراً عذباً. رحم الله اسقف نجران القائل : ايها الناس اسمعوا وعوا » ... وبعد أجيال تترى تخلع هذه الكلمة اكفانها وتنبعث فنحبّها ونعشقها . كثيراً ما أسمع الناس يقولون هذا حكي بلا وعي ، وكأني بقسطنطين قد رأى هذه الأمة تحكي بلا وعي فانبرى يعلمها كيف يجب ان تعتمد على عقلها الواعي فلا تسقط من على الجدران حيث تمشي بلا وعي .

فلندع هذا الى الفصل الآتي ، أما الآن فلننظر في صيغة الكتاب الفنية :

الكتاب كالرجل يستدل بصورته الخارجية على خفايا نفسه ومطاويها ،وكتاب «الوعي القومي» إن لم يكن أثراً فنياً بالقصد فهو أثر فني برغم صاحبه الذي لم يرده كذلك . وهذا الاستاذ على ثقافته الغربية العميقة ، وعلى تخرجه من جامعات أجنبية يلوح لي من أسلوبه في الوعي القومي انه ليس من رعايا الأجانب في أدبه وبيانه ، ولا يدفع الجزية لأميركا ولا للندن ، بل هو عربي تفكيراً وتعبيراً ، أي انه غير مديون بشيء ، تقريباً ، للغة التي توسل بها الى احراز درجاته العلمية الرفيعة . ولا خوف علي إن ذهبت الى أبعد من ذلك وقلت : انه غير مديون إلا بمقدار للتعابير العربية المعروفة ، ولا لتلك القوالب المألوفة ، فكثيراً ما أراه يتخلص منها مع انها في متناوله اذا شاء ، ولكنه يؤثر ان يعبر كما يحكي ونعم

العمل عمله ، فقد أراحنا من تلك الصور الهرمة الكزّة .

يثور قسطنطين إذ يرى محصولنا الأدبي يطغى على أسواقنا ، فيواجه التيار ليصده ،ولكن عبقريته الأدبية ترفع رأسها عندما يضطرم وجدان صاحبها فيتفجر حديثه تفجيراً فنياً ليس في التعبير فقط ، بل في الاخراج ايضاً ، وهاك المثل :

«في موقع ممتاز من الكرة الارضية ، وعلى ملتقى الطرق بين الشرق والغرب ، وفي وسط مجاري الثقافة والمدنية ، تحيا أمة قد تشربت عصارة ماضيها ،وتقبلت وحي تاريخها وأدركت كنه حاضرها ، وعرفت جوهر العالم الذي فيها والذي حولها ، وتطلعت الى مستقبلها بنظر ممدود ابداً الى الامام ، وقوة مستمدة من هدف منصوب وخطة مرسومة . أمة قد نالت الاستقلال فعرفت معنى الاستقلال واحرزت الوحدة فأدركت معنى غاية الوحدة . أمة قد اخترقتها أشعة الحرية فلم تقف عند المادة والجد ، بل أضاءت العقول وأثارت الارواح . أمة قد علمت ان السيادة الحقة هي سيادتها على نفسها الصادرة عن فهمها سبب وجودها وماهية كيانها . أمة قد امتلأت قلوب افرادها بايمان كل حبة منه تنقل الجبال ، وعلى جبين رجالها ونسائها ضياء كل قبس منه يهدي الأجيال . أمة يكفينا في وصفها ان نقول : قد سرى في نفسها الوعي القومي الكامل . هذا ما نريد الأمة العربية ان تكون . بل هذا ما سوف تكون » (الوعي القومي ص٥٩) .

واليك نموذجاً آخر ، وما أكثرها في الوعي القومي ، فعند كل طغيان وجداني يقف الدكتور هذه المواقف الجياشة ، يهيب بأمته لتستيقظ :

« هذا الارتباط الوثيق بمثل أعلى ، هـــذه القوة التي تؤلف مدارك النفس ومشاعرها وتوجهها جميعاً الى غاية واحدة ، وتصهر كل ما ينبعث فيها من أهواء ورغبات في بوتقة الرغبة الوحيدة الكاملة التي لا تتبدل ولا تتزعزع ، هذه هي : العقيدة . أرأيت رجلاً يزدري ميوله الشخصية وأهواءه الفردية في سبيل ما يعتقد انه الحق ؟ أسمعت برجل يضحي بماله وراحته ـ بل بحياته ـ لنشر لواء الحرية والعدل ، أأدهشك شخص يحتقر جميع نعم الدنيا للعمل في خدمة بلاده ونهضة أمته ؟ هذا وذاك ، وذلك ، هم رجال العقيدة . هم قومة الله على أرضه وأوصياؤه

على شعبه . هم قبس النور العلوي يشع على النـــاس لينير الظلمات التي تكتنفهم ويهديهم سواء السبيل » (ص ٢٣٦) .

هذه شذرة من فصل « أزمة الروح » التي يبلغ فيها قسطنطين ذروة عاليـة جداً من ذرى الاخلاص ، وأخال وجدانه فيها وجدان نبي . فرّج الله أزمتنا وأزمتك يا قسطنطين .

ومع أن الدكتور هو أخو البيان الرائع الذي رأيته يقول في (ص ٤٩) أحد فصول كتابة : « وإن كنت أخشى شيئاً فهو هذا الطغيـان الأدبي الذي يسود حياتنا العقلية » .

أما أنا فأقول : كان الوعي القومي عندنا قصائد حماسية نطحن بها العـــالم طحناً .. ! ! فصار مع قسطنطين حكمة رائعة ، وفلسفة مطمئنة ،وثورة هادئة جارفة كنهر العاصي الذي أثر في ربيبه فطبعه بهذا الطابع الرصين . وكيفما دارت الحال بكتابه « الوعي القومي » فهو أثر أدبي رفيـع يبحث في الاجتماع . وان نعى قسطنطين على قومه تفكيرهم المفكك المتقطع ، فهو في أثره هـذا لا يعدو ان يكون أديباً أصيلاً ، ولكن « تفكيره منظم » .

فالدكتور زريق أديب رغماً عنه ، كطبيب موليير وشتان ما بين اليزيدين في الندى ...

- ٢ -

أديل العرب من الفرس وانطفأت النـــار من ايوانهم فاستعربوا مكرهين . وأول ما عملوه في عهد عروبتهم تأريخ أيامهم وأمجادهم ليفاخروا بها أسيادهم العرب . ثم انتفض شاعرهم « الجاموس » يخور على شط العرب :

ألا أيها السائلي ، جاهـداً ، ليعرفني ، أنا أنف الكـرم
نمتْ في الكرام بني عامـر فروعي ،وأصلي قريش العجم

ثم انتفج في مقام آخر فاسمعنا :

وربّ ذي تاج كريم الجد كآل كسرى وكآل برد

هذا أول « وعي قومي » تنبه في ذلك الفرد فسرت العدوى الى الجماعة . ثم أسمعنا شاعر آخر :

ومن تميم ، ومن قيس ولفهما   ليس الاعاريب عند الله من أحد

وهكذا استحال وعي الشعوبية عثاً يأكل حواشي البساط العربي ، ثم ما انفك يقرضه حتى أتى عليه كله . لم ينفعنا الفتك بأبي مسلم ، ولا استئصال البرامكة ، ولا القضاء على ابن سهل ، لأن وعي تلك الدول المقهورة استيقظ بعد الكبت ، ففكك عرى ملك العرب وتفتق بجادهم .

ان التاريخ معلم الشعوب ومن هذه الزاوية يطل الدكتور زريق على الوعي القومي ، فهو أستاذ التاريخ لحقبة في تاريخ الشرق كانت أشد الازم . فكأن كل ما كتبه وأذاعه هذا الأستاذ من تاريخ ابن الفرات الى تلك النبذة الطيبة « أمراء غسان» حتى كتاب اليزيدية ،رسالة نبيلة هدفها بعث روح القومية فينا ،وتوجيهها في الطريق الأسد ، وتكوينها تكويناً علمياً بحيث تنطبق النتائج على المقدمات.

يرى الدكتور « اننا لا نزال مقصرين في حق الرسالة الفكرية واننا لم نتعود بعد ان نغذي عملنا الفكري بدم القلب وعصارة الروح» (ص٨) . وبكل اتضاع واتزان يعدُّ كتابه هذا « فصولاً متفرقة لا تستوعب جميع المسائل الأساسية التي تتصل بهذا الموضوع الخطير» (ص١٠). وككل امين من أفراد هذه الأمة آلمه ما رأى « من تشتت في الآراء والفكر ، ومن تصادم في النزعات والاهواء: «فكل منا يسير في وجهة ، وكل يتكلم بلسان ، وليس لنا موقف ثابت او رأي موحد إزاء هذا الاضطراب الهائل الذي يثور في العالم» (ص١٢) . وعنده: «ان حياتنا كلها تتوقف على ما نصيب من رأي جامـع ، وفكرة قوية واضحة لا تبقى في أذهاننا فحسب ، بل تتعمق الى صميم نفوسنا» (ص١٣). وآفتنا: «ان حظنا من الثقافة لا يزال في غاية الضآلة(ص١٤) فنحن في أزمتين اقتصادية وثقافية».ونحن أشد حاجة الى « وجوب الاسراع في معالجة مشكلتنا القومية ، والانصباب على البحث المنظم في مسائل حياتنا الأساسية لنصل بها الى العقيدة الموحدة الواضحة التي عليها ــ وعليها وحدها ــ يقام العمل المنظم لبناء الأمة وانهاض البلاد» (ص١٥).

فكل ما ينشده الدكتور في الوعي القومي هو العقيدة ، ويرى في العقيدة ، اللهم الصادقة ، كل خير وبركة لهذه الأمة .

وما هذه العقيدة يا ترى ؟ اني أرى اسم «الهدف» ألبق بها فتكون أقرب الى افهامنا جميعاً ، ثم لا تلتبس بغيرها ...

هذا ما يعنيه الدكتور ، وآفتنا نحن العرب ، ان لكل معشر منها هدفاً ، ومتى تعددت الأهداف تفرقت القوى المنصبة عليها فلا يدرك واحد منها،وهذا بلاؤنا الأكبر .

ولخص المؤلف،في مقدمة الطبعة الأولى،أركان كتابه، فاذا هي هذا المثلث: الفلسفة القومية ، والعقيدة القومية ، والتنظيم . وقد حدّده بقوله : « وانما هي نظرات القيتها على حياتنا القومية، ثم لمتها وجمعتها بين دفتي كتاب »(ص٢٧).

انها لكذلك ، ولكنها نظرات نافذة لا تقصر عن أشعة اكس إلا قليلاً ... فمن هذه المقالة وتلك وهاتيك تتألف وحدة تامة ، فتداعي المعاني وتسلسلها وترابطها يؤهل مقالاته هذه لتحمل بكل جدارة اسم كتاب ، بل قل« كتاب الأمة » لمن يقرأ ويعي . ففيها «التفكير المنظم» والتناسق اللذان هما ضالة أديبنا المفكر التي ينشدها لأمته، ليستقيم وعيها القومي الذي هو : «فهم صحيح لماضي الأمة التي تحدرت منه شخصيتها ، وتقدير متزن لقوى الحاضر وعوامله، وايمان متين بهدف الغد ورسالة المستقبل » (ص ٥٦) .

ويصور الدكتور رسالتنا الماضية الكبرى،ثم يعتقد أن ستكون مثلها رسالة العرب المستقبلة،أي : «أن يتشربوا علم الغرب ويجمعوا اليه العناصر المختلفة التي تنشأ في الغرب والشرق كرد فعل له ، ويؤلفوا بينها كلها في وحدة جديدة تكون عنوان الحياة المقبلة ويفيض بها العرب على العالم كما فاضوا عليه بمدنيتهم الباهرة في القرون الماضية » (ص ٥٥) .

قلت : وبالله نستعين ، قد عودنا جلّ جلاله ان يكون معنا ، فلنسأله ، كروزفلت ، ظهراً قوياً . غير أنني أميل الى كلمة الأستاذ التي تليها وهي : « فحسبنا ان نعتقد ان لنا رسالة ما» (ص ٥٥) .

ولا يحصر المؤلف ايقاظ الوعي القومي بفئة دون أُخرى ، فليس هو من اختصاص قادة السياسة وأرباب الحكم فمجال العمل مفتوح لكل فرد، وبخاصة

المرأة . ولكن الدكتور يقف عند باب خدر المرأة العربية ولا يدخله تأدباً ... فيبحث تقصيرها في هذا الحقل بكل تؤدة ، كأنه يخاف ان تفلت منه كلمة ، فلا يلتام ما جرح اللسان ..

ذكرني وقوفي عند فصل « المرأة العربية في الحياة القومية » بصديقي ا. ل. أراد أن يكتب تاريخ الدولة العثمانيـــة . قلت له : وكيف تتخلص يا بك من انكساراتها ومن ومن ... فقال سأجعل عنوان تاريخي : انتصارات الدولة ، ثم فعل ، ولكن خاتمة الحرب الاولى خنقت ذلك الطفل في المهد .

وعالج الدكتور «التربية القومية» فأبدى آراء طيبة لا تستقيم لنا قومية بدونها وانحى على التربية الطائفية ، ذلك البرص الذي لا برء منه ، معتمداً على قول شارل مريام الذي يرى التربية القومية أجلّ أعمال القادة والعلماء الذين يبنون أمم المستقبل.

وبحث الدكتور موضوع «القومية والجنس» بحثاً علمياً يكاد يكون بكتريولوجياً ، فأظهر ان العرب والفينيقيين هم سلالة واحدة . وقد جعل « على هامش الدعوة الفينيقية في لبنان » عنواناً صغيراً لمقاله هذا. فعجبت جداً لاهتمام الدكتور بما لا يدرك ، ودهشت لخصه لبنان العربي بهذه الدعوة التي حلم بها نفر يزمرون للجالس سعيداً ، ويكسرون الجرة خلف المولـّي ... فأين هم دعاة الفينيقية في لبنان ؟ وهل للفينيقية عندنا من أثر إلا في شعر من تغزلوا بالزهرة وأدونيس كما فعـــل شكسبير ولافونتين قبلهم ؟ واذا كان فينا نفر ممن غنوا هذا «الموّال» أيعني هذا ان لبنان يتخلى عن عروبته ، وله فيها ذلك المقام المرموق والتراث الذي يفاخر به كل ناطق بالضاد؟ ان نظر بعضنا الى ماضي فينيقية فكمن ينظر الى قلعة قديمة في قريته ، ولكن داره التي يعيش فيها هي غير تلك . ولماذا اختار الدكتور فينيقية لبنان ولم يذكر فرعونية مصر ، مع ان لتلك أنصاراً أعظم خطراً . ان المتفينقين منا لا يفهمون ما الدم ، ولا الجنس ، ولا الرأس المستطيل والمدور والمسطح والمقعر . هم فينا كأولئك الذين لا يسمون الرجل عربياً إلا اذا استوعب جميع المقومات التي يفرضونها . أما اذا كان قد استعرب منذ الف سنة ولم تجتمع فيه شروطهم فهو غير عربي . مع ان النبي العظيم الذي هو مجدنا وفخرنا من العرب

المستعربة ... فهؤلاء وأولئك عندي هم الذين جنوا ويجنون على قوميتنا .

ان من يقيم في اميركا خمس سنين يتأمرك ويصير منتخِباً ومنتخَباً، أما عندنا فيظل غير عربي الى ما شاء الله . وهذه جناية كبرى نرتكبها ونحسب اننا لم نأتِ أمراً فرياً . وهذا التفريق الذي رافق العقلية منذ عهد بني أمية هو الذي فسخ جسم هذه الأمة . والعرب والمستعربون ـ لا المتفينقون ـ يعرفون ان كلمة الشعوبية كانت أول شقّ في جدار الأمة العربية . فبعض العرب هم الذين دانوا بهذه الفكرة فأثموا وجنوا، في حين ان الدين سوّى بين الجميع . وهم لو ضحكوا على ذقون المستعمرين لضموهم اليهم راضين . فما كان ضرهم لو خلعوا عليهم العروبة واجتذبوهم الى صفوفهم ؟

ان ما بنته الأجيال لا نستطيع نحن ان نهدمـــه . فالعربي ، ـ وكلنا ذاك الرجل ـ يعتقد ان دمه صنع خصيصاً له دون سواه من البشر . اسمع كلام الجاحظ: « وأشد سرفـــاً منه قول ابي بكر الشيباني قال : كنت أسيراً مع بني عم لي من بني شيبان ـ وفينا من موالينا جماعـــة ـ في أيدي التغالبة . فضربوا أعناق بني عمي وأعنـــاق الموالي على وهدة من الارض فكنت ، والذي لا اله إلا هو ، أرى دم العربي ينماز من دم الموالي حتى أرى بياض الأرض بينهما . فاذا كان هجيناً قام فوقه ولم يعتزل » (كتاب العصا ص ٣٠) .

الى أمثال هذا فلتسدَّ النصائح . فاللبناني يفاخر بلغته وقد حملها الى هجرته العالمية وأذاعها في جميع بلاد الله . ونحن ، بعد ، غير مسؤولين عن البدع .

ويتمشى الدكتور فيعرج على «العمل القومي والمشاريع الاجتماعية» فيحدثنا عن مشروع انعاش القرى الذي نهض باعبائه فريق من شباب الجامعة الاميركية المثقف ، فوبط بين الشباب والناس على اختلاف الملل والنحل . وينتقل الى القومية العربية والدين ، فالى التراث الثقافي العربي ، وما يجب علينا لحفظه واحيائه ، ويحث الناس على حفظ المخطوطات القديمة ، ولكن بعد ذهاب الوقت وتسربها الى مكاتب العالم هنا وهناك ، فكل ما كان في ديورتنا اصبح في غير حوزتنا ، حتى حجارة كنائسنا الأثرية وعتبات ابوابها التاريخية سلخت من بنيانها منذ عشرات السنين .

وفي «احياء ثقافتنا» يحث الاستاذ أدباءنا الملهمين « لينقلوها الى أبناء العربية بلغة هذا العصر وأسلوبه وطريقة تفكيره » وهذا في نظري تمويت لا إحياء . كما فعلت فئة من أدباء مصر وغيرهم فسلخوا ومسخوا وشوهوا .

وفي فصل «ضآلة ثقافتنا العلمية» يرى الاستاذ، ورأيه حق، ان ثقافتنا العلمية ضئيلة، ويهيب بنا لنقبل عليها . ولكني ألتفت فأرى سلسلة العلوم الشرقية التي أصدرتها الجامعة الاميركية أكثرها أدبي . وعلى الضد كان الأمر في عهد فنديك أي في فجر حياة الجامعة عندنا . وما حدثت تلك الثورة الشهيرة وانتهت بتخلي فنديك عن منصبه إلا لهذا السبب . أما اقبالنا على الادب وأكلنا منه حتى البشم فكما وصفه الدكتور ، وهذا بعض ما قال :

«فلا يكاد يخرج الطالب الأدبي من مدرسته حتى يهرع الى الصحف والمجلات يتحفها ببنات أفكاره الفجّة ، فتنشرها له هذه المجلات وتزيد بذلك غروره ، وغرور أمثاله من الذين يعتقدون ان الادب مطية سهلة ، وان مجال البحث متسع لمن شاء ، هذا مع ان الابحاث الادبية هي في الحق أشد دقة ويجب ان تكون أبعد منالاً من الابحاث العلمية » (راجع الكتاب ص ١٦٧) .

وينتقل بنا الأستاذ الى فصل «الأدب التوجيهي وحاجتنا اليه »وقد ظن بعض من نظروا في كتاب «الوعي القومي» ان الادب التوجيهي شيء لم يكن من قبل، مع ان أسلافنا في أواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن كانت كتاباتهم من هذا النوع ـ أدب المقالات ـ ولم يسموها بهذا الاسم .

ألا يشبه هذا ذاك الشامي ـ بلغة المصريين ـ الذي قرأ في بيان مطعم بالقاهرة: بطاطا بقميص النوم ، فأعجبه الاسم ، أما المسمّى فكان مأكوله اليومي : بطاطا مسلوقة .

غير أن قسطنطين يريد، وهذا شعاره في الوعي القومي، ان تكون جميع أبحاث أدبنا التوجيهي عميقة منظمة ، وهذا ما ينقصنا في كل فن ومطلب ، وما أجمل قوله: «ان عصرنا عصر أزمة فكرية وضيق عقلي. وكما انه لا يسمح للناس في زمن الأزمة المالية ان يبذروا اموالهم في سبيل شهواتهم الخاصة ، وأمورهم التافهة ، كذلك

يجب ان لا يسمح لقادة الفكر في عصر الضيق العقلي والازمة الفكرية انيبددوا قواهم في المسائل الطفيفة والابحاث الجزئية » (ص ١٧٧) .

قلت وهذه « اعاشة » جديدة يفرضها الدكتـور في الفنون ، أراحنا الله من التقنين المادي والعقلي .

أما فصل «الثقافة الصحيحة وعناصرها» فجدير بأن نقرأه جميعاً ونتعلم منه درساً مفيداً . والدكتور يريد الثقافـــة للحق والخير والجمال ، ويتمثل بقول الغزالي : طلبنا العلم لغير الله ، فأبى ان يكون إلا لله .

وعلى ذكر الغزالي أقول انني لمحت في «الوعي القومي» عنصراً فلسفياً عربياً في التعبير كالاشراق والفيض وغير ذلك فلا غرو ان اراد الثقـافة للحق والخير ، فاخلاصه لما يكتب ويعلم يجيز لنا ان نلقبه برجل العقيدة . وحسبك ان تقرأ « أزمة الروح » لتعلم انك تجاه رجل العقيدة و « الجهاد الاكبر » المتقد ايمانـاً واخلاصاً وصدقاً حتى يبلغ في «القومية» ما بلغ الصوفيون في حب الله. فيقول: «والرجل الأمثل هو الذي يشمل عالمه الكون بأسره والبشر بكاملهم» (ص٢٢١) .

انا لا أفكر تفكيراً منظماً ولا فلسفياً ، ومع ذلك يجوز لي ان أقول ان هذا الشمول ينافي الوعي القومي ، ويحق لنا ان نسميه وعياً عالمياً . والدكتور في « أزمة الروح » طبيب روحاني يبنّج بالايحاء فلا تنتهي من قراءة مقاله هذا إلا وأنت بريء من جميع العاهات القومية ، والأمراض العارضة ، وقد رصّعه بكلمة رسول الأمم : ان كنت أتكلم بألسنة النـاس والملائكة ولكن ليس لي محبة فقد صرت نحاساً يطن او صنجاً يرن (٢٢٩) .

الكلام لبولس ولا أدري لماذا لم ينسبه الدكتور اليه بل قال : وقدماً قيل في الكتب . ومثل هذا فعل حين أخذ : تعرفون الحق والحق يحرركم .

اسمع قوله في ختام « أزمة الروح » :

« ما اكثر من ستعلو شفاههم ابتسامة الشك والهزء عند قراءتهم هذا الفصل ومتابعتهم حديث « الأزمة الروحية » لاعتقادهم ان معضلة أمتهم الكبرى هي المشكلة السياسية أو الأزمة الاقتصادية ، وان المادة هي أساس الحياة وان

الحديث عن النفس والروح ضرب من العبث او نوع من الهراء » (ص٢٣٠) .

لا والله ، ما يقول ذلك إلا السطحيون منا. فالمسيح ومحمد كانا فقيرين، وكل عباقرة العالم كذلك ، فقل ما شئت في «أزمة الروح». انما نحن بلاء أنفسنا لأننا ناس بلا محبة . الويل لكتابك يا أخي من الذين لا يقرأون ما بين السطور ، فما « أزمة الروح» فصلاً او مقالاً إن هي إلا « سفر » بمعناه المعروف في الكتاب المقدس .

وفي فصل « الجهاد الاكبر » تظهر لنا خصائص هذا الاديب الكبير المبنية على علم النفس وهو ايضاً فصل نفيس يبحث الاخلاق بحثاً جليلاً ، وان اراد الاستاذ فيه الرجل العربي كالساعة تؤدة بينا هو مخلوق كالعاصفة .

وبكلمة واحدة ان الدكتور زريق ينشد «التفكير المنظم» والتفكير المنظم قوام كتابه هذا . ولا أسرف ان قلت انه خير كتاب ينفع الأمة ولعله الحجر الاول في هذا البنيان ، وكيف لا يخرج أثر نفيس كهذا من بين يدي اديب مثقف وكاتب هادىء تجمعت في شخصيته الفذة قوى المنطق وعلم النفس والفلسفة ، فانتظم تفكيره واتسق ، وتساوت فيه قوى المرء الثلاث: العقل والوجدان والارادة.

ولئن طلب منا في «مقال ازمة الروح» ما طلبه يسوع فلا بأس عليه . ليت الأمم تعلم ، كما قال فولتير : ان هذه الفوارق التي لا تنظر لا يجب ان تكون سبب البغض والجور .

مُصطلح التّاريخ

لأسد رستم

منذ بضع عشرة سنة رأيت الدكتور اسد رستم اول مرة . كان ذلـــك في «عبرة» التي فوق صيدا ، وكانت شهرة رستم في أول هبوبها، فقلت عند التعارف تلك العبارة المبتذلة : أشهر من ان يعرف . فبادهني بقوله : ان سوريا مجوّفة . فذكرني الجاحظ والذي أجابه : هذا شعر لو نقر لطن . وكان حديث لم يخل من الملح البريئة .

هيكل رستم الركين ينم عن خصال مؤهـلة للتمحيص العنيف ، وفي حديثه نبرات كتلك التي يعبر بها المطرب عن فنه الرفيع . واذا كان النبوغ يحتاج الى صبر وجلد ، بله الذكاء وبعد النظر ، فقد أبدى رستم كل هذا فيما حقق ونشر من «اصول تاريخية». اما كتابه «مصطلح التاريخ» فيجعله بحق استاذ التاريخ العلمي عند العرب ، وقد تجاوز صداه سوريا المجوفة فملأ الأمصار الاخرى .

مصطلح التاريخ او علم الميتودولوجيا علم وضع للتثبت من الحقائق التاريخية وايضاحها وعرضها . استنبطه العلّامة برنهايم المؤرخ الألماني في النصف الثاني من القرن المنصرم. ثم سار على خطاه العلامتان لانجلو وسنيوبوس الفرنسيّـان ، وعلى هذين اعتمد رستم ، ولم يشر الى هذاك . امــا الذين ألفوا في هذا العلم بأميركا وانكلترا فقد قدموا كتبهم لذكرى برنهايم ابي الميتودولوجيا .

ان للعربية الفخر بظهور زميل لهؤلاء النوابغ فيها . اننا لم نقصر في مضمار التاريخ القديم وها نحن اليوم نجول في حلبة التاريخ الحديث بلسان عربي مبين .

وهذه مناسبة ثالثة او رابعة تحملنا على تجميم كيل الثناء للجامعة الاميركية

التي أظلت الدكتور رستم وكشفت عن عبقريته، ففيها درس هذا العلم على أحدث اساليبه ، وفيها يتبوأ اليوم كرسي علم الميتودولوجيا الذي ألف فيه كتابه هذا ، فجاء شرقياً غربياً أحل صاحبه في التاريخ محل سيبويه من النحاة. فقبل ان يخرج رستم كتاب «مصطلح التاريخ» مطبوعاً على الورق طبعه في أذهان شباب سيكونون من مفاخر الأقطار العربية . وهـــذا فضل آخر نسجله للجامعة التي لا يجاريها معهد في هذا المضمار .

حدثني صديقي الاستاذ يوسف صوراتي استاذ اللغة الانكليزية والتاريخ عندنا، ان استاذه الدكتور رستم يؤمن بالاختصاص ، وخصوصاً الضيق النطاق، وهو من الخاضين عليه، ولهذا جعل همه درس دور تاريخي خطير من أدوار تاريخ سوريا — دور الفتح المصري للبلاد الشامية — انهـا حقبة قصيرة من الزمن ولكن اخراج «الاصول العربية لتاريخ سوريا على عهد محمد علي باشا» في خمس مجلدات ، اقتضى الاستاذ ألف مرحلة فلم تبق في القطرين مكتبة ، خاصة او عامـة ، كبرى أو صغرى ، لم يشق رستم غبارها .

لقد نشر الدكتور رستم اكثر مما ألف ، والأحجام عن التأليف التاريخي قبل توفر الاصول وتحريها هو من الفضائل النادرة بين المؤرخين وأخص الشرقيين منهم .

من مطالعة توطئة «مصطلح التاريخ» يبدو لنا ان مخيلة المؤلف حبلت بهذا الطفل الميمون مئة وثلاثة وخمسين شهراً . ثم خشي أن يجيء طُرحاً فتريث في الأمر «فبدأ بتدريس هذا الموضوع بلغة أجنبية ريثما تتوفر لديه الأمثلة التاريخية المحلية والاصطلاحات العربية الفنية فاضطر الى ان يرجع الى مصطلح الحديث الشريف لسببين : أولهما الاستعانة باصطلاحات المحدثين، والثاني ربط ما يضعه لأول مرة في اللغة العربية بما سبق تأليفه في عصور المحدثين » .

لا يدعي رستم انه مبدع هذا العلم كما رأيت ، اما نحن فندعي أن هذا المؤرخ الكبير أبدع كل الابـداع بوصله حاضرنا بماضينا ، فأرانا ان علماء الحديث نهجوا نهج برنهايم ومدرسته . نبش عن منتوجات تلك الادمغة التي كان يحدوها الايمان ويزجيها اليقين، مطابقاً بين العملين بما توج به كتابه النفيس: الحديث علم ودراية،

والتاريخ علم ودراية . ففي كتاب رستم جدة وابداع : جدة اذ وضع لنا أصول علم طريف، والابداع في احياء فن عرفه علماؤنا القدماء قبل علماء التاريخ المعاصرين. ناهيك بما في الكتاب من أمثلة محلية كثيرة جعلها الاستاذ الكبير كتمارين للمؤرخ المستجد. ولو كان رستم يؤثر الراحة على الافادة والاتقان لاكتفى بترجمة الأمثلة التاريخية الواردة في الكتب التي يعلمها حتى حفظها كالماء الجاري .

تعودنا أن نلخص ما ننقد حتى القصص فكيف بنا ونحن ندرس كتاباً هـو الأول من طرازه بل من نوعه في مكتبتنا العربيـــة ، هو الابن البكر للتاريخ الحديث . ففي كلمة المؤلف يلمح الى قصر باع اكثر مؤرخينا الشرقيين في هــذا العلم ، والى زعمهم الخاطىء « ان كتابــة التاريخ لا تتعدى نقل الرواية والالمام بقواعد اللغة » .

قلت هكذا علمتهم مدارسهم التي تؤثر دائماً الفصاحة على العلم، فتعهد بتدريس التاريخ وغيره الى المتفيقهين وذوي الالمـام . كنت أتمنى على المؤلف ان يكتب لنا تاريخ المتيودولوجيا وآثار اقطابها العالميين الذين أصبح هـــو أحدهم بكل فخر ، ولكنه تنصل من هـــذه التبعة زاعماً ان كتابه هذا رسالة . وكم أضاع تواضع العلماء من فائدة . فمم يشكو كتابه ؟ ان صفحاته فوق المئتين من القطـع الوسط والكبير .

فبناء على ما يعلمنا رستم لا بد للمؤرخ ان يلج احـد عشر باباً أولها :

التقميش : والتقميش كلمة من اصطلاح المحدثين قالهـــا ابو حاتم الرازي ومعناها جمع المواد . قلت الم يكن الله سبحانــه وتعالى اول من قمّش ؟ من قرأ الفصل الأول من سفر التكوين يعلم انه ، جـل وعـلا ، فكر في خلق شيء على صورته ومثاله ، واذ لم يكن له ما يقمشه قال للمواد كوني فكانت ، ثم ابدعه من انفه ما خلق ، من التراب ...

فالتقميش جمـع الاصول التاريخية كلها «واذا ضاعت الاصول ضاع التاريـخ معها. والحقيقة هي الحقيقة كلها» ومن هذا الباب يطل رستم على العالم العربي فيحث على التقميش ليس في العلوم التاريخية وحدها بل في كل فن ومطلب . فهل لادبائنا

الذين يعنينا أمرهم ان يقمشوا ليزفوا الى دنيا الفن عرائس مزينة ؟

العلوم الموصلة : وهي مـا على المؤرخ ان يعرفه ليحقق الاصول والمصادر ويفهمها . اولها اللغة او اللغات، وخصوصاً معاني الكلمات التي تتحول معانيها على الصور من معنى الى معنى ، ثم اجادة قراءة الخطوط والخبرة بانواع الحبر والورق وما اليه ، ليستطيع نقد الاصول والمصادر ويميز زيفها من جيدها .

نقد الاصول : لا تثق «بالاصول» ثقة عمياء ، ولا تركن اليها ، لاتثق بكل احد ولا تصدق كلما تقرأ ، وقد ضرب للقارىء مثلاً تحقيقه «الوثيقة الذذدارية» ثم بحث تحقيق الاصول بحثاً علمياً وأشار بما يجب عمله اذا ضاع الاصل وبقيت نسخة واحدة او نسخ متعددة .

تنظيم العمل : يصف الاستاذ افضل الخطط لاستخلاص المعلومات مـن الاصول ، وذلك بتدوين النص او ملخصه على أوراق متفرقة لا على دفاتر ليزيد عليها ما شاء ، وترتب ترتيباً أبجدياً ليرجع اليها بسهولة .

تفسير النص : يشير باتباع الطرق التي اتبعها علماء التفسير، وهي التي يتبعها اليوم المؤرخون المعاصرون، «ان يعمد الى تفسير القرآن بالقرآن ، فان اعياه ذلك فعليه بالسنّة ، فإذا لم يجد التفسير في احدهما فعليه ان يرجـع في ذلك الى اقوال الصحابة» أي أن يعمد المؤرخ المستجد الى تفسير النص بالنص عينه، وان اعياه ذلك فعليه بكتب المؤلف والا فليعد الى اقوال زملائه المعاصرين .

العدالة والضبط : ان امانـة المؤلف وتجرده عن الهوى لا يكفيان للأخذ بروايته ، فان كان شاهداً عيانياً فقد تخدعه حواسه . ثم ضرب مثلاً على خداع الحواس، حادثة طريفة جرت، او اجريت في الصف عندما كان يدرس علم النفس، فكانت حواس جميع التلاميذ مخدوعة . وهناك امور كثيرة لا بد منها سنناقش بعضها في آخر هذا المقال .

الحقائق المفردة : أنقبل رواية الراوي بعـد التثبت من عدالته وضبطه ، الجواب لا. يحذر المؤلف مـن اعتبار رواية انفرد بها راوٍ واحد مهما بلغ من العدالة والأمانة ، ومهما توفرت لديه شروط المشاهدة العلمية، وقد تتوافق الروايات

فلا يطمئن اليها المؤلف، ويمثل على ذلك بتزوير الخط «فحيث ينطبق امضاء معترض عليه، من جميع نواحيه وفي جميع دقائقه، على امضاء معترف به، يرجح وقوع التزوير».

الربط والتأليف : هنا تنتهي مرحلة الجمع والنقد ويبدأ التأليف . افتتح المؤلف هذا الفصل بالمقابلة بين حقائق التاريخ وحقائق العلوم الطبيعية . فحقائق التاريخ مبنية غالباً على رواية الآخرين ، وحقائق علم الطبيعة تقوم على الملاحظة المباشرة . الحقائق العلمية متجانسة متآلفة يسهل ربطها وتأليفها ، وبضد ذلك حقائق التاريخ . الحقائق العلمية ذات صفة عامة ، وهي لا تختص بزمان ومكان معينين ويستطاع اجراؤها في المختبر بينما الحقائق التاريخية تتعلق بزمان ومكان معينين يصعب ارجاعها . لا دوافع نفسية في العلوم الطبيعية وهي ذات شأن عظيم في المسائل الاجتماعية . هنا منبع العقبات التي تعترض طريق المؤرخ الى الربط والتأليف ، فيشير بالتمسك بالحقائق المفردة على أساس علاقتها بالحاضر . فما يعيننا على فهم الحاضر هو أهم بكثير من غيره ، اذ القصد من درس التاريخ انما هو فهم الحاضر واعداد العدّة للمستقبل .

ثم يشير الى تأثير فلسفة المؤرخ في انتقائه للحقائق اذ يختارها مستنيراً بفلسفته في الحياة ولو كان الدكتور يحدثنا بغير لغة العلماء لقال حسب ميله وهواه ...

الاجتهاد : قد تتوافر الحقائق المفردة في ناحية من نواحي الماضي ، وتعدم من الناحية الاخرى فيتلافى المؤرخ باجتهاده ما قد يقع من فراغ . وفي هذا الفصل يعرف المؤلف الاجتهاد ويجعله قسمين : الاجتهاد السلبي – او السكوت حجة – والاجتهاد الايجابي. وبعد وصفهما يدلي بمثل على الاجتهاد السلبي فمثله هو : يقال ان المتوكل على الله آخر الخلفاء تنازل عن حقوقه للسلطان سليم . اثارت هذه القضية اهتمام الدكتور رستم على اثر خلع آل عثمان واعلان الجمهورية التركية ، فراجع التواريخ العربية والروايات التركية عن الفتح العثماني لمصر فلم يجد لهذا التخلي أثراً . وهنا يتساءل المؤلف هل لنا ان ننفي تخلي الخليفة العباسي عن الخلافة متخذين سكوت الاصول التاريخية حجة على ذلك ؟

قلت : ولعلها أول مرة ينفي فيها رأياً من آراء علماء الحديث .

التعليل والايضاح : يقول المؤلف انه اذا علل المؤرخ وأوضح اسباب مـا يروي تخطى من التاريخ الى فلسفته ، وعليه هنا ان يتبع طريقة علماء الطبيعة ، فيوضح بعض الحقائق بحقائق اخرى . ثم لا بد من الالتجاء الى الفلسفة اذا مـا اردنا ان نقف على اسرار الحياة البشرية في الماضي . ومؤرخ من هـــذا الطراز لا بد له من اتقان الفلسفة والعلوم الاجتماعية والجغرافيا وعلم النفس ، ليوضح ويعلل على هدى .

قلت : وهل لنا أن نزيـــد درس الأرض التي تقلنا وتغذينا؟ فالانسان وليد وطنه ، وهذا مذهب ميشيله في الأسباب الطبيعية التي تكوّن الانسان .

العرض : اما عرض ما قمّشه المؤرخ وجمعه بعدما حلله وحققه ونسقه ونظمه وعلله واوضحه فله طريقتان: خاصة وعامة . فحين يكتب للخاصة ،أي للزملاء، فلتكن رسالته وحدة تامة المعنى، مرتبطة الأجزاء، جيدة الكتابة . اما مايكتب للجمهور فهو كما يكتب للخاصة من حيث صحة القول وسلامة الاستنتاج، والفرق بينهما ان هذه تعرض عرضاً واضحاً جداً لتقرب من افهامهم . ويحث على العرض بصورة جذابــة ترغب القارىء في الاستطلاع ، ويخص الاسلوب الشائق بالثناء منددا ببعض المحدثين مـــن العلماء الذين كادوا يذهبون الى ان شروط الطريقة العلمية في البحث ان لا يعمد المؤلف الى الأساليب الشيقة في عرض الحقائق ، كأنهم يزعمون ان العلم يتنافى معها . والواقع أنه بإمـكان العالم أن يكون دقيقاً في كلامه واستنتاجه، وجذاباً في اسلوبه وعرضه في آن واحد «ومن يدري فلعل الدافع عنـــد هؤلاء الى مثل هذه الأحكام هو ضعفهم في الأداء وعدم تمكنهم من ناصية اللغة ، وقصورهم عن إيجاد التعابير الشيقة» .

قلت : مثل الذين أومأ اليهم الدكتور من المؤرخين مثل بعض الشعراء الذين يفرضون على الناس اصولاً تنطبق على أساليبهم . قصّر العقاد مثلاً في الاسلوب، فأخذ والمازني يؤلهان ابن الرومي وشاعريته .

ثم قال : «فواجب المؤرخ إذن ان يجيد اللغة التي يصطنعها لتدوين حقائقه وعرضها بحيث لا تعوزه معرفة قواعد اللغة ومفرداتها وبيانها واساليبها، وعليه ان

يتقن فن الرواية ، وقص القصص في اللغة التي يكتب بها حتى إذا قص أخباره وقعت موقعاً حسناً في قلوب القراء» .

فمرحى وألف مرحى لاستاذ التاريخ الحديث في العالم العربي ،ويا لها دعوة سامية لتطور التاريخ الجاف . اني أؤيد فكرته هذه، وهل عـاب الاصبهاني اسلوبه البديع ، وهل قدحت فصاحته في صحة روايته ؟

هذا ما يتمناه على المؤرخ «المؤلف»، واما المؤرخ «الناشر» فيقول له «فحيث يظفر المؤرخ بالاصل بخط واضعه ، او بتصديقه ، عليه أن يبقيه كما هو بحروفه وغلطاته . فكم وكم من الاصطلاحات العامية تفقد قوتها أو ضعفها عندما تبدل بما يفتكره الناشر مقابلاً لها باللغة الفصحى» (ص ٤٧) . انه يشير بترك التاريخ المنشور كالعاديات لا صقل ولا جلاء،وهكذا فعل الدكتور زريق حين نشر تاريخ ابن الفرات ، واليزيدية قديماً وحديثاً .

ان «التاريخ علم في تحريه الحقيقة ، وكعلم يطلب الحقيقة كما هي لا كما يجب أن تكون.» وان قال بجعله قصة طلية مشوقة ،فهو يريـد تلك القصة كما وقعت ، لا كما يكوّنها القصصي تكويناً فنياً .

اما الفلسفة فيعدها من العلوم الموصلة في التأليف لا في النشر ، وقد أغلى في اطرائها حتى نقل عبارة المؤرخ الطلياني: التاريخ هو الفلسفة والفلسفة هي التاريخ.

هذا عرض كتاب «مصطلح التاريخ» وان صدقنا فلنقل مسخه . الكتاب طريف حقاً،بل هو نجمة الصبح في فجر هذه النهضة ،استنارت بهديه ثلاث عواصم: بيروت والقاهرة وبغداد . ولو كانت لغـة العرب عالمية كغيرها لقلنا فيه مقال المتنبي في أميره الحمداني : وتفتخر الدنيا به لا العواصم . أما اسلوب الكتاب فناصع لا غبار عليه ، ولا تضيره بضع عبارات جرت على قلم الدكتور اقتباساً من الوف الوثائق التاريخية المكتوبـة في القرن المنصرم ، كقوله : ويتضح مما تقدم ذكره اعلاه ، وكقوله : تجاه أمر واقع . وكقوله أيضاً : من حيث النوع او الموضوع ، أو الاثنين معاً .

أما من حيث التأليف فلا نستدرك عليه الا الافاضة في أخبار علماء الحديث

افاضة نشعر معها اننا ضللنا السبيل، فهو يقص علينا مثل : «وقد شرط في العدالة التوقي عن بعض المباحثات القادحة في المروءة نحو الاكل في الطريق ، والبول في الشارع ، وصحبة الارذال، والافراط في المزاح» (ص١٠٤) . لست أظن ترك هذا التزمت يقدح اليوم في مروءة أحد ، فشعار اليوم : الوقت ذهب ،واضحك يضحك لك العالم .

إن قوة تداعي المعاني، وهي عند علماء النفس من سمات النبوغ، ملموسة عند رستم ، وبهذه الخاصية وصل قديمنا بجديد عصرنا الطريف ، اخذ هذين البيتين :

فما كتب التاريخ في كل ما روت لقرائها الا حديث ملفق
نظرنا لامر الحاضرين فرابنا فكيف بأمر الغابرين نصدق؟

ثم دار حول هذا الشاعر الهازىء فأحال سخريته حقيقة علمية اذ قال :وقد قال علماء التاريخ : شك المؤرخ رائد حكمته . وقالوا : الأصل في التاريخ الاتهام لا براءة الذمة (ص ٨٧) . رحم الله ديكارت .

وفي باب العدالة والضبط أيضاً ، وهو اضخم أبواب الكتاب ، سرد قواعد جليلة بعضها مبني على علم النفس . وفي هذا المعترك الحامي تكثر الشروط ، فللمؤلف منها ستة يختمها بهذه العبارة «فكلما ازداد الراوي ابداعاً في اسلوبه الأدبي ازددنا شكاً في عدله وقل اطمئناننا اليه» (ص ٩٤) .

لست اخال هذا ينقض ما دعا اليه في آخر كتابه، أي الى الاسلوب الجذاب. فرب شاهد بالزور تمكن لتقبل شهادته ، ورب رجل طعنت فصاحته في صدقه وهو لم يقل الا الحق .

وتلي شروط المؤلف في العدالة والضبط شروط اخرى عديدة وضعها المؤرخ الفرنسي لانجلو ، ثم يعقبها صفحات من آراء علماء الحديث وأطولها ما قاله ابن الصلاح . ويختتم هذا الباب بتمحيص ابن خلدون لروايات غيره من المؤرخين، كالمسعودي، عن بناء الاسكندرية ،وتمثال الزرزور الذي برومة ،ومدينة النحاس والمدينة ذات الأبواب التي روى خبرها البكري .

لقد أصاب ابن خلدون فيما ضبط وحقق هنا ، ولكني أسأل الدكتور : هل

نهج في تاريخه هذا النهج ؟ وهل محص كل ما كتب ؟ وما قول استاذنا الكبير في حجج ابن خلدون مدافعاً عن هارون واخته العباسة ؟! ان الدكتور لم يقف أمام ابن خلدون موقف المشلول، أو المؤمن المشدوه كما يقف غيره، بل ذكرنا بموقف الجاحظ من صاحب المنطق .

وبعد، فقد ترك رستم في سورية المجوفة دوياً متنبئياً، فهل للاستاذ الجليل، وهو يعيش في حقبة خطيرة جداً، أن يضع لنا تاريخها ليكون لنا تاريخ؟ اننا في حاجة الى أكثر من تحقيق وثائق وضبط تواريخ قديمة. ليس لنا تاريخ يركن اليه، تاريخ يدرس هـذا الشعب وطباعه وما نهض به من اعباء أحلته المحل الأول في تاريخ العالم. ان العظمة الكبرى لا تخرج من دائرة النواميس الطبيعية كما زعم ميشيله، حين درس جاندارك، فهل لرستم أن يكون ميشليه العرب، فيستنطق جميـع ما تركوه من دين وأدب وتاريخ وفن مشيداً تاريخنا العظيم على هذه الآثار ومسبباتها كالأرض وطبيعتها ؟ فالناس للأرض اتباع .. كما قال فيلسوف المعرة .

اني اقترح عليه وعلى تلميذه بالامس ، ورفيق سفرته اليـوم الدكتور زريق تأليف هذا التاريخ . العمل خطير جداً ولكني أزعم أن كليهما كفوء له ، ونحن احوج ما نكون الى تاريخ كهذا .

الحب أقوى

لرئيف خوري

للاستاذ رئيف الخوري اثار عديدة طيبة، شعراً ونثراً، وربما كان رئيف اكثر لداته انتاجاً، أما الآن فلا يعنينا مما خطه قلمه الخصب الا رواية «الحب أقوى».

الحكاية من عند الشيخ داود الانطاكي مؤلف كتاب «تزيين الأسواق بتفصيل اشواق العشاق» وقد صبها الاستاذ رئيف في بوتقة الفن القصصي الحديث فجاءت طرفة نفيسة رغم سرعة سير رئيف، وفبركته لما يكتب. قال في مقدمتها، متكلا على ذمة الشيخ الانطاكي، انها تاريخية «تدور في فلك من العصر الأموي على عهد الخليفة معاوية بن ابي سفيان»، ثم انذرنا كموسى حين سئل عن عصاه فأضاف: ولي فيها مآرب اخرى ...

الحكاية دونما شك صغيرة، ولكن مخيلة القصاص البارع بسطتها وكبرتها فجاءت كتاباً يملأ العين والقلب. فرئيف قصاص موهوب نعمة الافاضة في الكلام ثم يبقى هذا الكلام، على غزارته، حلواً عذباً تلذ للقارىء مطالعته، ولهذا جاءت روايته «الحب أقوى» سهلة التعبير حافلة بالصور والتعابير الشخصية، تمشي الهوينا لا ريث ولا عجل، رغم أنف موضوع الحب المبتذل. وان سألتني وكيف يستحلي الموضوع المبتذل، أجبتك أن الطاهي الفنان يعطيك من المواد التي يستعملها غيره لوناً جديداً من الطعام غير ذاك بما يمزجه من أبزاره وبهاره.

نفخ رئيف من روحه المرحة في بطليه نصر وسعاد فتمثلا لنا جبارين عنيدين. فبعد ان كان البطل نصر صعلوكاً بائساً، خرج من بين فكي القلم مناضلاً عنيفاً يغامر في حب مروم، ولا يقنع بما دون النجوم، حتى بزّ معاويه وواليه ابن ام

الحكم ... ليست الرواية تاريخية، ولكنها بنت الواقع أو مما يمكن وقوعه، واذا فقدت هذه الخاصة فكأنها لم تخسر شيئا، فالرواية التاريخية حقاً تصبح كالوطواط، لا هو في الطير ولا هو في الحيوان. ان التاريخ حجر عثرة في طريق الفن القصصي اذ لا يدري القارىء ماذا يصدق وماذا يكذب فيضيع بين البينين.

في رئيف الكاتب القصصي خصلة حلوة وهي تفتيشه دائماً عن الطريف الظريف وتهافته عليه. شعر، وهو العارف بأصول الفن، انه لا يحس محيط قصته الا في الكتب، والكتب، وحدها، لا تكفي، فلجأ الى وصف الخوالج وتحليل نفسية شخصياته، وتصوير مظاهرها بتعابير طريفة، فارانا في ام سعاد تلك المرأة المستكلبة، ومن أبي سعاد رجلاً إمّعة، ومن الوالي ابن ام الحكم مخلوقاً كبطل المقامة المكفوفية: حزّقة كالقرنبى.

لقد أغنى هذا الوصف والتحليل عن الاطار وما يتطلبه من اسلوب شعري، ولكن الاطار وما يقتضيه من تصوير عنصر متمم للرواية، فأنّى لنا هذا ونحن لا نعرف المكان الا من الكتب وهي لا تغني عن العيان؟ فكتّاب القصة اليوم يحاولون أن يعيشوا، ولو حيناً، ما يكتبون، أو يروا المحيط على الأقل، لأن الكاتب كالنحلة يجني أوّلاً ثم يمج، وبدون هذا لا يكون العسل المشتهى.

اما الحوار العربي الأصيل فهو عقدة العقد، وهذا لا يستطيعه احد منا، لا رئيف ولا غيره، فمن أين لنا نحن أن نتكلم بلسان اعرابية منذ ثلاثة عشر قرناً؟ خذ مثلاً: قالت ام سعاد لبنتها: لئن رأيتك بعد اليوم تخرجين او تعودين مع هذا الصعلوك المنتوف فلأعاقبنك أقسى عقاب.

ان كلمة «المنتوف» لا بأس بها — مجازاً — اذا جرت على لسان لبنانية، واما ان تقولها اعرابية فهذا بعيد. وفي الصفحة عينها يستعمل رئيف كلمة «بائخة» بمعناها العامي. ان مثل هذه الألفاظ، وفي الرواية عدد غير قليل منها، تشوه قصة كتبت بلسان عرب أقحاح.

فالحوار واللون المحلي هما أقوى عناصر القصة، فعلى الكاتب، اذا لم يضمنها، ان يفتش عن موضوع يلائمه. ولكن المؤلف أعاضنا عنها بشيء آخر هو حلاوة

تعابيره الخاصة ، ووصفه الطريف ،وسرعة جري قصته ، وحسن سياقها واتجاهها المستقيم نحو الهدف. وهنا لابد لي من الاشارة الى أشياء تتعلق بالاصول ،اذ لا يسوغ لكاتب مجيد كالاستاذ رئيف أن يجاري «المهملين» منا فيشوه اثراً فنياً كروايته هذه. قال: حدق فيها ، والوجه حدق اليها. واراد ان يخرج على المألوف فاستعمل الفاظاً كرتيب وغيرها قبل ان يستوثق منها. وسعاد ،ألا يعرف الاستاذ انها ممنوعة من الصرف ؟ فلماذا يقول سعاداً ، بينا طبيعة الحوار تقتضي أن يقول : سعاد .

وبينا اراه يقول «وحل الماء» ولا يبالي اذا بي اقرأ يتقصف مكتوبة بين هلالين. ثم يقول: وقفت تظلل عينيها بكفها من الشمس . ان هذه الجملة الطويلة العريضة تغنيه عنها لفظة واحدة : تستشرف أو ستكشف . ولو شئت التنطس والتقعر لقلت له: لماذا تقول أبيعاً تبيعاني ،ولا تدع الجملة تمشي على الهينة فتصيب عصفورين بحجر واحد : طبيعة الحوار وسلامة التأليف؟ ثم ما الداعي الى القول : كاد يجن هو الآخر ، فأية حاجة الى هو الآخر. ثم القول : اذا امسى المساء . الرجل يمسي اما المساء فلا. ومن هـــذا النوع : بطحا سلمان أرضاً ، وتمدد أرضاً ، واتزودها زاداً الخ ...

والضرف ، وهو يعرف فصيحها ، فما الداعي الى استعمالها؟ فلو جاءت على لسان شخص من شخوص قصته لهان الأمر ولكنها من كلام المؤلف . والاستاذ يكثر جداً من وزن فعيل حتى يقول: بصوت خفيض ،والمعنى الذي يقصده انما يجيء من المخفض ، ناهيك ان كلمة خفيض قبيحة كيفما دارت بها الحال ، وقــد أدرك ذلك ابن الأثير منذ أجيال . اني اكاد اقول ان رغبة المؤلف في هذا الوزن ناشئة عن اسمه ولهذا اكثر منه من حيث لا يدري ...

لقد نزلت مني رواية «الحب أقوى» بمنزلة المحب المكرم فاستقبلتها بهذا النقد. رأيت عند مؤلفها نفساً طويلاً يمكنه من كتابة الرواية ، فدونت ما دونت مرة واحدة لاعينه على الرواية الآتية : « وان كنت عني ذا غنى فاغن وازدد » .

اما في الفن فالاستاذ رئيف يمسك الخيط ولا يفلته ،وهذه اولى صفات الراوئي. انه لا يحول النظر عن أهدافه ، بل يسير اليها أبطاله تواً فلا يتعثرون بشيء .

ولكن الاستاذ طماع طماح يحب ان يستأثر بكل حكاية تعجبه ، ولهذا علق في ذيل رواية « الحب أقوى » حكاية اخرى استحلاها فاستأثر بها قبـل أن يهبشها غيره، فجاء استطراده اليها شنيعاً . سماها خاتمة فكانت كالاعارة والتأجير في لغة الحرب الماضية ، فضاعت طائرته في سماء الخاتمة ولم تعد الى قواعدها سالمة . فما كان احلى خاتمة قصتك يا رئيف ، لو ظلت بدون خاتمة .

- ٢ -

حيتك عزة بعد الحج وانصرفت فحي، ويحك، من حياك يا جمل

عزيزي الأستاذ ...

اظن وسوء الظن، اثم، ان محلك من المقال الذي وجهته الى مارون عبود محل المدير المسؤول من الجريدة ، او محل المذيع بالنيابة ، وهذا التشبيه الاخير أقرب الى حالك. اني أرى على حفافي القفة «اذنين» بل آذاناً تلوح وتختفي كبرق امرىء القيس ... نجّانا الله من الطوفان .

اخشى يا أخي أن تكونوا طلبتم الزيادة فوقعتم في النقصان، كما يقول المثل. يقول زهير :

سألنا واعطيتم، وعدنا فعدتم ومن اكثر التسآل يوماً سيحرم

هاكم الجواب على ما فاتكم وان لم تكن فصول النقد مدرسة نحـــو وصرف ولغة. فالكلام النقدي يفرض كاتبه انه يوجهه الى من لا يفوته ما فيه، اما صاحبنا فهو اما غير فاهم ، واما متجاهل مماحك . تمثل صاحب التوقيع بقول المتنبي : وهاد اليه الجيش أهدى ومـا هدى . فاحوجني الى تذكيره بقول المتنبي ايضاً : ومن البلية عذل ... الخ

فلنبدأ بكلمتي «منتوف وبائخة» وأخواتها . فهذه الالفاظ العامية المحلية لا تصح أن تكون مادة لرواية اعرابية، فالرواية عمل فني قبل كل شيء وهي ليست دون الشعر شأناً. ليست الرواية مقالاً في صحيفة يعالج الشؤون اليومية، ولا قصيدة

تقال في مناسبة ما . انها لاجلّ خطراً، ومتى كانت «تاريخية» ومن العصر الاموي عظمت المسؤولية وصار على كاتبها أن يطهرها من رجس الركاكة والرطانة، والا فليكتب روايات شعبية يتلهى بها العوام، ولا حرج عليه اذ ذاك . فلو عرفنا ان صديقنا رئيف خوري يكتب لهؤلاء ما كنا اعرنا قصته هذا الاهتمام، لاننا لا ننتقد الا من يرجى منه خير أدبي جزيل كرئيف خوري .

وما وصلت الى كلمة «التمع» حتى رأيتك تنقض ما قلت أولاً . قلت ان غاية رئيف «افهام القراء أياً كانوا باسهل الأساليب والوسائل» فأي أسهل ياترى، افعل لمع أم فعل التمع ؟ فمن من قرائنا يقول التمع ؟ يظهر انك تنسى حالاً ما تقول، فالتمع ليست بمعنى لمع، وان تكن مشتقة منها، كما انك انت لست اباك وان تكن مشتقاً منه . وبما انك تحب الاستشهاد بقول المتنبي فهو يقول في هذا : «فان في الخمر معنى ليس في العنب» . اذاً، فعلى كاتب كبير كرئيف خوري أن يدقق .

وأراك ذكرت ابن الاثير بمناسبة رتيب وخفيض «والتمع» وغيرها مما عند رئيف من هذه البضاعة . فابن الأثير قال : ألا ترى أنك تقول : قعدت الى فلان احدثه، ولا تقول : اقتعدت اليه . وكذلك تقول : اقتعدت غارب الجمل، ولا تقول : قعدت على غارب الجمل، وإن جاز ذلك . ولهذا أقول أنا : أن «رتيب وخفيض» ليس لهما جمال اسم صديقي رئيف وإن كانتا من وزنه . وإذا قلت انت : ما لنا ولابن الأثير، أجبتك : ان ابن الأثير ختم كلامه بقوله : وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم . . .

أما «سعاداً» فجاءت بضع عشرة مرة إن لم يكن عشرين وثلاثين، وما هكذا تكون غلطة الطبع . أما «وحل الماء» فهي مثل قوله : «أمسى المساء»، فكما يقال أمسى الرجل، أي دخل في المساء كذلك يقال وحل الرجل أي وقع في الوحل، - كما وقعنا نحن في وحل الرد عليك، مثلاً - لا يقال وحل المساء لان التراب يصير وحلاً، ومتى خالط الماء شيء من الطين يقال : «عكر الماء» لا «وحل الماء» .

أما ما أردت قوله حول «يتقصف»، فهو اننا عندما نرى لفظة موضوعة بين هلالين فنفهم انها غير فصيحة، في حين ان يتقصف فصيحة بنت فصيحة، ولا حاجة الى جعلها بين قوسين . كان أحرى بالمؤلف أن يعلّم بائخة وغيرها من الألفاظ

بمثل هذه العلامة . أما الغريب فهو ان تذكرني «ان البيانيين اجازوا دخول الواو على استواء في كل منفي مع الجملة المضارعية الواقعة حالاً » فما خطب الواو حتى تذكر ذلك هنا ؟

وقد اضحكتني حين حمت حول كلمة «تستشرف » فقلت ان هذه اللفظة ذات معنيين، ومتى كانت اللفظة ذات معنيين حصل الالتباس والالتواء . أليس هذا عجيباً غريباً ؟

أما إذا كانت لفظة تستشرف لم تعجبكم فعندكم لفظة « تستكف » وهي مشتقة من الكف ، وربما كانت لازمة أكثر من في هذا المقام لان لا التباس فيها ولا التواء ...

قلت : سامحك الله ، اني «اعود بكم وباللغة الى عهد الانحطاط ، عهد الاهتمام باللفظة دون المعنى» مع اني لم ارشدكم الا الى وضع المعنى في لفظة تؤديه كاملاً غير منقوص ، وتريحكم من عفش الكلام ونفشه ... فلا يكون البيان خبصاً في خبص . وهنا لا بد لي من أن أسألك : ممن تعلمت هذه الأمانة في البحث حين نقلت عن المعجم هذه العبارة : «استشرف الشيء رفع بصره لينظر اليه» لماذا اكلت ما بقي من الجملة وهو: «باسطاً كفه فوق حاجبه» — المنجد (ص٣٩٥) العمود الثالث، السطر ١١ طبعة ١٩٣٧ — افعلت ذلك لتوهم الناس اني اخطأت؟ فأنا اخطىء دائماً ، ولا ادعي العصمة .

ليس النقد مزحاً يا عزيزي، انه عين الجد ، وان البسناه حيناً ثوب الفكاهة. وسألتني عن «ابيعاً تبيعانني»،ما بالها ؟ اسمع يا عزيزي، انها، أولاً، ليست لغة الحوار الطبيعية ،وهي،ثانياً، خطأ نحوي،لان المصدر المؤكد لعامله بمثابة النعت، والنعت لا يقدم على المنعوت. ولهذا قلتُ : لو قال اتبيعانني بيعاً لاصاب عصفورين بحجر واحد ، أي سلامة التعبير وواقع الحوار ... انه لم يخطر ببالي ابداً انني محتاج الى معلقة ... اسألني ايضاً ما معنى قولك هذا ! أي لأزقكم كما تزق العصفورة فراخها ، أو بلغة العوام : نشرّقكم بالملعقة .

أما « كاد يجن هو الآخر » فلا داعي فيها الى « هو الآخر » وهاك الجملة :

« وشاع في الحيّ ان سعاداً جنت ، وانتهى النبأ الى نصر فكاد يجن هو الآخر ، وأسرع الى خيمة عمه مستفسراً» . فقوله هو الآخر من بضاعة العوام، وهي زيادة لا خير فيها، تخالف ما وضع السلف من قواعد لأفعال المقاربة، أي ان خبر هذه الأفعال يكون فعلاً مضارعاً متضمناً ضميراً يعود الى اسمها . وهناك مشكلة ثانية هي مشكلة الاعراب ـ أقول هذا لئلا تستوضحني ثاني مرة . وأنا ، كما لا تعلم ، وقتي ضيّق جداً ـ فكيف نعرب هو الآخر ؟ فاذا قلنا هو فاعل يجن، او توكيد الفاعل المستتر ، فما يكون محل الآخر من الاعراب ؟ فاذا قلت نعت فالضمير لا ينعت ولا ينعت به . انها تعبير عامي وإن جرت على أقلام الكتّاب .

أما قولك لي : « وخلاصة القول، انك يا استاذ مارون حللت الرواية تحليلاً نفسياً واقعياً رائعاً ، ليتك اكتفيت به ... » .

ان كلمتك هذه لم تزدني معرفة بالمؤلفين ، فمارون عبود ناقد عظيم جداً متى أحرق على مذبح أنانيتهم الند والعنبر ، وخصوصاً اذا طاف بجمرته حولهم وحواليهم . اما حين أصوب انبوب الصائغ لأحرق خبث الحديد ، فأنا أكون حينذاك متعنتاً أردّ البشر الى عصر الانحطاط .

فأما وأنت تريد ان تتسلّى ، او ان تعمل بشرعة الاعارة والتأجير في الحرب الادبية ، فخذ بعض ما بقي من رواية أخينا رئيف لترد عليه ، ولكن ثق انك لن تفوز بجواب ، لأن الحصاد كثير والفعلة قليلون .

وجاء في رواية الحب أقوى : تقاعست ان تخف (ص ٨) وفعل تقاعس هنا يتعدى بعن . قال الشاعر :

تبهنس إذ تقاعس عنه مهري محاذرة ، فقلت عقرت مهرا

وقال : تشاجع الزوج عم نصر (ص ٢٨) ثم قال : يتقاوى امام اهل المجلس (ص ١٤٢) . ان المزيد من الافعال سماعي لا قياسي ، والمدار فيه على كتب اللغة . ونحن لا نزال نقول ـ عامياً ـ كما كانوا يقولون : تشجع وتقوّى ، والكلمتان فصيحتان تؤديان الغرض، فأي داع، إذن ، للقول: تشاجع وتقاوى، فالأولى منهما لم تسمع ، والثانية لم تقل بالمعنى الذي أراده الأستاذ رئيف .

ان كلمة سماعي لا تبعد كثيراً عن كلمة استعمال ، والاستعمال ينعّم الألفاظ ويملسها ، فلماذا تعود الى المقالع ؟

وقال: الفت ان تسير عليها كل يوم، ذهاب وإياب (ص ٨) والصواب ذهاباً وإياباً.

وقال: تحت وبر شاربين اسودّا ولم يكادا (ص ١٤) انني لم افهم كيف اسودا ثم لم يكادا ؟ فأما ان يقال : لم يكادا يسودان ، وأما اسودا او كادا .

وقال : يولم الناس على لحم شاة (ص ٣٠) وهذا تعبير غريب . قال عبد الرحمن بن عوف للنبي : تزوجت انصارية . فقال ، عليه السلام ، بارك الله لك . ولم بشاة . ان « أولم » فعل لازم ، فالوليمة لا تكون لغير البشر ... وهو يتعدى بالباء لا بعلى ، وحسبنا كلام أفصح العرب حجة .

وقال : أبينك شيء وهذا الفتى (ص٣٢) والصواب : أبينك وبين هذا الفتى شيء ، كما نتكلم اليوم .

وقال: لا شغل لهم الاه (ص٥٩) وهذا خطأ. قد عابوا على صاحبنا المتنبي قوله:

ليس الاك يا علي همام سيفه دون عرضه مسلول

ومتى امتنع هذا في الشعر فكيف بالنثر ؟ وقال : انبطح على أضلاع صدره (٦٣ ص). ان معنى انبطح انطرح على وجهه، فأي حاجة، بعد، الى أضلاع صدره؟ هل فينا من يقول : انبطح على اضلاع ظهره ليميز بين الانبطاحين؟ فقولنا انبطح واستلقى يعبر عن القصد، ولكن اذا كان الاستاذ يريد ان يفهم من ما لا يفهمون، كما ادعى الاستاذ ز ... فالجرح جبار ، كما قال بديع الزمان لاستاذه ابن فارس .

وقال : هل ما زال فاتك على حراسة المخيم (ص٦٣) وفصيحها : أما زال ، او ألا يزال فاتك ... فمن يقول : هل ما درس فلان . ان الهمزة تستعمل في كل موضع ، اما هل فلا .

وقال ايضاً في هذه الصفحة : أترى يكون هذا الشيخ فاتكاً هو اياه؟ علينا هنا اما أن نحذف هو إياه ، او ان نكرر الاستفهام فنقول : أيكون هو إياه . وما أرى المؤلف إلا متأثراً بقول العوام «هوّي ياه» ، وهذه من نوع هو الآخر، أي « هوّي لَخْر » ، وما كل كلام العوام يعرّب .

وقال: وقد طاف الفرسان بالحي شارعين سيوفهم (ص٦٥) . والرماح تشرع لا السيوف .

وقال : لأنها رأت سدى ان تستشيره (ص ٧٣) . لا أدري اذا كان احد القراء يستسيغها ، اما انا فلا . ومن طراز هذه قوله ايضاً : ثم خالت الصباح سيحمل اليها فرجاً (ص ٧٥) .

وقال : فغص بها حلقه واسترخت حنكه (ص ١٠٢) . كما قال بعد ذلك: واسترخت حنكا العجوز (ص ١١٨) . وكأني بالاستاذ قد ترجم هذه ايضاً عن العامة « رخي حنكو . رخي نيعو » . فالحنك مذكر ، وهما فكان لا حنكان . واذا كان لا بد من هذا التعبير فاللفظة التي تستعمل هنا هي فكاه او لحياه. فالحنك هو سقف الفم ، وقد جاء في الزبور : ويلتصق لساني بحنكي .

ولست أدري لماذا أحب التأنيث هذا الحب الجارف حتى قال ايضاً: ولحيته ترتقص ارتقاصاً مع سفلى فكيه (ص ١١٧) .

وقال : وافق ان يجعلها في مطبخه (ص١١٨) ، وعليه ان يقول : وافق على ان ... ثم عاد الى « أرضاً » التي أكثر منها في روايته فقال : فوجداها منكبة ارضاً على وجهها (ص ٣٧). ترى هل تنكب سماء ؟ أهي صاروخ ؟ ناهيك ان انكب لا تناسب، والفصيح: معفرة وجهها في التراب. أتجيز هذا التعبير يا ز.. ؟ أم تراه محتاجاً الى «قاموس» ؟ وقال الاستاذ: قاموس الشتائم (ص٦٦). وكاتب محترم كرئيف لا يعبر بكلمة قاموس عن المعجم. ان القاموس عنوان معجم بعينه وليس من مرادفاته كما نتوهم .

وقال: قهرته على ارادته (ص٤٠). وهذا الفعل يتعدى بنفسه. لعلها قيست على قولهم : غلبه على امره ، ولكن هذه غير تلك ، وفي قهرته غنى عن على ارادته . وقال: ان يلقاه رجالك فيركبوا عليه ذنباً تأخذه به فتسجنه (ص٧١). ان «يركبوا عليه ذنباً » عامية سوقية ، ولكنها من البضاعة التي يريدها ز. ليفهم الناس عن الكاتب دون ان « يهديهم » ... — والصواب : يهدي اليهم يا استاذ ز — مع كل نسخة من روايته قاموساً مدرسياً . وقال : فعلام بقيت ثيابه القديمة هي إياها

(ص ١٤٨). أهي قضية استحلاء أم هي قضية اصول ؟ ! فالصواب: هي هي .

وقال: لقد مست القدر باطراف أصابعها ثم مسحت على وجهها (ص٣٧). فلا يقال هنا مسحت على وجهها ولا مسحت وجهها ، فمسحت على وجهها كلام عامي غير فصيح، ومسحت وجهها يراد بها التنظيف، فعليه إذن ان يقول: ثم مسحت بها وجهها ، او ثم مسحت بالحمم وجهها . ان الاستاذ يعرف بيت الأخطل :

بني كل دسماء الثياب كأنما   طلاها بنو العجلان من حمم القدر

وكأني اسمع الاستاذ ز. حين قرأ هذا البيت، يقول: اسمعوا يا بشر ! يريد ان نقول كالأخطل ! نعم يا ز... ان كاتباً موهوباً كرئيف يطلب منه صحيح الكلام كالأخطل. وبعد أسطر من هذه الصفحة يقول: تشد ثيابها تريد تمزيقها (ص٣٧). وهو يريد قول العوام تشد بثيابها. فيا ليته عبر هنا مثلهم فقولهم اقرب الى الصحيح.

وقال: وينفق بذخاً واني ابذخ (ص١٤٣). وفي هذه العبارة ضعف من جتهين: الاولى ان فعل بذخ ليس بمعنى الاسراف ، والثانية انه لا يقال ينفق اسرافاً ليقول رئيف: ينفق بذخاً. وقال: كأن خنجراً طعنه في صدره (ص١٠٧). وهذه ايضاً تعريب تعبير العامة: «كأن خنجر طعني في صدري»، الخنجر يا سيدي، يطعن به ولا يطعن هو . اما اذا كان قد استحدث خناجر اوتوماتيكية من هذا النوع ولم اسمع بها ... فيكون الكلام صحيحاً .

وقال: فك هذا الوثائق عن يدي ضيفنا (ص ٨٣). والصحيح فك وثاق ، أما عامياً فيقولون « فك عنّو » .

وبعد هذا الكر والفر في رواية «الحب اقوى» اقول انه بدا لي اليوم ما لم يبد لي من قبل ، وهو ان تعبير الصديق رئيف متأثر جداً بالتعابير العامية ، وهذا لا يفعل إلا بحذر شديد، فعليه ان يتدارك ذلك في قابل. ولعلي اكون في نقدي هذا له ، قد أديت خدمة جلّى اذ اكتشفت في أدبه شيئاً لم يكن يظهر لولا التمحيص . رحم الله من قال : مذاكرة الرجال لقاح الألباب .

هذا ما حضرني — الآن — يا ز ..، ولو كنت تعرف ، يا أخا الاذاعة ، خصائص لغة العرب لما استغربت انتقادي ذلك الاستغراب، بل لو كنت تعرف

ما تولده حروف الزيادة من زيادة ، ما قلت اني أعود بكم الى عصر الانحطاط . ان العود الى عصر الانحطاط حقاً يكون حين لا نكتب صحيحاً بلغتنا ، فيصح فينا قول المتنبي : قد أفسد القول حتى احمد الصمم .

ان لغتنا لغة ايجاز ، بل قل لغة اختزال ، فما علينا إلا ان نتبحر ، ونقرأ كلام الفصحاء لتصح عبارتنا . ان من لا يكتب صحيحاً ليس بكاتب ، ولو نطق بحكمة سليمان وفلسفة توما وابن رشد .

كنت أردت ، اولاً ، ان اجعلها «من الجراب» ولما وجدتني محتاجاً الى عدل وضعتها في محلها هذا. واعدكم، منذ الآن، بأن اكون اكثر وضوحاً بعد اليوم، فلا أحوج احداً منكم الى الاستفسار والاستيضاح ... ان للغة اصولاً وقواعد يجب ان تحترم، وان اولى الكتب بالنقد الصارم أثر فني كرواية «الحب أقوى». واني لأعتذر للصديق العزيز الاستاذ رئيف اذا كان يعد عملي هذا اساءة . ان من يعطي كثيراً يطلب منه كثير. ورئيف أديبنا المرجّى فليدقق قليلاً . أما صاحبنا ز .. فأشكره جداً لأنه أثار هذا الصيد ...

حاشية ـ كتب إلي « قارىء » ـ لا أدري لماذا استحى باسمه ـ يقول : إذن كيف نعبر اذا اردنا القول : وكاد يجن هو الآخر .

الجواب : وكاد يجن هو ايضاً . ان ايضاً لم تخلق إلا لمثل هذا المحل .

مذكرات الأرقش

لميخائيل نعيمه

ميخائيل نعيمه أديب مسكوني، ولا ألقبه بالاستاذ لأنه لقب عمّ حتى خمّ. ولا أسميه فيلسوفاً لانه أديب قبل كل شيء، وتظل صبغته الادبية ثابتة مهما غسلها وطهرها بزوفى الفلسفة. وهذه المذكرات الارقشية، بدأ بهـــا الاديب الكبير، في فجره الادبي، وقد قرأت منها فصولاً منذ ثلاثين سنة، وها هو قد أتمها لتخرج سفراً صغيراً في حجم اوراقه ولكنه كبير بما يحتوي عليه من الفلسفة النعيميّة التي أحبها قولاً واكرهها فعلاً.

على «الجندي المجهول»، و «مذكرات الارقش» و «العاقر» و «الغربال» أسس ميخائيل نعيمه صرح شهرته القلمية، ولسنا نقول بدعاً اذا ما قلنـــا ان مذكرات الارقش ــ لولا حوادثها ــ هي مذكرات الاستاذ نعيمه، انها مذكرات أديبنا في مبادئها العامة لا في حوادثها الخاصة، ولا غرو في ذلك فكل ما يكتبه الفنان من خيال او واقع هو الفنان نفسه. فالنحلة حين تجني ما تجنيه من الزهر لا يكون أرياً حين تمتصه، ولكنه يصير حين تتمثله وتمجّه عسلاً شهياً فيه دواء نافع للناس.

لا استطيع تلخيص فلسفة نعيمه بمناسبة الكلام عن كتابه هذا، فهي متنوعة الالوان تتناول اكثر شؤون الحياة، وتنظر اليها احياناً نظرة لا تتفق مع نظرة البشر العاديين مثلنا!! فالموت في نظر المؤلف إكمال الناقصين، والناس اولاد الذين لم يدركوا رشدهم. ان الصوفية والمحبة ومقابلة الشر بالخير هي قوام الفلسفة النعيمية، ولعل هذه النزعات جاءت الاستاذ من الروسية التي تعلّم في مدارسها وقرأ كتابها

العظام . ولكن لماذا نبعد، بل لماذا نفتش عن جذورها في الغرب؟فهذه الفلسفة، فلسفة التغاضي والغفران، لبنانية يوحي بها وادي الجماجم وذرى صنين. فالموت إكمال الناقصين عقيدة لبنانية تعتقدها فئة غير قليلة في لبنان... وكذلك الافكار الخيالية التي يناجي فيها البحر بلسان الارقش :

« يا بحر يا قلبي وقلب الاله . يا نائماً لا يستيقظ ، ومستيقظاً لا ينام » .

« أبديتك لحة، ولحتك أبدية . احبك ايها البحر . أحب سكونك الثائر ، وثورتك الساكنة ، فثورتك ثورتي، وسكونك سكوني. فنحن بحران ايها البحر، ولكن الارقش هو البحر الاوسع والاعمق والأبقى. فأنت يأتيك يوم تتقلص فيه وتنضب ، أما الارقش فـــلا يتقلص إلا لينتشر ، ولا ينضب إلا ليمتلىء بما لا ينضب » .

شؤون وشجون شتى يعالجها الكاتب بلسان الارقش، وانت تشعر حين تقرأها انك التقيت بها في مكان ما . أجل انها فوق ادراك الشخصية التي اختارهـــا المؤلف لبث مثل هذه الفلسفة الغريبة . انها افكار مثالية كالتي تعود ان يعالجها ميخائيل وإن لم يكثر من الصوفية في هذا المؤلف ، فهي لا تطغى هنا كما تطغى في مؤلفاته الأخرى . فها هو ينحدر من كهفه ويرى الناس وخصوصاً العمال ، فيخصهم بفصل شائق. كأني به قد رأى بعينه نقاوة اليد العاملة في قرية بسكنتا حيث تحرث الايدي الخشنة وتنقّي وتشذب ، وتداوي تلك الجنات الزهراء فتفيض على البلدة خيراً وبركة ، فقال بلسان ارقشه :

« اليوم عيد ـ عيد العمل ـ والارقش عامل ، ولكن العيد ليس عيده . وأي يوم هو عيدك يا ارقش ؟ .

« انت وحدك بين كل ما في الأرض من آدميين لا عيد لك . وهل العيد إلا ان تستمتع ولو بنعمة واحدة من نعم الوجود ؟ ! أما نعم الوجود جميعها فمن ذا يستطيع ان يستوعبها في يوم واحد، او عام واحد ، او عمر واحد ، بل في الف عمر وعمر ؟

«وأعياد الناس مع ذلك هي أعياد عيون، وآذان وأنوف، وجيوب، وبطون».

ثم يعدّد نعم العمل حتى يقول :

«يا نعمة تلجم البرق فتجعله مطية للفكر وسراجاً للعين،يا نعمة العمل الخلاق يا اكبر نعمة.بماذا أكافىء الذين زرعوا وحصدوا فأكلت،والذين نسجوا وخاطوا فاكتسيت، والذين خلقوا الحروف والمطابع والورق فتعلمت وقرأت وكتبت».

وقبل ختام مذكرات الارقش نسمع لغة انبياء التوراة ولهجتهم وتقريعهم كما في (الصفحة ١٢٦) .

وبعد، فقد نسيت ان أعرّفك بالارقش . الارقش خادم في قهوة لا نعرف من أمره، في اول الكتاب،غير ان له مذكرات عثر عليها بعد اختفائه.أما في الختام فنعلم انه رجل ذبح عروسه ليلة الزفاف ، وترك قرب سريرهما هذه العبارة : « ذبحت حبي بيدي لانه فوق ما يتحمله جسدي ودون ما تشتاقه روحي » .

اراد الاستاذ ان يجعل من هذه المذكرات قصة ، فنعمت القصة كانت لو لم تظهر شخصية نعيمة فيها ظهوراً علنياً . اما مبادئها فلست اناقشها لان الآراء لا تفرض فرضاً، ولكنني اتعرض قليلاً،وقليلاً جداً، للعبارة،فما الذي حمل الاديب الرصين على القول : كلني اليوم اضطراب . فلو كانت «كلني» من العامي الفصيح كغيرها مما استعمله لاستملحناها ولكنها ليست كذلك . فنون الوقاية لم تخلق لتقي الاسماء من الكسر ، لان الكسر من خصائصها . ثم قوله بعد ذلك قوقعة الدواليب ، وصوابها القعقعة اذا كان يريد هذا ، ثم قوله في مكان آخر : تحدق بي من خلف اهدابها ، وحقها ان تكون تحدق إلي ، ثم قوله : لا تنبح يا أباه ، فيا أباه غير مألوفة قبالة يا أماه . واذا كان استحلى الندبة فما يكون عليه إلا ان يقول : يا أبتاه .

ان كاتباً عظيماً كميخائيل نعيمة.يطلب منه الكثير لانه قدوة للناشئين ، فاذا ما تجاوز حدود اللغة شبراً اجتاح اولئك حدودها وتخومها .

خمسة أيام في ربوع الشام

١

كنّا ننتظر من «معلّم المعلمين واستاذ المربّين !!» فؤاد افرام البستاني كتاباً أجلّ من هذا شأناً، فـ«خمسة أيام في ربوع الشام» عنوان مغرٍ، يوهم سامعه، قبل أن يقرأه، أنه مقبل على قراءة وصف لما شاهد استاذ الجيل!! في هذه «الشطحة» اللطيفة. ولكن الأمل يخيب حين تقع العين على هذه العناوين المضحكة المبكية. وكأن المؤلف، حفظه الله، ونفع لبنان بعلمه، وقد شعر مثلي بما في هذه العناوين من سخف، فأراح القارىء من رؤيتها مجمعة في فهرست، وحسناً فعل.

وأما وقد شوقناك اليها، فهاك، اولاً نموذجاً منها ولعله ابرعها!!: رحلة الموزاييك في سيارة بويك. وهذا الفصل هو فاتحة الكتاب فقل معي احسن الله الخاتمة. افتتحه الاستاذ بقوله:

خمسة أيام في ربوع الشام !

وما دمنا على التقليد الجاري في تسجيع العناوين فلم لا نقول: «احاديث السندباد في جزيرة ارواد»، او «العود المأنوس الى ساحل طرطوس[1]». ثم حقق الاستاذ القول ومشى على مهل يقصّ على هذا الهنداز ويقول: نسج العفاريت في مغازل عمريت، وبيوت وقباب من طين وتراب، وشجر وماء في حلب الشهباء، ومن رامیتا الفنيقيين الى عاصمة العلويين، وانعطاف الطريق الى قبر الزنديق... عفواً، نسيت: الراحة والإيناس في حمامات بانياس الخ...

---

(١) خمسة أيام ص٣.

لقد حرت في أمر هذه العناوين ولم أدر على ما تدل .ففؤاد، كما عهدته ، من ذوي الذوق السليم ، وظللت أحسبه يهزل في سجعه هذا حتى بلغت آخر كتابه وقرأت : «وفي رواية الأمير المؤرخ – يريد المير حيدر – نكهة عتيقة ،وسجع ابتدائي ،لطيف[1]» .فأيقنت اذ ذاك أن الأمرمنه هو الجد،فهو اذن يحب السجع ويريد أن يبدعه «ثنائياً» لا ابتدائياً ... ألسنا في عصر القنابل ؟فلماذا لا نصنع من السجع قنابل ذرية ، نبيد بها من نشاء ؟..

وشاء الاستاذ الكبير ! أن يضم كل شاردة وواردة في كتاب « خمسة أيام » فشرع يعدد لنا في فصل «رحلة الموزاييك» كل ما مر به هو وتلاميذه وتلميذاته من مدن الشط اللبناني ، اسمع كيف قال : «هذه قهاوي نهر الكلب ... وهذه جونية ... وهذهطبرجا ... وهذانهر ابراهيم ... وهذه جبيل... وهذاساحل البترون...وهذه طرابلس ...وهذه بركة البدّاوي...وهذا النهر الكبير[2]...

ثم يعود الى مثل هذا الاسلوب الرائع الجميل مبارياً السيّارة البويكية ، ولا عجب في هذا ، ألسنا في عصر السرعة ؟

لقد ذكرتني هذه الهذه وهذه وهذه بما كنت اسمعه، حين كنت صبياً ، من صاحب صندوق الفرجة – صندوق الدنيا بلغة مصر– . تفرج يا حبيبي وشوف، تعا تفرج يا سلام ، هيدي عبلة بالتمام ، وهيدا عنتر الدرغام ، هيدي عندك سطنبول ، هيدي لندن ياسلام ...

وبعد، أليست الطرافة من مقومات كتب الرحلات ؟ فأين هي يا ترى في هذه الرحلة البستانية الجديدة؟ أفي ما شاهده الاستاذ في «سراقب» من اسلوب جديد للاستقاء لا يعرفه، ففهم حين وقعت عينه عليه، الصورة الشعرية في قول عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم

اما كيف ؟ فاسمع استاذك يخبرك : «يركب أحد الولدان حماراً او بغلاً يشد في جلاله حبل الدلو ، ثم يسوقه مبتعداً عن البئر فتصعد الدلو حتى الحافة

---

(١) ص ٢١٢ (٢) ص ٦ و٧

فيتناولها أحد المستقين ويفرغها في دسوت النساء المزدحمات على الدرج . ويعود الحمار أدراجه فتنحدر الدلو على مهل[1]» .

حقاً انها ساعة فيض، اذا كان لأساتذة الأدب ساعات فيض ... وحقاً ان الغربة تلقح الأذهان الثقافية فتنتج لنا غلماناً خيراً من غلمان زهير ... والا فكيف نفهم بيت عنترة لو لم يرَ الاستاذ فؤاد حمار سراقب ؟

ان كتاباً مثل هذا، يا معلم اسرائيل، يكتب دون تجشم أخطار ارواد التي نجاك الله منها، وأنت فيه تحاول التأريخ لا الوصف المطلوب من السوّاح. انه سياحة في الكتب لا في دنيا الله الواسعة، والأولى أن تسميه «خمسة أيام في كتب الانام».

قد يقول غيري: هذا ما يسمونه الاسلوب العلمي، أما أنا فاشهد أنه يدق على فكري، وأرى، وقد أكون على ضلال، ان من يعجزون عن الاسلوب الشخصي هم الذين يتحصنون في قلاع الاسلوب العلمي المنيعة ...

اعجبني ما قرأته في هذا الكتاب عن شاعر الطبيخ الحمصي، فهو وان يكن منقولاً كغيره من تاريخ المدن، ففيه فضل انقاذ قارىء هذه الرحلة من الاختناق في هذا المحيط التاريخي المقتّم ...

وشاء الأستاذ أن يتظرف فتغلغل، كعادته، في أنفاق الكتب القديمة يجمعاً من هنا وهناك ما ذكر عن الحمصيين من نوادر المغفّلين، وقد نسبها الى اصحابها ابراء لذمة البحث العلمي ... وكأنه فطن الى ان ما ذكره من هذه الأخبار قد جاء فاضلاً على الكفاية فحاول أن يجبر خاطر الحمصيين بذكر بعض النوابغ فقال: «ان اسرة اليازجي حمصية الاصل وان تكن لبنانية المقام، وكذلك القول عن المعلم بطرس كرامه، فانه نشأ في حمص قبل أن يتصل بالأمير بشير الشهابي الكبير[2]».

لا أدري لماذا لم يأت على ذكر أمين الجندي، وهو شاعر حمصي مشهور ومن معاصري كرامة واليازجي، بل كيف لم يأت على ذكر ديك الجن الحمصي الشاعر الاشهر . ولكن الأمر يهون متى علمت ان الاستاذ لم يرض لحمص ببشر عاديين

---

(١) ص ١٣٥ (٢) ص ١٧٧

مثلنا . فراح يقلب صفحات مروج الاخيار – السنكسار – ليعود ظافراً لحمص بشهداء أبرار أطهار مثـــل البابا نيقيطيا ، والقديس غلقتيون وامرأته أبيسا ، والقديس اليان المتطبب، أشهر شهدائها[١] .

وأخيراً بعد أن أضنته هـذه الرحلة في بطون أوديـــة التاريخ التي تجشم اهوالها – وقد يجشم الهـــول الاديب المورخُ – قال لنا : ها ان الليل يتقدم ، وتاريخ حمص طويل ،وكذلك الاحاديث في سكانها، ونحن على سفر في الغد نحتاج الى راحة وسكينة، فلا بد من النوم[١] .

نوم الهنا يا سيدي، تصبح على خير، والى اللقاء .

٢

ما أبطأنا على الاستاذ الجليل الا مكرهين، ومن حضر ما غاب ، فلنبدأ .

لقد صعب على معـــلم المعلمين الخلق في « خمسة أيام » فالتجأ الى خُنكليس – الجري" – التاريخ وسردينه ،وقديده على اختلاف انواعه . والناس يرتجون من الرحالة أما السمك الطازج أو اللحم الطري. يحيرني جمود صاحب «لماذا» في هذا الكتاب، فهو يكاد يكون فيه كابي منذر بشار ... ترى ألم تسر" اليه تلك السهول المترامية الأطراف بكلمة طريفة ؟ ألم تقل له تلك الآثار شيئاً يقوله للناس ؟ ألم يقع في تلك الرحلة على غير ما احتوته الكتب ؟ لقد كان كالبو" في ذلك الدو"... كان رجلاً من حبر وورق ، بل يا ليته كان كذلك ولم يجمع في كتابه الاضداد : من كلمة سوقية الى كلمة لغوية، فمن دسوت اللبن الى «سوقا للامتيار شهيرة» ، ومن كبش العليق ، واشيار ، وطرابين، وشعشوع، زمزريق (ص ١٠٩) . الى «الزيّافة» العنترية التي جاءت في كلام معلم المعلمين كرقعة جديدة في ثوب بالٍ ...

أما الجمل الضعيفة التأليف فيليق بها تحريف بيت النواسي: ذكرت شيئاً وقد

(١) ص ١٧٧ و ١٧٨ (٢) ص ١٧٩

فاتتك أشياء ... لانها لا تحصى .

قال الاستاذ ، نفعنا الله بعلمه : «فخفر الحـــدود صورة الدولة» (ص ١١) والصحيح خفراء لا خفر .

وقال: «هو النهر الابرش . وقد قطعنا احدى سواعده من دقيقتين» (ص١٢) متوهماً أن سواعده جمع ساعد، بينما هي جمع ساعدة، ولهذا وجب القول: احدى سواعده . ثم ليته قال منذ دقيقتين، لتصح عبارته ويزول اللبس .

وقال : «ونحتل الثاني في جمهور الطلاب» (ص ٢٣) والصواب بجمهور .

وقال : «وفيها العزبان» (ص ٢٤) فكان كلام العوام أصح من كلامه ، لانهم يقولون عزّاب. وقال: «وتراكم البيوت بعضها فوق بعض» (ص٢٨)، والصواب: تراكم بعض البيوت فوق بعض ، او تراكم البيوت فقط ، فمعنى ركم الشيء وضع بعضه فوق بعض .

والذي يتفاصح ويعنى بالتدبيج، كما فعل الاستاذ في هـــذه الصفحة لا يغض النظر عن قـــوله : «مشحات الغيوم الجهم، ويفقش فيها الموج مشعّاً صافقاً» . فالفقش للبيض، والمشحة سريانية لا عربية . أبعدها الله عني وعنه ...

وقال : «وكان للمطران ابراهيم أن يستدعى الى حلب، فينتخب» (ص٦٢). لعل هذا التعبير فينيقي ؟ أما في العربية فيقال : وكان قد استدعي الخ . وقال في هذه الصفحة ،متحدثاً عن النور : «يتخلل من النوافذ» (ص ٧٢) وهو تعبير فاسد اذ يقال : تخلله لا تخلل منـــه . ثم قال : على «نحو المعروف» (ص ٨٤) والصواب : على النحو المعروف .

وقال : «يقصدها الملوك والامراء من أقصى الحدود ، وتمر بها جماهير الزوار هدفاً من أهدافها في الأراضي المقدسة» (ص ٨٦) أما كيف تمر بها هدفاً فهذا مما لم أفهمه ايضاً من كلام الاستاذ .

وقال : «حتى تجمع شباب اللاذقية» (ص ٩٤) لست أدري من قال له أن كلمة شباب خطأ حتى صححها في آخـــر كتابه وجعلها «شبّان» . ألا يذكر «معلم الجيل» قول السموأل : شباب تسامى للعلى وكهول ؟

وقال : «حتى لا يكاد يبدو» (ص ١١٠) وصوابها حتى يكاد لا يبـدو .

وقال في هذه الصفحة أيضاً : بيد أن الحقائب مشتملة على الزوادات» . لا أدري من أين جاء بهذه الزوادات ، زاد الله في عمره ومعرفته . انها من فصيح «ستنا» رحمها الله . وقال: «ينصرفون أكثرهم الى الزراعة في وادي العاصي» (ص١١١) وحقها أن تكون وينصرف أكثرهم ، فنحن في عصر الددت .

وعاد ايضاً الى القول : «مشحات الكلإ والشعير» (ص ١١٩) فمن مشحات غيم الى مشخات شعير ، ثم لا أدري الى أي مشحات اخر يؤدي به المطاف ... ترى أعجزت اللغة عن لفظة تؤدي معناه ؟

وقال : «وهو غريب فيمن يعيش في مثل بيئة حماة جمالاً طبيعياً ، ومناخاً سهلاً الخ» (ص١٥٠). لعله اراد شيئاً لم يحسن التعبيرعنه ،فوجه الكلام هو:وهو غريب فيمن يعيش في بيئة مثل بيئة حماة جمالاً الخ ، أي بزيادة كلمة بيئة قبل مثل.

وقال: «يؤمونها لبيـع منتجاتهم،ولا سيما الخيول المشهورة بها حماة،ومشترى حاجاتهم» (ص ١٥٤) . فاضطربت جملته لانـه فصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجملة اطول من شهر الصوم .

وقال : «الدجاج المحمرة» (ص١٥٨) مع أن المطاعم تكتب «دجاج محمر» ! وكيف ينسى وهو استاذ أدب ، ومصنف «الروائع» ، قول صاحبه الأخطل : صاح الدجاج. وقول صاحبنا ابي النواس: صاح الدجاج ببشرى الصبح مرات...

وقال : «متمايلات بالقساطين الزرق على الشراويل الحمر» (ص ١٧٠) فاذا كان يريد الشراويل لبنانية فهي لباس الرجال ، فلماذا ابتعد عـــن السروال ولم يقل كالمتنبي ، وبديع الزمان في مضيرته : ودخل في سراويلها عشرون ذراعاً .. ثم أين هذا من قول الريحاني : «وشمّرت بكرم فضّاح» ؟..

ان رحلة الاستاذ، على كثرة عـدد صفحاتها، لاتساوي صفحة أو صفحتين مما كتبه الشدياق والريحاني في هذا الموضوع .

وقال : «يستحر الجوع» (ص ١٧١) ولعله اغتر بقول المتنبي : بأجسام يحرّ القتل فيها . ان الجوع يبرّد ولا يحرّ ، فلماذا رغب في فعل حار ؟

قد يقول بعضهم : لماذا كل هذا التشدّد ؟ والجواب هو أن البلاغة تطلب من رجل يخرّج معلمين للوطن، فاذا كان هو هكذا فكيف يكونون هم ؟!

وقال : «وكأنه يتشامخ مترفعاً أن تمسه» (ص١٩٥) . ان فعل ترفع يتعدى بعن كقول المتنبي: «ترفع عن عون المكارم قدره ...» فكيف ينساه المعلم وهو قد نسخه لروائعه ؟

اما الجمل المخلّعة والكسيحة التي لا تقوم على أمشاط أرجلها فقد ضربت عنها صفحاً لانني لست مسيحاً لأقول لها احملي سريرك وامشي .

اعجبني الاستاذ حين وقف عند المعري وأخذ يعلّم شيخ الدهور القياس... ويناقشه في الملائكة ... والجن . فعل كل هذا في رحلة دامت خمسة أيام ، فكيف لو كانت اسبوعاً أو اسبوعين ؟ أفما كان أحرى بمعلم الجيل (!) ان يصف لنا ما رأى لا ما قرأ ؟ أيظن قراء كتب الرحلات طلاب بكالوريا ، أو ليسانس كلية الآداب الشرقية الليلية ؟

ان رغبة معلم المعلمين في تكبير حجم كتابه هذا حملته على نسخ ما نسخ من هنا وهنالك حتى أدت به خاتمة المطاف الى الأخذ عن تاريخ المير حيدر. واذا كان له عـــذر على هيمانه في أودية تاريخ ارواد فأي عذر له في ما نقله عن بعير بيعر ؟

ولكن الاستاذ ، حرسه الله، تعود اللمّ والجمع في كتبه ومقالاته جميعها — ما عدا قصته «الماذا» — وعادة البدن لا تتغير ...

لما قرأت عنـــوان «أحاديث السندباد في جزيرة ارواد» انتظرت عجائب غرائب ولكني لم أظفر بشيء غير وضع الاستاذ كلمة «مثل الزيت» بين قوسين، ثم استعماله ما استعمل من ألفاظ سوقية . . . وأغرب من هـــذا كله ان يعمل «اصلاح خطإ» لكتاب لا تخلو صفحة منه مـــن ركاكة أو خطإ ، فكتاب عليل سقيم ككتاب خمسة أيام يحتاج الى خمسة أعـــوام في مصح ضهـــر الباشق أو الشبانية ... لا الى اصلاح خطإ .

ان كتب الرحلات تحتاج الى طرافة وظرف ، والاستاذ المحترم يعرف هـــذا

ويحب أن يتظرف،ولذلك جاء بتلك العناوين المسجعة،وبنقل ما نقل عن شاعري حمص وحماة، فصح فيه قول المثل : العين بصيرة ولكن اليد قصيرة ...

وأخيراً اقول: لم يكن هذا الكتاب ليستحق النقد لانه هش فاض ٍ،فخير ما فيه تحقيق تأريخ ارواد ... أقول هذا بالنسبة الى معرفتي أنا بالتاريخ ، أما رأي الدكاترة حتّي وزريق ورستم فلا أعرفه .

وهنا يحق لي أن أتساءل : ترى ماذا يقول مؤرخو النهضة الادبية ، بعد عشرات السنين،اذ يقرأون كتاب،«خمسة أيام في ربوع الشام»؟ ماذا يقولون حين يعرفون من مطالعته أن الاستاذ فؤاد افرام البستاني كان مدير دار المعلمين الصغرى، واستاذ العربية وآدابها في النصف الثاني من القرن العشرين ؟

اللهم نجّ لبنان من تلك الساعة ، وأجز عنه تلك الكاس ...

مذكرات الاستاذ كرد علي

- ١ -

موضوعنا كتاب واحد ولكنه في الحقيقة اربعة كتب عدد صفحاتها ١٣٢٠ من القطع الكبير والحرف الدقيق . لقد غلب على كتب المذكرات ان تكون مذكرات فقط ، اما مذكرات « الاستاذ الرئيس » فمواضيع شتى لا يربطها هذا العنوان . ففيها تذكارات رجل يحبو الى الثمانين فدوّن كل ما مر على رأسه من احداث،وكل ما عانى من شؤون وشجون معلقاً على ذلك كله تعليق مفكر بصير يشارك في كل موضوع حتى الفلسفة،وان زعم انه يكرهها . وفيها الى جانب ذلك مقالات ومحاضرات لغوية وغير لغوية ليس بينها وبين المذكرات أبعد النسب...

صرف الاستاذ كرد علي حياته مناضلاً ومجاهداً في خدمة الوطن،ولم يكن بينه وبين الشهادة غير خطوات شاء القدر ألا تكون لتظهر الى الوجود «مذكرات» تدل على نواحي تفكير الانسان جميعها ، وعلى علاتها ... فمن يقرأ مذكرات الاستاذ الجليل محمد كرد علي لا يعرف رجلا واحداً ، بل يعرف رجالاً ودولاً وشعوباً عرف الاستاذ من ميولها الشيء الكثير .

فمحمد كرد علي رئيس المجمع العلمي الدمشقي الدائم، وعضو المجمع العلمي الملكي المصري ، قد استوزر مرات ، ولعله يحق له ان يقول مع الطغرائي :

تقدمتني أناس كان شوطهمُ وراء خطوي اذا أمشي على مهل

وقف الرجل حياته كلها على العمل المطرد ، طاف العواصم قديمها وجديدها واضعاً قبالة عينيه جميع حاجات أمته . وها هو في قيلولته يكتب «مذكرات» حياة تنضح ألماً ، وقد أفلت صاحبها من خروم شباك اعدائه وحساده .

عايش الاستاذ دولاً عظيمة : نشأ في عهد الاتراك وتعلم في مدارسهم ، فأتقن لغتهم كما أتقن الفرنسية والعربية ،ثم رأى الدولةالتركيةتسقط، والدولةالفرنسية تنتدب على سوريا ولبنان،ويلي هو الاحكام.ثم عاين تقلصظل الانتداب،وأبصر الاستقلال وما تبعه من انقلابات.وها هو يحدثنا فيهذه الكتب الاربعة التي سمّاها «مذكرات» عن جميع من عرف وخالط من رجال أمر ونهي واصحاب سلطان.

لست أوافق الاستاذ الجليل على عنوان كتابه الضخم ، فهو جدير باسم أعم من المذكرات لانه تاريخ حقبة من اغزر الحقب احداثاً . وإذا صح ان يسمّى مذكرات فيكون ذلك كتسمية افعال القلوب ، لان اكثر ما خطه قلم الاستاذ صادر عن القلب ... ففي فاتحة كتابه التي سماها «روح المذكرات» يقول لنا : « أصور بهذا التقييد طائفة ممن عشت بينهم صورة صادقة ... ليشاركني ابناء هذا الجيل والذي يعده في الانكار على من اضجروني بقصورهم وآلموني بغرورهم». فهو اذن ، لن يرحم في مذكراته من آذوه .

لست أناقشه فيمن وفيا ذم وقدح ، لان هاتيك الشخوص التي تناولها قلمه بعيدة عني ، لا اعرف عنها ما اعرف إلا بالسماع ، والسمع لا يكفي غيبة البصر ، إلا عند من كان أعمى كبشار ... واذا جاز لنا الحكم «غيابا» قلنا ان ليس عندنا لهؤلاء المذكورين اكثر مما العظام ، وما انبأنا الاستاذ إلا بما شاع وذاع وملأ الابصار والاسماع .

أما اسلوب هذه المذكرات فطلي رائق ، ولعلها خير ما كنت اقرأ للاستاذ يوم كنت اطالع مجلته المقتبس الرصينة (١٩٠٨) . ثم لم اقرأ له شيئاً بعدها إلا فصولاً كنت اتناولها من هنا وهنا .

كان الاستاذ في «مقتبسه» كاتباً موضوعياً.اما هنا، في اكثر هذه المذكرات، فهو كاتب ذاتي . والكتابة الموضوعية لا تلذ لي كالكتابة الذاتية ،وان كان غيري يبتهر بها ويسميها « اسلوباً علمياً » ، ستراً لعورتها وثقل ظلها وفجاجتها .

ان صاحب المقتبس، اخا الاسلوب العلمي طول الحياة ، قد ادخلته مذكراته في عداد الهجائين ، وكثيراً ما يستحلي الناس الهجاء . ولست اتجنى على الاستاذ

الجليل ــ على غير معرفة ــ بما زعمت، فهو في مقدمة كتابه يقول: «ولعلي تعمدت هتك سترهم لانهم يهتكون بأعمالهم ستر هذه الأمة ولا يبالون» ثم يختم تلك المقدمة بهذه العبارة: «الجهر بالحق من اول مراتب النهوض، والساكت عن الحق شيطان أخرس».

لقد انكببت على مطالعة هذا الكتاب، مذ تفضل الاستاذ الجليل باهدائه إليّ، وسألني في رسالته لي التي بها شرفت، ان أكون ناقداً لا مقرظاً. فغير قليل ان يقدر كلامي رئيس مجمع علمي طائر الشهرة، فكأنه بهذا قد جعلني من «خالدي مجمعه الموقر». وأنا بدوري لم أخلع عليه غير لقب الاستاذ، وان كان «صاحب معالي سابق»، الا لأنه صرح في فصل ــ لقب أسرتنا ــ ان كلمة الاستاذ هي أحب الألقاب اليه. ولست استغرب هذا منه، أفما سبقه الخليفة عمر بن عبد العزيز الى مثله، وحرم كل شاعر مدحه ولم يسمّه ابن ليلى؟

لقد رأيت الاستاذ في هذه المجلدات الاربعة يتبع الاسلوب المقفعي قصاً وتعبيراً، فالانشاء ساذج عاطل لا تزيين فيه ولا تجميل، لأن المؤلف يحب الواقع ويكره الخيال، وقد أشار الى هذا حين علل جنوحه عن القصة بقوله: «لاعتقادي انها مختلقة. والاختلاق مما تأباه طباع من اعتاد التدقيق في النصوص». فهو إذن واقعي في كل شيء حتى في الانشاء والموضوع. يكره التجمل ولا تطيب نفسه لما يخالف الحقيقة. ولعل هذا كان سبباً أولياً في تكثير اعدائه وتقليل أصدقائه، فهو، كما بدا لي متبرم، لا متشائم. فالمتشائم لا يرضيه شيء، أما الاستاذ فراض عن أشياء كثيرة وان كره أشياء وثار عليها. انه عدو التقاليد البالية والخرافات السمجة والآراء الخاطئة ــ راجع صفحة ٨٦٢ و ٨٧٢ و ٨٨٣ و ١٠١٤ ــ فهو يهدم ويبني بجرأة. حتى أنه عدّ ايداع مال المسلمين في المصارف الاجنبية بدون ربا من «الحنبليات الضارة» وتمنى لو أخذت الفائدة وأحسن بها على البؤساء والمساكين. وهذا والله عين الصواب بل هو الزكاة.

والاستاذ يغضب بل يثور على من ولوا الاحكام لتوظيفهم غير ذوي الكفاءة، «وأخذهم من مطرودين من شركة ماكنات وزيرين في عهد الانتداب». ثم يعالج

تضخم الموظفين في سوريا ويرى الاقطار العربية كلها في هذا سواء .

وعدنا الاستاذ في مقدمة مذكراته « وقد رأى الدنيا مهزلة ، ان ينزع قيوداً قديمة أثقلته مراعاتها فهو يريد ان يهزل وان يسخر ، وأن يضحك وأن يبكي » . أما انا فقلما رأيت سخراً وهزلاً ، ولم أرَ لا ضحكاً ولا بكاء بل رأيت ألماً مرّاً ، وتهكماً كأنه الجد ، وهو غير لاذع . أما حين يحمل على من أساء اليه فتخاله بركاناً يقذف الحمم ، يسمي الاشياء « أبشع أسمائها » حين ينتقد الناس وعاداتهم ، ويرينا صدراً رحباً يتسع لكل جديد إذا لاءم المحيط ، ولكنه لم يرَ في الشعر الرمزي خيراً ، كما رأى أن ما كتب في مناقب الاولياء والصالحين ، هو أبشع النثر. « أما أبشع الشعر فهو أماديح الأمراء والكبراء » . وأما انا فقد كنت أتمنى جداً ان اعرف رأيه في كتب المناقب والمثالب معاً ..

وبعد ، فكتاب الاستاذ الجليل محك رجال وأجيال وبلدان واحوال ، يحمل العبر ويحدثك فيغريك ، ويسليك ويفيدك . ولا تمله ـ إذا كنت غير عالم لغوي ـ إلا في تلك المحاضرات التي لا محل لها من الاعراب في هذه المذكرات ، ففي هذا المؤلف الضخم فكاهة ونكات وملح ، وفيه دراسة شخوص وتحليل نفسيات بمقدار ، ومواضيع تعالج جميع الشؤون العالمية ، وإننا لنظلمه اذا عددناه مذكرات فحسب . فمن أمثلة نقده للرجال قوله في الجابري : « فانه خرج من الدنيا ولم يخلف غير ثيابه » امـــا الآخرون فيرى انهم أكلوا الدجاجة بريشها ، وابتلعوا الأمة بعفشها ونفشها ...

- ٢ -

والاستاذ صريح الى أبعد حد حتى تستطيع لأول وهلة ان ترميه بالتعصب اذا كنت متعصباً ، ولكنك حين تقرأ حكمه العادل على ما لا يعجبه في كل ملة ، تقر له بالترفع عن الهوى ، وتدرك أن شعاره : ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة. وفي الحقل الخاص ترى ان الاستاذ الناشر عيوب الناس ، لا يداري عيوبه ولا يحابي نفسه ، وخصوصاً عندما يحدثنا عن نشأة تأليفه وندمه على نشر رواية

«يتيمة الزمان» التي حال غرور الشباب وحب الظهور دون إلحاقها بكتاب «حرية العرب» الذي وأده... ويناوح هذا الاعتراف إعجابه باسلوبه ، حين يحدثنا عن « ملكة الانشاء » وحكاية حاله مع ذلك الوزير المرقعان . ثم قوله في موضع آخر : « اني لا أكتب لأتسلى او أنال شهرة او مظهراً ، وربما كنت أمتنع عن التأليف لو سمعت ان في المؤلفين اليوم من يعاونون ذا الضرب من الكلام الحر» . أما هذا الضرب من الكلام الحر، فيمثل عليه الاستاذ بمسألتين صرف فيهما جانباً من اهتمامه ، وهما : الاستعمار التركي والاستعمار الفرنسي [1] .

وقد رأيته متمكناً ، واثقاً لنفسه بالنصر حين يعارض قول نابغة بنابغة ، فيبدي رأيه بلا وجل مخطئاً من تعود الكتّاب أن يمنحوهم العصمة خوفاً من شهرتهم الطائرة .

قد حسبت حين طفت في مجلداته من الباب الى المحراب انه غير راض عن أحد، وانه لا يعجبه شيء، فكأنه يحاول وضع تصميم جديد لهذا الكون. ومع ذلك أشهد انني قرأت فيها أشياء كثيرة طالما كنت أتمنى ان أعرفها، وان كنت قد استغربت جداً ما رواه عن ذلك القصر الذي يصعد الى الطابق الأعلى منه بالسيارة ! ولكني تقصيت الخبر فوجدته صحيحاً .

وفي هذه المذكرات حكم شتى ، بعضها خطرات أفكار أوحتها الشؤون والشجون ، وبعضها كلام مأثور تصرف فيه الاستاذ فلم يؤده على حقه كقوله مثلاً: الافكار كالجواهر صنها عن القائها في معالف الخنازير . وهو في كل حال يصور لنا أنفسنا عارية ولكن الذين يخجلون ماتوا .

وفي هذه المذكرات ايضاً كر وفر، ورواح ومجيء ، ولهذا تراني أسايره وأماشيه . فبينما نراه ، مثلاً ، يرجو من النهضة الحاضرة خيراً جزيلاً ، إذا به يتأسف لأنه ظل حياً . فهو لا يطيق الحياة بيننا وقد ذهب من ذهب من رفاقه العلماء ... أما نحن فنتمنى طول بقائه لأن مثلنا يقول : من ليس عنده كبير

---

(١) ـ ص ١٠١٠ .

فليشتر له كبيراً . ولعلّي بهذا القول أكرم نفسي، اذ لم أعد ابن اربعة عشر...

اما ما كتبه الاستاذ عن لبنان فله رأيه في ذلك . ولست أناقشه فيه بل لو شاء ان تؤلف جوقة مني ومنه ونغني : بلاد العرب أوطاني ، لما احجمت... أما بعد الاستراحة فاذكره باقتراح الريحاني ... وبتأليفه « وزارة تسلية » في ضيعته « جسرين » . قد يكون تأليف تلك الوزارة والكتب صورة عن الواقع . أفبيست أكثر الوزارات للتسلية ، ان لم نقل ألقاب مملكة ؟ ..

والآن قد حان ان نتحدث عن الاستاذ كرئيس مجمع علمي . فأسلوب الاستاذ في مذكراته هذه مقفعي ، كما قلت سابقاً ولكنه سهل غير ممتنع . وليس يعني قولي هذا أن الاسلوب الوجداني غير طيّع لبراعة استاذنا العلامة . فاذا كنت تظن هذا فانني أدلك على مقاله الطيب « في عشر الثمانين » لتقرأ فصلاً من النثر المنمق الرفيع ، الحافل بتحليل نفسي "يعطيك ما" له الصورة الفنية الكاملة للأستاذ كرد علي.

يكتب الاستاذ صفحات لا تقع فيها على كلمة غريبة عنك ، حتى اذا تذكر انه رئيس مجمع علمي ، كرّ على منجرد هيكل فيقيد الاوابد ويأتينا بـ « شق الابلمة ، وسجيس الليالي ، وأخرة ، وزبر » وغيرها . يكتب بتعبير اليوم ثم يقول: « هل ألفت كتاباً قط ؟ » نعم ان هذا الاسلوب البسيط هو اسلوب المذكرات ، والاستاذ يكتب في مجلداته سيرة حياة ، او تعليقاً على هامش الحياة ، فحسناً عمل حين استعمل ، ولم يتذكر انه رئيس مجمع علمي ، مثل كلمة « صرماية » . فبأي لفظة يمكننا أن نعبر اليوم عن تلك الحمراء التي كانت خير هدية لنا في الأعياد ؟ أنقول الجرموق ، او الحذاء ، او النعل في عصر صار فيه للباس الرجل الف اسم واسم ؟ واني أحببت منه استعماله لفظة «الطاقية» وكلمة «الجرد» اللتين لا يؤدي معناهما غيرهما . أما كلمة «البائغ» وعندنا ما يؤديها ، فلا نقبلها من رئيس مجمع علمي رأيناه ينتقد كلمة مثلها في محاضرة ما مدرج" في مذكراته .

أليس على من يكره الطبع على غرار العباسيين في تعريب الألفاظ ، ويطلب منا ان نقول الطزر للبيت الصيفي ، والشقب للسيفون ، والمشن" للدوش ، وغيرها وغيرها . ثم يصف لنا ما قاساه «المجمعيون» حتى وضعوا هذه الألفاظ ، فاستعمل الكتّاب

بعضها وتركوا أكثرها . أليس عليه ان يدقق اكثر ؟ فلا يتألمن الاستاذ الرئيس لاهمال الكتاب أكثر مسميات الجامع ، فعلى « المجمعي » حين يريد وضع لفظة لمسمّى ان يفعل كالمهندس الذي يخطط الطرق العامة . فهو يسأل أولاً عن طريق القدَم والحافر ، ثم يشرع في عمله . هذا ما أزعم ان على عضو المجمع العلمي ان يفعله ، عليه ان يسترشد بمسميات العوام قبل ان يستشير كتب اللغة. سمى عوامنا « الكريب » ابو الركب . وسألت يوماً بدويّاً من عرب اللقلوق عن سبب غيابه الطويل فقال: مرضت بـ «الهدّة». وسمى الفصحاء هذا العارض الضنك، وأخذها الفرنج عنا بلفظها ، فماذا يمنع المجامع ان تفعل مثل هذا ؟

ومن هذا الباب قول الاستاذ الرئيس المفنّين بدلاً من الفنانين، فكأنه يعارض التيار على غير جدوى، ومن يحاول هذه المحاولة وينعى على الكتّاب عدم التحقيق أفلا يحق لنا أن نطالبه بجمعه مفتي على مفاتي . وبقوله رهبنات من رهبانيات ، وبكتابة جرؤ جرأ ، وباستعمال ينعي والمضارع ينعى ، وبقوله : « ورب قائل يقول » ، مع أن جواب رب يجب ان يكون ماضياً ؟

وألا يحق لنا ايضاً ان نسأله ألاّ يقول : مهما بلغ الرجل من مراتب التهذيب « لا يخلو من نقص » فالواجب هنا إدخال الفاء على جواب مهما . وان جوزوا هذا في الشعر ، فهو لا يجوز في الكلام المنثور لأن المجال واسع لادخال اكثر من فاء . وهذا التعبير الذي يرد كثيراً على أقلام بعض الكتاب لا أراه خليقاً بالرئيس : « يهتكون بأعمالهم ستر هذه الأمة لا يبالون » .

وقال الاستاذ : وكان أحد سادة القرية ابا سعيد درويش عند أبي يجلسان في دهليز بيتنا هناك . فأبا سعيد درويش ليست خبر كان لتنصب ، ولكنها عطف بيان ورفعها واجب . ولا أعد ذلك غير سهو وخطأ مطبعي، وجل من لا يسهو. وقوله : ان هذه الملاحظة اذا صدرت منك يكن لها، والصواب يكون، لأن اذا لا تجزم إلا اضطراراً أي في الشعر فقط نحو : واذا تصبك خصاصة فتجمل . أما حدق بمعنى كرر النظر فتعدى بالى لا بفي ، واخيراً هـذا التعبير « منذ وعيت على نفسي » فهو ليس من العامي الفصيح ليقبل من الرئيس الجليل .

أما التعريب فلي عليه ملاحظة ايضاً . عرب الاستاذ عنوان كتاب انكليزي « جريدة سياسية » والأصوب هنا أن يقال : يوميـات سياسية . أما في تعريب الاعلام فما أعجبني قوله : سان توما داكين ، وقد عرب أسلافنا هذه اللفظة منذ أجيال وقالوا : القديس توما الاكويني ، وهي أقرب الى العروبة من سان تومـا داكين . . .

وأخيراً أقف هنا مكبراً جهود الاستاذ الأجل ، ومقدراً فضله أعظم تقدير ، ولئن جحده شانئوه فالتاريخ لا يبغض ولا يحب وهو ينصف الأديب . أمـا انتقادي بعض هفوات فما كان إلا استجابة للرئيس المجاهد ، واعتماداً على الكلمة التي سبق ذكرها له : مهما بلغ الرجل من مراتب التهذيب لا يخلو من نقص .

ذكرى الاجداد ـ له ايضاً

صدقني إذا قلت لك انني وقفت اجلالاً لهدية المجمع العلمي الدمشقي ، انها حمل ثقيل لم ينقله اليَّ موزع البريد الا بالكد . سبعة ثمانية مجلدات ضخمة ، مطبوعة احسن طبع ، ومضبوطة ادق ضبط ، فحيّا الله رئيس المجمع ورفاقه أبطال الجهاد الأدبي ، وليهنىء ابن الجهم ، وابن حيّوس ، وابن عنين ، والوأواء ، وعبد القادر النعيمي ، بل فليهنىء للأجـداد جميعاً هذا البعث الجميل . فلو أثق أن البعث سيكون لي كما كان لهؤلاء لتمنيت ان تبقى جميع مخطوطاتي قروناً ، غطاؤها العنكبوت وسميرها العثّ . ولكن من يضمن لنا أن سيقوم في المستقبل رجـال ككرد علي ومردم وجبري والحسيني والدهان من رجال البعث والإحياء ؟

حقـاً ان هذا المجمع ، وله مجلاته الرصينة ، ومنشوراته النفيسة ، ليستحق أسمى الاحترام وأرفع التقدير ، ولو كان هؤلاء الباعثون مجد دمشق الادبي في عهد عبد الملك بن مروان لوسّع لرئيسهم الأجل ، وأجلسه حدّه على السرير ، وأقر رفاقه حوله في السماطين . حقـاً انهم كالبنفسجة التي ترسل عبيرها بتواضع عميق .

وبعد ، فكنت قد تصفحت مذكرات الاستاذ الرئيس محمد كرد علي ، وبُثّ ما كتبت من محطة الشرق الأدنى مصدراً بهذه الكلمة : تعودت ان اتحدث ، كما

هو المفروض، عن عدة كتب في ربع ساعة، اما اليوم فلست أتحدث الا عن كتاب واحد، ولكنه كتاب كعشرين من كتب اليوم، فهو أربعة أجزاء في ثلاث عشرة مئة من الصفحات الكبيرة، وإني لأظن ان شيخاً علاّمة جليلاً أنفق الثمانين في خدمة الأدب واللغة اصدق خدمة ليستحق ساعة لا ربع ساعة.

اما اليوم، وقد أصدر حضرته – لا معاليه – كتاب كنوز الأجداد، الذي هو بحق كتاب العام، فأرى ان من حق الأدب علينا ان نستقبله الاستقبال الذي يستحقه.

فكتاب كنوز الأجداد ألّفه لنا كنز حي، أمد لنا الله في أسباب حياته، ليخرج لنا دائماً من ذخائره جدداً وقدماء، كما يقول الانجيل. نعم ان الاستاذ الرئيس لم يكتب كتاباً لم يكتب أحد مثله بعد، ولا عالج موضوعاً لم يعالج، فلهذا الكتاب أخ من قبل، ولكن الجديد فيه هو أن مؤلفه يكتب لنا في موضوع مبتذل فنقرأه كأنه جديد طريف. يصدر الاستاذ في موضوعه عن شيئين: عن شخصية ريّا أولاً، وعن المصادر ثانياً، فإذا تكلم عن معلمه الشيخ طاهر الجزائري صوره لنا تصويراً ناتيء الخطوط. ان سفينة الاستاذ الجليل ذات شعارين، الحب والبغض، ولكن هذا الحب وذاك البغض لا يطوّحان بالسفينة. نعم انها تجري حيناً على حكم الهوى، مقصوراً وممدوداً، ولكنها ما ارتطمت قط بصخور الجور. يظل دائماً حكّمه الحق، فلا يجور طوراً ويهتدي كملّاح طرفة.

تقرأ سيرة الشيخ طاهر، بل قل دراسة تلك الشخصية الفـذة النبيلة فتجد التلميذ قد كشف كل ستر مغطى وأراك استاذه في مباذله وآلته البحترية ...

إن التلميذ يجل استاذه الطاهر ولكنه لا يستر عليه، حين يعدو طوره، مثلاً، ويسأل الطبيب دواء يميته حالاً ليرتاح مـن آلام لا تطاق، ثم يقول للطبيب: ان في الشرع ما يبيح ذلك.

هنا يستيقظ الاسلام الصحيح في صدر التلميذ فيقول في معلمه: وهذا من أغرب ما سمع عن عاقل. فركن الطبيب الى الفرار وحلف ألا يعود الى تمريض الشيخ[1].

---

(١) ص ١٤

وبعد ما أملى الوفاء على الاستاذ الرئيس ستاً وأربعين صفحة من القطع الكبير والحرف الدقيق كتبها في التعريف بعلمه الجزائري، راح يتحدث عن ابن المقفع تحدث من يعرف ما في زوايا صدور النوابغ من خبايا، فختم الفصل بقوله: وبعد فان ابن المقفع في كل حالاته، مجموعة من الكمال المطلق، لا تدري من أي شيء تعجب فيه. وكل ما خص به ابن المقفع من بيان، كان مما يستغرب حقيقة لو لم يطبق على نفسه ما دعا اليه من الأخلاق، فهو في علمه وعمله سواء وغاية، لا يخدع ولا يكذب ... يعمل الصالحات من دون غرض يتوقعه، ويدعو الى الاصلاح ولا غاية له الا رفع شأن جماعة الاسلام. هو روح ندر ظهور مثله في القرون الطويلة [١].

لا تتعجب ان رأيت الاستاذ كرد علي يخالف الجماعة في ابن المقفع، فهو يقدس شيئين: العقل والخلق العظيم، ولذلك تراه في كنوز الأجداد وفي مذكراته عدو كل خرافة. انه في كتابيه هذين ناقد أدبي اجتماعي، انتقد ابن خلدون الذي أجمع الناس على كبر عقله فقال فيه حين رآه يثبت «الكشف» لاهل المجاهدة: «وبهذا التخريف قد أثبت -ابن خلدون- انه من المحافظين ... وكان يسعه لو لم يعتقد في هذه الخرافات أن يطرح هذا المبحث، فينقي «المقدمة» من الوسج والبلّان». وأخيراً يرى أن المقدمة درة تاج اعمال صاحبها، وان هذه الهنات فيها كانت لها بمثابة عوذ لها من العين [٢]. اما في تاريخه الكبير فيراه من المؤرخين المحافظين، وكالذين تقدموه.

ويمشي استاذنا في هذا الكتاب على سننه فتراه طوراً مهاجماً وتارة مدافعاً. يهاجم الخوارزمي، لتحامله على الأمويين والعباسيين حتى يقول فيه: وخير الأدب ما صدق قائله، ومن دوّن الكذب وقال انه أدب فهو مغبون الصفقة [٣]. ثم يؤيد رأيه هذا بالكثير من أقوال الخوارزمي. وهذا يدلنا على تأييد الرئيس للحق أين وجده، وان كان يحلو له دائماً ان يجد مجال القول ذا سعة...

أما الجاحظ فبعدما عظم الاستاذ من قدره ووجد فيه رجل العقل الفذ رأى

---

(١) ص ٦٦ (٢) ص ٣٩٤ و ٣٩٥ (٣) ص ١٩٣

ان لا بد من أن يقعد للمظالم فيقضي بالجاحظ وعدوه ابن قتيبة،فيرى الدينوري رجل جمع لا رجل وضع كالجاحظ ، فيقول في احد كتبه : وكتابه هذا كأكثر كتبه منقول عن غيره وليس له فيه غير سطور معدودة[1] ولكنه، في مكان آخر يعترف له بالتحقيق والتنسيق والترتيب حتى أبرز تآليفه منقحة محررة [2] .

اما في دفاعه عن الجاحظ فكانت عدته من كتاب ابن قتيبة – مختلف تأويل الحديث – فكأنه بهذا يقول له : من فمك ادينك . قال : وما أخذ به الجاحظ بسبب قول الشيء وضده يعدّ من حسنات الجاحظ . وكيف لعمري قضى ابن قتيبة على خصمه في مذهبه هذا القضاء، وهو القائل في عيون الأخبار : «وليس الطريق الى الله واحداً، بل الطرق اليه كثيرة، وأبواب الخير واسعة» . ثم قال: هجن ابن قتيبة الجاحظ وكفره ورماه باعظم كبيرة وهي الكذب، وسجل عليه انه أكذب واحد في الامة لانه كتب اشياء تنفع في تربية العقول، كما كتب كل ما ينفع الدين، وابتدع أدباً يسلّي ويعلم [3] .

ان مثل هـــذا النقاش الرائع الحكيم هـــو الذي يحيي وينعش كتاب كنوز الاجداد، واشهد اني اعرف أكثر ما تضمنه هذا المجلد، ومع ذلك وجدتني أقرأه بلذة ورغبة لأن مؤلفه يستعمل عقله، ولا يؤمن أبداً بكلمة ما ترك الأول للآخر. نعم انه لم يتجرد من عاطفته كل التجرد، وأي ناقد استطاع هذا قبله ليستطيع هو.

وللاستاذ بصر ثاقب بأساليب الكتّاب ولذلك نسب كتاب المحاسن والاضداد لابي الأدب العربي ، غير عابىء بما حام حوله من شك، ولا عجب في ذلك فكل بصير كالاستاذ يرى اذني الجاحظ تظهران من بين سطوره .

وكما اعترف للجاحظ بالمحاسن والأضداد كذلك انكر أن يكون نقد النثر لقدامة . وبناء على هـــذا القياس أثبت ان في معجم الادباء ما هو منحول ، ولا بدع ان صدقت احكامه فالانشاء هو الرجل، كما قالوا .

ودافع الاستاذ ايضاً عن ابن تيمية رجل العقل الآخر فقال : لو عمّت دعوة

---

(١) ص ٨٩ (٢) ص ٩٥ (٣) ص ٨٩

ابن تيمية لسلم هذا الدين من تخريف المخرفين على الدهر، ولا سمعنا أحداً في الديار الاسلامية يدعو لغير الله (١) الخ .

وقد اعجبني رفض الاستاذ الكبير ما نسب الى الصاحب من رد كتاب العقد الفريد كما أعجبتني جداً تسميته المقامة بالقصة المخنوقة . وأعجبني هذا الحكم الصادق : ولو ادعى مدع ان الكتابة ما ختمت بابن العميد ، كما قالوا ، بل بالهمذاني لكان حقاً ومذهباً. فمثل ابن العميد كثار غير قلائل ، وبعضهم اكتب وأشعر . اخملهم تخلف الدنيا عنهم ، وللشهرة اسباب قد تخطىء اعظم مستحق لها (٢) . والاستاذ في كل حال يكره السجع عموماً وسجع الحريري خصوصاً ، ويرى السجع غير صالح ومنافياً للطبع .

وكأني اراه في كنوز الاجداد يحمل بيمينه مصباحاً ويفتش عن رجال العقل فيقع على الراغب الاصفهاني وابن حزم فيدافع عن الأخير بقوله : وعابوا عليه انه خالف ارسطو في بعض آرائه، كأن نقد صاحب الرأي من الكبائر(٣) . ولما أقبل على الذهبي رأى فيه رجلاً ساير العقل فتفرد في تآليفه .

وقصارى الكلام ان هذا العلامة لايمر بشيء دون ان يعلق عليه .يتساءل ابداً ويجيب ، وتلك سمة المهتدين بنور العقل ، ولهذا كان الاستاذ الرئيس في هذا المصنف من تصانيفه النفيسة مثال العالم المفكر والاديب الأريب . كان واقفا على سلاحه دائماً فهو اما مهاجم مبادر ، أو مدافع مناصر . جمع فيه الموضوعية والذاتية. تعاون مع من درسهم تعاوناً كلياً، فأبرز شخصياتهم كالمصور البارع. وقد اوضح لنا هذا في أول سطر من كتابه فقال بعد البسملة :

«يحمل هذا التصنيف سيرة بعض من طالت عشرتي لهم ، واغترافي من معين اسفارهم من رجال الاسلام» ، وتلك سجية الادباء الكبار فانهم يدرسون من هم على شاكلتهم ،فتتجاوب الانغام وتتآلف. ومثلنا على هذا ما قاله الاستاذ في سيرة ابي عبيد البكري : هذا غاية ما عرف من سيرة فريد قطره ووحيد فنه ، ابن

---

(١) ص ٣٦٧ (٢) ٣٦٧ (٣) ٢٤٧

الاندلس العظيم في عهـد ترديها السياسي ، وقد وقاه الله شر السياسة فلم ينغمس فيها كما انغمس اجداده ، واذا لم تكتب له الشهرة في السياسة وفيها مـا فيها من اضاعة العمر على الأكثر، فقد كتبت له الشهرة بتآليفه[1] .

افلا تظن معي أن المؤلف يتحدث عن نفسه من حيث لا يدري، أويدري ؟ ألا يعبر بهذا عن أسفه على أيام ضيعها في ميادين السياسة ؟ وأمـا قوله : رتب ابو عبيدة معجمه على حروف ابي جاد ، فليته ماشى الزمان وقال : «أبجد» ، فكلمة ابي جاد مهجورة ولا يفهمها واحد من ألف ممن سيستنيرون بآراء الاستاذ الرئيس في كنوز الأجداد .

وهناك أيضاً غير هـذه كلمات كانت اضافتها الى جدول التصويب واجبة ، مثل : الا اذا كان ثمة شيئاً لا يعرفه[2] ، فهي شيء لا شيئاً .

وفي ترجمة الخوارزمي عبارة لست أراها صالحة وان كتبها الثعالبي : وكانت حاله مع صاحبها كهي مع طاهر بن شاد[3] لاننا نحن اليوم لا نقول كهي .

وقد وقع أيضاً خطأ فيهذه العبارة: والسلطان لا يأمر ولا ينهي، والصواب لا ينهى[4] . ثم يجب حذف الياء من ابتغي في هـــذه العبارة : ابتغي زوجي قراطيس وقطعها رقاعاً صغيرة[5].

اقول هذا لاني قرأت في آخر الكتاب تصحيح هنات كهذه، فما هـذا خطأ ان هذا الا سهو، وجل من لا يسهو . وقد تكون خطيئته في رقبة المطبعة .

وختاماً اننا لنسأل لشيخنا الأجل الذي لم يسأم تكاليف الحياة كزهير ، ان يعمّر كلبيد ، لأنه ما زال يفوت القرّح المجتمع اشدُّهم في انتاجه الغزير السمين .

---

(١) ص ٢٦٧ (٢) ص ٢٧ (٣) ص ١٩٠ (٤) ص٣١٦ (٥) ص ٣٣٦

شفتان بخيلتان

لرياض طه

عندما أصدرت دار العلم للملايين مجموعة الاستاذ رياض طه القصصية «شفتان بخيلتان» جاءتني تختال كما قال ابن الرومي : خيلاء الفتاة في الابراد .

يحق لرياض طه أن يتيه ويعجب بعرائسه الحسان ، ولكن ليس له ان يحمّلهن في جيوبهن بطاقة حافلة بالابتهار فيجر سلاحه على «مارون عبود» . ظن رياض ، كما ظن غيره ايضاً ، اني شيّخت فاتسع صدري ، وصرت حليماً ، كما قال مرة صديقنا الاديب محمد النقاش ، حين سمعني أثني من محطة الشرق الادنى على بعض الكتب ولا أنتقد الانتقاد المر .

أما ما كتبه إليّ صديقي رياض فما بدأت بقراءته حتى انتفضت كالعصفور بلّله القطر ، وركبني شعور لا أقدر أن أجد له نعتاً . خلت ان الرجل ينعى إلي نفسي ، حين ابتدأ هكذا :

« لزمن خلا كان المؤلفون يرهبون مارون عبود ، فيترددون لدى نشر كتبهم متهيبين الوقعة ...

« أما انا فلم أتهيب ،بل أسرعت الى نشر هذا الكتاب بكل جرأة وتحدٍّ ... وذلك لأن ابا محمد ألقى سلاحه على ما يبدو ... ولانني لست من اولئك «الفطاحل» الذين كان مارون عبود يعترضهم ليفرفك مناخيرهم ...

« مع احترام وتقدير رياض طه . ١٩٥٠/٤/٢٤ » .

والله العظيم ، ما آلمني إلا عبارتان : لزمن خلا ، وكان مارون عبود. لم تكن تهمني لفظة « كان » لما كانت لبطتي تهدّ الحيط ، أما اليوم فكل فعل ماض ،

وخصوصاً كان وخلا وما أشبهها ، يصح بي ان أقول عند سماعها : سمعت بأذني رنّة السهم في قلبي .

ليس. فلندخل الموضوع. قرأت تلك الاقاصيص الرياضية وفي نيتي انأتناول «المهدّة» ولكنني رأيت أمامي بناء طريفاً ، وكاتباً في عز طلعته يرجى خيره ، قد أعرب في محاولته الاولى عن مقدرة فنية في اكثر أقاصيصه . وهذي خطتي مع الثنيان ، أما السّدّس من الكباش وما فوق ، فالأجدى ـ متى أساء ـ ان يجعل عبرة وعظة للطري عودهم . أقول هذا لئلا يغتر احد ان شبابي ولى ، ثم هل يطلب منا ان نحطّم بحق ، وبغير حق ؟ لا والله !

أظن انه حان لنا الآن ان ننقل ما كتبناه بالحرف عن « شفتان بخيلتان » ، بتاريخ ١٤ ـ ٦ ـ ١٩٥٠ ، وأذيع في وقته بن محطة الشرق الادنى ، ولا تزال نسخته محفوظة عندها كما ان الاصل عندي وهذا هو :

«شفتان بخيلتان عنوان اقصوصة جعله مؤلفها الاديب رياض طه عنوانــاً لمجموعة أقاصيص طريفة. قدم لهذه المجموعة القصصي الشهير الاستاذ محمودتيمور، وأثنى عليها بالتي هي اهله. فأقاصيص رياض ذات لون محلي صارخ، وعبارة قصصية حقاً . تمشي القصة على رسلها حيث لا يتكلف رياض طه الخلق، أما حين يحاوله فتبدو الغرابة، ويقع المستحيل الممكن... وكثيراً ما تنتهي هذه القصص بالاطلاع على نبإ في جريدة ، ولا بدع فرياض ممن مارسوا الصحافة ونبه فيها شأنهم .

الحوار عند قصصينا الموهوب طبيعي لو لم يكن يفسده غالبــاً بكلمات لا ينطق بها الناس عادة في المحاورة مثل : لقد ، وان ، وأمثال هاتين .

أما البدعة الجديدة التي لم أرَ مثلها من قبل، فهي ان الاستاذ رياض طه يعارض من قدّم لكتابه بأقوال غيره فيه . فاذا قال تيمور برفق : « وكأن هذا كله قد ألهاك شيئاً ما عن عنصر له مكانته في الفن القصصي ، ذلك هو التحليل النفسي للمشاعر والمواقف والشخصيات » علق رياض حاشية تنقض هذا القول وهي :

نشر الاستاذ صلاح الاسير مقالاً في نقد هذه المجموعة قــال فيه : « ولقد استوقفتني قصة « بعد خيانتها » لانها تنبض بالتحليل النفسي العميق ، دون

تكلّف له او تصنّع » .

وهناك حاشية اخرى يدحض فيها ايضاً كلام صاحب المقدمة . قال تيمور : « ان الحياة على اختلاف ألوانها تهتف بنا ان نوليها حقهـــا من الوصف والعرض والتصوير ، فلا تلفتنا عاطفة الحب وحدهـا » ، فكانت حاشية اخرى للاسير ناقد هذه القصص، وهذا ما أحتاج اليه منها : «ان عنايته ـ أي رياض ـ بالحب في جميع قصصه تصبح حدثاً عارضاً في سياق الحياة الخافقة بألف لون ولون . ومن أجل ذلك يختفي الحب في قصصه ساعة ينبغي له الا يكون... فليس الحب عنده ـ ولله الحمد ـ ضرورة قصصية ... » (المقدمة ص ٧) .

أما الذي لاحظته انا فهو ان القصتين اللتين كتبتا عام ٤٩ هما دون اخواتهما، ولعلهما كتبتا على عجل ، او لتكبير الحجم ، وان كنت أعلم حق العلم ان دار العلم للملايين ليست في هذا على رأي احمد فارس ..

رأيت رياض طه في القصص التي تلائم عمره أبرع منه في سواها، فقصة «بعد خيانتها » تجري على هينتها ، وهذا السير السريع المطمئن من مقومات القصة الفنية ، وهو يدلنا على ان ما ينبع من النفس تسهل تأديته .

قد أجاد صاحب « شفتان بخيلتان » سلمت يده .

هذا ما أذيع بحروفه من محطة الشرق الادنى، لم أزد عليه مدحاً ولا قدحاً. وإنما زدت حواشي الاسير وكلام تيمور لان المجال في الاذاعة لم ينفسح لذلك ، والآن بما اننا ننشر النقد في جريدة صاحب « شفتان بخيلتان » فلا بد لنـا من زيادة ولو قليلة .

قصة « قلب من حجر » جميلة بدايتها ولكنها قصرت عن مستواها في النهاية ولا سيما حين تكلف رياض خلق الفاجعة التي أوحاها اليـك سمك بلده النادر الوجود ـ الهرملاني .

سخيف طلب تلك الآنسة التي علمتها عمتها المقهورة تلك التعاليم التي يقطر منها كيد النساء : عذّبي الرجال يا هيفا ، حطمي قلوبهم ... الخ . طبيعي جداً كان مطلع هذه الاقصوصة، ولو ظل السياق مطرداً لكانت من أروع الاقاصيص.

ومع ذلك اقول: في الدنيا سخف كثير ، فقد توجد واحدة تتمنع وتتأبى كهيفاء ثم تطلب اخيراً السمك الهرملاني ... ولكن وفاء هيفاء لصاحبها يستر عليها .

اما ملاحظاتي على الأسلوب فأرى ان فيه بعض عبارات مدرسية ولغوية يزجها رياض زجاً فتشوه انشاءه القصصي الجميل مثلاً : تغذ في سيرها ، وكزتها بأظافرها ، ثم الفينة المنفلوطيـــة . فقوله تغذ أشبه بقول الشاعر صلاح لبكي امس ، في ذكرى الريحاني :

وأمة طـــارت بهاليلهـا بأجنح الصقر وعزم البزاة

لماذا آثر صلاح بهاليلها ولم يقل ، مثلاً ، مغاويرها ؟ من يدري ؟ وللناس فيما يعشقون مذاهب ... وكذلك لا يعلم أحد اي شأن لرياض في تغذ . فليفعل ما شاء ولكنني أرجو منه ان يــترك السين وسوف في الحوار ، وان لا يكثر من استعمال « إنّ » فهي اكثر مما يلزم . ولينفر من العبارات المعلوكة وليكثر من مثل هذا التعبير : الثغر المتلىء الثائر . أما قوله : احتواها المقعد ، وان قالها شوقي ـ همت الفلك واحتواها المـــاء ـ اضطراراً ، فهي لا تحلو لحسنائه ولا لقصصي من طرازه .

واذا قلت يا رياض رأيت سامياً، مثلاً، فهذا كلام صحيح لا غبار عليه، ولكن لأي سبب تقول : وما دمت أهوى نوالاً . قل أهوى نوال ، لأنه صحيح وطبيعي في وقت معاً . ان نوال ممنوعة من الصرف لانها اسم علم مؤنث . فلو كان زيد اسم علم لامرأة منع من الصرف ، كما قال ابن مالك : أو زيد اسم امرأة لا اسم ذكر .

وفي الحوار الذي تهنأ عليه أحر التهنئة اسمح لي ان أفصّل ما أجملت ، حين كتبت لمحطة الشرق الادنى ، تقول في قصة « يوم افترقنا » : لقد طالت غيبتك جداً يا استاذ ، أين انت في هذه الايام ؟

طيب ! ولكن ألا ترى (لقد) هنا مثل عقدة في قضيب خيزران ؟ثم جواب الاستاذ : والله ، لقد كنت مشغولاً . ألا ترى لقد هنا أبشع وأبشع ! ! ناهيك ان أصول البلاغة لا تدعونا الى استعمال لقد . فبعد القسم بالله لا يحتاج اليهـا .

أنسيت قول النابغة حين حلف للنعمان وقال : وليس وراء الله للمرء مذهب .

نسيت ان أقول شيئاً ، وهو ان شخوصك كأنها ذات وجود ، نستطيع ان نميزها ونشعر كأننا نعايشها ، أي ان بعضها يحمل هوية ـ تذكرة نفوس ـ فيها علاماته الفارقة ، كما ان القارىء ينتقل معك الى حيث تنقله حين يقرأ قصصك، ولا سيما حين تحدد الأماكن ضمن إطار معين .

اهنئك ثاني مرة .

حاشية : أرأيت اني لم أرحمـــك ؟ فأرجو منك ان تعذرني إذ اني لم أرحم غيرك ...

تاريخ الادب العربي

للاستاذ ح. فاخوري

عندما مات لانسون قالوا في كتابه تاريخ الأدب الفرنسي : « انه شحيمة الادب » او « السواعية » ، أي كتاب الصلوات المفروضة تلاوتها على كل كاهن . وهذا الكتاب الجديد الذي ألفه الأب حنا الفاخوري البولسي سيكون شحيمة كل متأدب ، وسواعيّة طلاب البكالوريا ، فهو أوفى الكتب وأجمعها وأحدثها تصنيفاً في هذا الموضوع الحديث العهد عندنا .

كنا قبل ان صنفت هذه الكتب المدرسية المنهجية ، ندرس الادب في مراجعه العديدة ، فنجوب الادغال ولا نعرف الطرق المعبدة ، ولا هذه «القادوميات» . أما اليوم فالعصر عصر صندويش ، وفي استطاعة المتأدب ان يمر بالأدب العربي كله باسبوع ، ولكنها مرة كرام ...

وهذه الطريق في التأليف شقها لنا المرحوم جرجي زيدان متبعاً في رسمها الهندسة الانكليزية ، فقسم العصور الأدبية تبعاً للتطورات السياسية ، وترجم للشعراء والكتّاب فكان كتابه الصادر قبل الحرب العظمى الاولى مثالاً طبع على غراره باحثو الأدب العربي ومؤرخوه ودارسوه .

أما كتاب الأب فاخوري الحديث فمعمول على أحدث طراز ، يجمع الى رصانة التعبير دقة التفكير والتحليل ، وجمال التصنيف والتبويب ، يعطيك في اول كل موضوع خلاصة ما ستقرأ ، وهي تكاد تكون ما يسمونه « خطة » ، ثم يمضي توّاً في التفصيل فلا يتنكب ولا يضل ، كأنه وضع نصب عينيه تلك الكتب التي كثرت في اوروبا . فطبع كتابه على غرارها . واذا لم ترَ عنده ذاك التطويل الفرنجي فلأن شعراءنا محدودو الآفاق ، وليس لهم ما لأولئك من مواضيع متنوعة .

ترى عند القوم القصصي ، والمسرحي ، والناقد ، والكاتب،والشاعر في شخص واحد ، ولا ترى عندنا إلا الشاعر والكاتب الضيق التخوم ، ما خلا بضعة اشخاص من أدباء منهجنا .

والمؤلف يتبع ايضاً خطة الفرنجة في ذكر المراجع عربية وأجنبية ، ثم يختم كل دراسة بمواضيع شتى للبحث فيخفف كثيراً من التعب على المدرس والدارس.

صدّر المؤلف كتابه بمقدمة نفيسة بحث فيها اللغة العربية ونشوءها وتطورها الى أن سادت لهجة قريش ونزل الكتاب الكريم بها فثبتها .

لا أظن ان القرآن ثبتها فقط ، بل انني ارى له في هذا شأناً أجل واعظم فهو الذي رفعها الى أعلى عليين في سموات الجمال الفني ، وحدد لكلمات كثيرة معانيها ، وهذا ما عجزنا عن الاتفاق عليه نحن اليوم . ثم أدخل عليها تعابير خاصة ، وكلمات جديدة منها عربية فتغير معناها للدين والشرع،ومنها غير عربية احتيج اليها . ولا ننس اسماء الأعلام التي عربت فكانت لها الرشاقة وحلاوة الجرس اللتان فاقت بهما العربية اخواتها الساميات. ثم نشأت قواعد الوقف لتجويد تلاوة القرآن بل كل العلوم اللسانية حتى النقد الأدبي لأجل فهم القرآن وادراك سر جماله وتجويد تلاوته وقراءته . وهكذا صار القرآن الكريم دستور الدين والادب ، فهو الذي أوصل النثر الينا كما كان يحكى يوم نزّله الله على عبده ، فكان أعظم أثر أدبي يصل الأرض بالسماء .

قلت ان القرآن الكريم أدخل على اللغة العربية كلمات جديدة وحدد معانيها ومعاني غيرها من الكلمات العربية وهذا ما ينقصنا نحن اليوم. فأسماء الاعلام – مثلاً – يعربها كل واحد منا كما يشاء، فواحد يقول : غوت وآخر جوته ،وذاك جيته وهذاك جوت . ومثل هذا يقال : هوغو ، هيغو ، وهوجو ، وهيكو .

أما الالفاظ الاخرى كالأدب الرومنتيكي فأحدنا يقول : الأدب الابداعي ، وثانٍ يسميه الأدب الوجداني ، وهكذا دواليك، وها هوذا مؤلف هذا الكتاب القيّم يقول : الأدب الانشائي او الايجادي ، والأدب الوصفي، او الموضوعي ، ثم يسمي فن عمل التماثيل النقش ، ويسمي التصوير الرسم ، وهذا ما نرى مثله في

كل كتاب ، وعند كل مؤلف . هكذا ضاعت الطاسة ولم نتفق على كلمات لهذه المسميات التي نحتاج اليها كل ساعة ، فمتى نضع حداً لهذه الفوضى ومتى يفهم القارىء معنى كل لفظة كما حددها العرف الحديث ؟

وقد تكلم المؤلف الجليل عن « عناصر الأدب » فقال : « والآثار الأدبية الخالية من الفكر او المشحونة ضلالاً لا يمكنها ان تعد أدباً حقيقياً » .

اذا كان يريد حضرته بقوله « الخالية من الفكر » تلك الفقاقيع الصابونية البراقة من « انشاء » بعضهم فهو مصيب لأن هذا أدب زيزفوني ... اما قوله «المشحونة ضلالاً» فلا اظن ان للضلال شأناً يذكر في الفن ، فالأدب ، من حيث الفن ، لا يعنيه الضلال والهدى. فالصورة الرائعة رائعة ، سواء ألعشتروت كانت و للسيدة العذراء ، عليها السلام . ان الجمال الفني لا يفقد من الأثر اذا خلا من الحقيقة ، لأن الحقيقة مختلف عليها ، فما هو ضلال في نظر هذا ، ربما كان عين الحقيقة عند ذاك ، والله أعلم ، والحساب في ملكوت الله لا في دنيا الفن .

وقد تكلم ايضاً في هذا الموضوع عن « الذوق » فجعله آخر عناصر الأدب، فليته جعله الأول ثم اطنب وغالى في وصف أهميته ، فلو لم يكن الذوق الفني متأصلاً في نفس الفاخوري ما اخرج للمدرسة العربية هذا الكتاب الرائع . والفاخوري مسلط على طينه يجعل منه إناء للكرامة واناء للهوان ، كما قال بولس شفيع الأب فاخوري . ثم يتكلم عن أثر الدين في الأدب ويراه مكوناً للأديب، وهذا حق. فالدين، ان أحب الانسان او كره، يظل له الشأن الأكبر في منتوجات الأديب الحق، وبرهاننا على ذلك الجاحظ وابو نواس والمتنبي والمعري وغيرهم وغيرهم.

ان مطالعة هذا الكتاب تردني الى بحث الكلمات الوضعية Techniques فالمؤلف يسمي شعر زهير في من ومن ومن شعراً تعليمياً . أما الذي أراه انا فهو ان نطلق كلمة الشعر التعليمي Didactique على مثل الفية ابن مالك، والقصائد التي ذكرها الجاحظ في كتابه الحيوان . أما مثل شعر زهير وغيره فهو الحكمي . أما كلمة الجاهلية فهي لا تعني الوثنية ابداً ، بل هي تعني النخوة المتطرفة التي اشتهر بها العربي حتى قال : انصر أخاك ظالماً او مظلوماً . ولما جاء النبي بشيراً بالحق ،

علمهم بالمثل سعة الصدر والانتصار للحق ، ولما تحمس أحدهم في حضرته قـال للمجلس : ان أخاكم به جاهلية فانصحوه ، او ارشدوه لا أذكر . أما دراسة المؤلف للشعراء فكافية وافية فهو لم يترك شيئاً لا بد منه . خذ مثـلاً دراسة امرىء القيس،فهو يحدثك عن كل غضون تلك الشخصية الفذة ومنعرجاتها حتى «النقل الآلي الجامد»فينزه امرىء القيس عنه،وهذه نقطة حساسة جداً في الفن، فالأديب الحق مصور يدوي لا مصور شمسي . عليه ان يخلق ما يرى خلقـاً جديداً ويضع فيه الكثير من ذاته . انه كالنحلة ـ كما قلت غير مرة ـ التي تصنع الشهد بعد ان تأخذ مادته من هنا وهناك وهنالك .

وقد أعجبني جداً من الأب فاخوري إدراكه الدقيق للموسيقى في شعر يعده غيره أتفه ما قاله امرؤ القيس .

تطاول الليل علينا دمّون دمون إنّا معشر يمانون

وإننا لاهلنا محبون

ليس هنا جمال ولكن هنا موسيقى عميقة تترك في النفس ما يتركه رنين الجرس الضخم بعد انقطاع القرع والدق .

وبعد ، فلا يتسع المجال ، الآن ، لنقد الكتاب كله ، ولكنه كله على هذا النمط: زي فرنجي من قماش عربي مفصل على القد،فليت مؤلفه يقدمه الى معرض الشيلي للكتاب التعليمي فيبيض وجهنا وينال الجائزة ان كان لهـذا المعرض جوائز . واذا اطلع عليه المستعرضون الذين يجهلون العربية فلا شك ان ما فيه من رسوم فنية رائعة يعرفهم بالوجه العربي النبيل الذي أحسن الى الأدب والثقافة العالمية إذ حمل مشعلها أربعة قرون .

الفوضى العالمية على ضوء الانجيل

للخوري حنا مارون

« — يا جمجمة ، تفضلي ، الليلة ، تعشي عندنا .

قال هذا ورفسها برجله فتدحرجت . وعند الغروب ، يا اخوتي المباركين ، تجمعت الضيعة رجال واولاد ، ونسوان وبنات ، ودارت الكأس على صوت الدف والقصب . وفيما هم يشربون ويتنقلون دق الباب .

دخلت الجمجمة ، لبّت دعوة الشاب الطائش اللباط. ليتكم تعرفون يا أولادي ما جرى ، جنّت العروس ، وأغمي على العريس ، وهرب الناس كلهم ، واستحال العرس ليلة فزع ما سمعت بمثلها الضيعة . الموت ، يا أولادي ، الموت . ما أقوى شوكتك يا موت » .

كان عمري ثماني سنوات عندما سمعت هذه الموعظة عن الموت وتكريم الموتى ، فأحدثت في سروالي فزعاً ... أحسّت أمي بالكارثة ، فأخذت تشجعني ولكن هيهات ، فكنيسة عين كفاع معتمة ، ولامر ما أعدّ الخوري سراجاً فتيلته كفتيلة سراج بخيل الجاحظ ، وأوقد شمعتين فقط ، فكان له المشهد الذي شاءه عارم الرعب.

ما تعشيت تلك الليلة. ذهبت توّاً الى فراشي ونامت أمي الى جانبي ، وظلت تنثر فوق مخدتي أخبارها المضحكة حتى تركتني ظانة اني نمت على سرور . ما كدت أغفى حتى نفضتني الحمى فأفقت أرتجف ، فتركت المسكينة الموقد وترامت عليّ ، وهرول جدّي وانتصب عند فراشي يصلي على رأسي ، فازداد فزعي . حسبته ذلك الواعظ الجبار . ورأى هو ان صلاته لم تنفعني فانحنى فوق مخدتي فأجفلت ، فصاحت أمي : جدك ، يا ابني ، جدك . وكلمني هو بصوته المرتجف فأدركت انه غير ذاك . فسكنت اليه ، وهدأت أعصابي .

هذه إحدى المواعظ التي حفظت ايماني من تهور القلب...وعندي لها اخوات

نابغات . هذه الصغرى التي تيمها عمر ، أما الكبرى والوسطى فيأتيك نبأهما في « قصصي وأخباري » .

اللهم عفواً وغفراناً ، اللهم اغفر لي وللخوري يوسف اللاذقي الواعظ الشهير.

الشيء بالشيء يذكر . ذكرتني مواعظ الخوري يوحنا مارون بهذه النكبة التي حلت بي في طور التكون والتحول ، ومن يدري فربما كانت هي التي غيرت مجرى حياتي ، فليتني أولد ثاني مرة كما قال السيد المسيح لذلك السائل : كيف يرث ملكوت الله .

كثيراً ما تساءلت ماذا حدث، وماذا جرى ، حتى ان «اوغو» لم يعد اوغو كما خبرنا اورياما . ولكنني وجدت الجواب عند هذا الخوري العلامة صاحب «الفوضى العالمية على ضوء الانجيل» [1] : ان ارتداد بول كلوديل كان لي عذراً ورجاء ، ولعل ساعتي لم تأت بعد ، او لن تأتي . من يعلم .

عندما قرأت الفوضى العالمية عنّت لي ايامي السابقة ، ايام كنت أعيش في ظل الكنيسة ، في ظلمة مار روحانا عين كفاع المطمئنة ، ورطوبتها الخشوعية المنعشة. اصغي الى صوفية مار افرام ، ومار يعقوب ، واسمعهما يتدللان على الله. فلو صحّ لنا وعّاظ كهذا الأب المثقف ، لما صحت فينا الكلمة المأثورة : ورب أكلة حرمت أكلات ...

الخوري يوحنا مارون في مواعظه السبع يحادث القلب والعقل معاً . ما هو بالمنطقي الجاف ، ولا بالمتفلسف المتقعر . يعلم انه يحدث الشعب فيوجه كلامه الى القلب ــ مستودع الايمان ــ ماراً بطريق الدماغ . ولا نعدو الحقيقة ان قلنا جعل الحمل عدلين، فما رجحت كفة على أختها فمن بعد عن القلب يرفض حديثه، ولهذا تقرأ مواعظ صاحب الفوضى العالمية وانفك راغم ــ غض الطرف .

تعجبني جداً مواعظه فهو رجل عاطفة وايمان ، وصاحب فكر وبيان ، فجاءت عظاته من طراز جديد في الكنيسة الشرقية . يحاول مؤلفها ان يدب الحياة الى المبادىء الدينية التي يراها الكثيرون مفلسة هرمة ، ولكن بيان هذا

---

(١) ـ طبع «دار المكشوف» ، بيروت .

الأب وبرهانه يقنعاننا ان الكمال المسيحي ليس مبدأ خيالياً يستحيل تحقيقه . فالمحبة حلم يتحقق إذا شاء البشر ، وان الفوضى العالمية لم تعد انشوطة ، وإنما هي عقدة العقد التي لا يحلها إلا الانجيل .

لم تتعود منابرنا مثل هذه اللهجة ، ولم تألف مثل هذا الكلام الذي يقرأه المؤمن والزنديق والكافر ويخرجون منه جميعاً معجبين بالقلم الذي خطه ، القلم المبشر بروح الانجيل أعجوبة العجائب .

من مقطع واحد من فصول الانجيل – او من انجيل واحد بلغة الكنيسة – اتخذ الخوري يوحنا مارون مادة عظاته ، فخلق من بضعة أسطر زاداً له وللمؤمنين ، مدة الصوم ، كما خلق السيد المعلم من السمكتين والخمسة أرغفة مأدبة للموعوظين عند الجبل ، قبل ان تثور بحيرة طبريا .

لقد اصبح لطبريا رائعتان ، رائعة المتنبي في الشعر ، ورائعة يوحنا مارون في الوعظ الديني والمدني ، وموضوع النابغتين الاسد : هـذا الأسد المنتصر من سبط يهوذا ، وذاك اسد بدر بن عمار بن اسماعيلا .

ما أشبه هذا الأب بلاكوردير فصاحة وبياناً. للكاهنين – الغربي والشرقي – هدف واحد هو الملاءمة بين الدنيا والدين . وجعل المسيحية عامة والكثلكة خاصة ملأى بروح العصر ، وقد عالج الأب مارون ، مثل لاكوردير ، انما في عشرات الصفحات، معظم مشاكلنا الحاضرة على ضوء الانجيل. عرض لنا بايجاز مسهب جميع مبادىء زماننا وعقائده من سياسة وفلسفة واجتماع وعلم ببراعة لا عهد لنا بها في كنائسنا من قبل .

ان أسلوب الخوري يوحنا مارون متقد ، يجذب القارىء ، ويسوقه بعصاه السحرية الى حيث يشاء . لا أجادله فيما يتحدث عنه ، وحسبي النتيجة الاقناعية التي تؤدي اليها بحوثه . وكم أعجبت بالموعظتين الاخيرتين بل بكتيبه كله ، وتمنيت لو يكثر عندنا مثل هذا الوعظ الذي يأخذ الناس بالحيلة البولسية . أما احابيل واعظنا الكبير فهي غير تلك، انها عصرية مصنوعة في معامل العلم، لاتتكىء على سواعد الايمان فقط، فيرفضها من يريد، ولكنها تفقأ في عين الماحك حصرماً.

من فكاهات الجاحظ طرفته الفنية « آكل الرؤوس » فقد روى ان بطله ابا عبد الرحمن كان يسمي الرأس مرة «الجامع» ومرة «الكامل» فهل نؤاخذ اذا استعرنا هذا اللقب لكتاب الفوضى العالمية ؟ ، وهل من حرج اذا دعونا هذه العظات المعلقات السبع في الأدب «الطقسي»؟ ففيها خيال بديع وأدب رومنتيكي، وبلاغة لا تشوبها ركاكة ، ولو قرأها الفارياق لقال : هذا خوري فصيح وهذا وعظ مبين ، ثم حذف ذلك الفصل من كتابه الخالد .

ان صاحب الفوضى العالمية رجل مثقف، ومتى علمت انه قائد جحفل لجب من شباب البلاد، مدبراً ومعلماً لا تكبر صدور هذه المواعظ عنه، ففي ذلك الجسم النحيل عزيمة الجبال ، ورواء المدينة . انه ليصح ان يؤخذ وجهاً من وجوهنا في القرن العشرين ، فعدته تامة ، وشخصيته مسلحة بقوى نفسية نادرة، فهو كالاب ديدون يحاول ان يجد في الكثلكة دواءً شافياً لبؤس العصر. وقد توصل بتأويله وتفسيره الى اقناع غير قليل، فأرانا ان بين الدين والدنيا قرابة دموية .وحسبك الموعظة السادسة لتؤمن بل لتصدق ما أقول انا ، وتؤمن بما قال هو. عالج هناك معجزة المعجزات ـ سر الافخارستيا ـ بتوفيق عظيم أغبطه عليه، وأهنىء الكنيسة. ولا بدع، فقديماً كان فم يوحنا ذهبياً. .وطوبى للنقية قلوبهم فانهم يعاينون الله...

وإن كان لا بد من قول فيكون حول تفرنج الأسلوب ، ولكن ذلك قليل جداً . فالى الامام يا محترم ، احرث كرم ربك ، فالحصاد كثير ، والفعلة ـ اللهم المهرة ـ قليلون .

الرمزية والادب العربي

لأنطون غطاس كرم

ألـّف هذا الكتاب الاستاذ انطون غطاس كرم ، فسد فراغاً في المكتبـة العربية كان لا بد له من سد ، فكثيراً ما يحاول الشعراء الذين قل رأس مالهم من اللغات الأجنبية ان يطلعوا على الحركة الادبية الرمزية في مصادرها فيتعذر عليهم تفهمها ويخبطون في تقليدهم كمنايا زهير .

الكتاب نافع ، وان جاء متأخراً ، وما مثلنا معه إلا كمثل « الموض » التي تبطل في بلادها فنأبه نحن لهـا ونعنى بها كحدث ظريف ، ونفصل قماشنا على طرازها ونلبسها مبتهرين ...

لا يبعد الأدب كثيراً عن ان تكون فيه موض وأزياء ، حتى ان المفردات تموت حيناً ، ثم تحيا ، ثم تموت ، تبعاً لسنن الحياة . ألا ترى مثلي ان هذا الشعر الذي يسمونه رمزيّاً يكاد يستأثر بمفردات لا تدور على ألسنة أقلام كتابه غيرها، ثم تسند الى أشياء بعينها فيخلق المولود الرمزي العجيب .

فما هو الرمز الأدبي ؟ لقد أورد الاستاذ انطون كرم تعريفات كثيرة يضيع القارىء بين سطورها . وأي عجب في ذلك ، أليست رمزاً ؟

عندما تسنم بول فاليري شاعر فرنسا العظـيم كرسي الأدب في « كولج دى فرانس » افتتح دراساته بمحاضرة عن الأدب الرمزي استغرقت حصة طويلة من الزمن،واخيراً انتهى والسامعون لم يفهموا مراده ...فأقبلوا على زوجته يهنئونها، مجاملة ، بما قال زوجها ، وابتسامة الحيرة على افواههم ، فقالت لهم الزوجـة النبيهة : ماذا تطلبون ؟ انه يحدد ما لا يحدد ...

وهذا ما فعله الاستاذ كرم في كتابه الرمزية . فقد رأى ، بعد ان أورد تحديدات عديدة ، ان « بوفيه » هو خير من حاول تحديد الرمز بكلام يفهم ،

فعربه كما يلي :

« الرمز هو بقية التصفية الفكرية ، والجوهر الاقصى في كل تشبيه » .

لا تسألني شرحاً فأنا، وحقك، لم أفهم اكثر مما تفهم انت من هذه الكلمات ، ولكنني احدثك بلغة صاحب الاغاني فأقول : حدثنا الاستاذ كرم عن بودلير ، عن ادغار بو ، قال تحت عنوان « المبدأ الشعري » :

١ — الشعر خلق من الجمال منغم . والجمال غرضه الاوحد .

٢ — هو تلهف نحو مثال اقدس ، وانطلاق من نفس متعبة تنهار على ذاتها في جو من الحلم ، وفي تعبير شعري موسيقي غنائي .

٣ — الحقيقة العميقة في الذات هي موضوع الشعر الحق . بحيث يصبح الشعر توقاً واشتياقاً .

٤ — ينبغي ان تكون القصائد وجيزة تهز الذات ، لان شعور الانسان الجمالي زائل عبوري لا يستمر حياً طوال القصيدة الطويلة ، فاذا طالت القصيدة باد هذا الشعور في كلام المبدع والقارىء وخبا .

ان الشاعر الاميركي بو رصف مبادئه هذه على نسق الوصايا العشر ، إلا انه جعل وصاياه اثنتي عشرة ، فاسمح لي ان أترك خامساً وسادساً وسابعاً واقول :

٨ — الابهام عنصر الشعر الاساسي كما انه عنصر الموسيقى الاولي : فالايضاح والبوح بكامل الاشياء يعري هذه الاشياء من مثاليتها وجمالها الارفع . ومن مسحة الحلم الجميلة . فلينف الشاعر الوضوح وليعد الى خلق جو ضبابي منطو على كل عجيب مبهم .

انني استخلص مما تقدم ذكره ، ومن كل ما جاء في الكتاب : « ان هذا الشعر الرمزي لا يحفل إلا بالموسيقى والايحاء ولا يكاد يحفل بالمنطق » كما جاء في (الصفحة ١١٩) ، وهذا ما يذكرني بما قاله ، منذ الف عام واكثر ، شاعر عربي ربي بدوياً وتحضر في بغداد . لا تتهمني بالتعصب للعروبة اذا أريتك ان شاعرنا البحتري قد فهم الشعر منذ احد عشر قرناً واكثر ، كما فهمه هؤلاء المعاصرون الاوروبيون ، فقال يرد على خصومه ، ولعله يعني ابن الرومي :

كلفتمونا حـــدود منطقكم في الشعر يلغى عن صدقه كذبه
ولم يكـن ذو القروح يلهـج بالمنطق ، ما نوعه ومـا سببه
والشعر « لمح » تكفي اشارته وليس بالهـذر طولت خطبه

لست أعني ان البحتري شاعر رمزي ، ولكنني أعني انه قرر مـــا قرره اساطين الرمزية .

ثم يغرب الرمزيون في تفصيل فنهم فيجعلونه « احوالاً » بالصوفيـة أشبه ، فيعدون طور المعقول ويرون الالوان والاصوات والعطور في الحروف .

لا نستطيع مناقشة هذا الآن لأن المجـــال ضيّق ، ولكننا نثني على جهود الاستاذ كرم ونتمنى عليه حين يعيد طبع كتابه هذا ان ينقيه من التعابير الواهنة ، والخاطئة ، وخصوصاً الغامضة ، فهو لا ينظم شعراً رمزياً بل يكتب عن الرمزية.

اعلام الحرية

لقدري قلعجي

قدري قلعجي كاتب عامل ، وقد يكون الكاتب الباحث المحترف الذي لا يزوّق ولا ينمق . يعني ما يقول فيؤديه بتلك البساطة المركبة ، مبتعداً عن الرمز والايماء والتلاميح لأن له هدفاً يرمي اليه . اما أسلوبه فهو السهل الممتنع، وخصوصاً في سلسلة « اعلام الحرية » التي لم تكتب للخاصة وحدهم ، وان لم تنحط عن مستواهم .

ان سير الرجال العظام خير مدرسة لتعليم الشعب وحثه على التشبه بالكرام من البشر ، وهذا ما فعله الاستاذ قلعجي ، إذ حلل لنا شخصيات عالمية فذة فما تقيد بجنس ولا بقارة . كأن هدفه «تأميم» العظام من العالمين ، وهم أحق بالتأميم في نظري من النفط وغيره ... ان في سيرهم مواد اكثر التهاباً من ذاك. واذا كان النفط لتحريك الآلات ، ففي هذه السِيَر ما حرك العقول حتى أبدعت ما ابدعت . ان هؤلاء المفارد من البشر هم الذين حققوا للانسانية ما صبت اليه من حرية ونعمة هما مصدر كل خير .

فاذا قرأنا احدى حلقات هذه السلسلة ، «ابو ذرّ الغفاري» ، علمتنا سيرة هذا الرجل الصالح كيف يمسي الرجل الساذج «مجتهداً» فاضلاً لانه يريد ، ولان نفسه متفتحة لاقتبال المبادىء الجديدة الصحيحة .

سمع ابو ذر بالدعوة النبوية فاستجاب لها وتاق الى رؤية النبي الجديد فقصده، وما رآه وتحدث اليه حتى آمن به ولزمه ، فكان من افضل صحابته . ثم عاش بعده لا يحيد قيد شعرة عما تعلمه من تلك السيرة الصالحة. لم يلن ابو ذر للحدثان، وما أصغى إلا الى صوت وجدانه . ثبت لما حل به من نكبات تقصم الظهور ، ولم تستطع المادة ان تأخذ شيئاً من تلك النفس الصلبة . وكيف يستخذي من يحمل في صدره ما حمل ابو ذر من يقين حتى آثر الجوع على مال السحت .

جاءه عبد يحمل اليه من الخليفة عثمان مئة دينار ، كان رفضها من قبل ، فقال له العبد : اقبلها ، يرحمك الله ، فان فيها عتقي . فقال له ابو ذر : ان كان فيها عتقك فان فيها رقي .

ومن يستغرب حدوث مثل هذا منه متى عرف انه لحق النبي راجلاً الى تبوك ، فقال النبي لاصحابه : ادركوا أبا ذرّ بالماء فهو عطشان . فيشرب شرب الجواد الصادي . ثم دنا من رسول الله وقدم اليه قارورة فيها مـــاء . فتعجب الرسول وقال له : « يا أبا ذر ، معك ماء وعطشت » ؟ فيقول : « نعم يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي !! انتهيت الى صخرة وعليها ماء السماء ، فذقته ، فاذا به عذب بارد ، فقلت لا اشربه حتى يشربه حبيبي رسول الله » .

أجل بمثل هؤلاء الابطـــال ، ابطال اليقين والايمان تتوطد دعائم الدعوات والرسالات العليا . هذا بعض من فضائل هذا الحواري الطاهر في حياته ، امـــا ختامها فعظة رائعة : احتضر ابو ذر وليس عند زوجه ثوب تكفنه به . فقيض الله له رجالاً يشهدون احتضاره ، فقال لهم : والله ما كذبت ولا كذّبت ، ولو كان عندي ثوب يسعني كفناً لي ولامرأتي لم أكفن إلا في ثوب هو لي ولها ، واني انشدكم الله ان لا يكفنني رجل منكم كان اميراً او عريفاً او بريداً او نقيباً .

فقال له فتى من الانصار : « انا أكفنك يا عم في ردائي الذي اشتريته بمـــال كسبته بعملي ، وفي ثوبين من غزل أمي ، حاكتهما لي كي أحرم فيهما » . فقـــال ابو ذر : « أنت الذي تكفنني ، فثوبك هو الثوب الطاهر الحلال » .

هذا بعض ما في كتاب « ابو ذر الغفاري » من درس رفيع وموعظة سامية وقد أجاد تأليفه الاستاذ قلعجي لو لم يلصق به الفصل الاخـــير الذي عنوانه « للتاريخ » . لم تكن هذه التعليقات ضرورية في نظري ، فهي تنقص من جلال سيرة ابي ذر ، فبطل عقيدة كهذا الصحابي الصالح لا تحتاج اخلاقه الوعرة الى من يلطف من صلابتها . فلندع الحوادث تتكلم ، أما الاستنتاج والحكم فللناس .

ومن أقدم مناضل في الاسلام تنقلنا سلسلة الاستاذ قلعجي الى أحدث أبطاله « محمد عبده » بطل الثورة الفكرية في الاسلام .

صدر المؤلف كتاب محمد عبده بالبيتين اللذين قالهما الامام في مرضه الأخير :

ولستُ أبالي ان يقال محمدٌ أبلّ أم اكتظّت عليه المآتمُ
ولكنّ ديناً قد أردت صلاحه أحاذر ان تقضي عليه العمائمُ

أما الأبيات الثلاثة الباقية وهي :

فيا ربِّ ان قدرتَ رجعى قريبة الى عالم الأموات وارفضّ خاتمُ
فبارك على الاسلام وارزقه مرشداً رشيداً يضيء النهج والليل قاتمُ
يضارعني رأياً وفهماً وحكمةً ويشبه في السيفِ والسيفُ صارمُ

فأذكر ان أستاذنا الشيخ سعيد الشرتوني أجهش بالبكاء حين قرأناها له في الصف ، ثم انتفض مدافعاً عن صديقه فقال : البيت الأخير منحول لأن الشيخ محمد عبده أقلّ البشر اعتداداً بالنفس .

أما هذا الكتاب فكافٍ وافٍ يعرفنا ببطل الحرية المعاصر الذي قال فيه ايضاً معلمي الشيخ سعيد : هذا الرجل اذا تكلم يخرج النور من فمه .

فما أحوجنا الى مثل هذين الكتابين اللذين يصلان حاضرنا بماضينا ، وما أحرانا باحياء ذكر أبطالنا بنشر آثارهم وإظهار فضلهم . فمجاهد عظيم كالامام محمد عبده يستحق كتباً لا كتاباً واحداً فقط . فسيرة حياته ، وما ترك من شذرات أدبية تكوّن عقولاً مستقلة ، وشباباً يستميت في جهاده .

تأمل ما يقول هذا الثائر على التقاليد البالية حتى في العلم . قال : لا ينبغي ان يذل الفكر لغير الحق ، والذليل للحق عزيز . نعم يجب على كل طالب علم ان يسترشد بمن تقدموه ،وسواء أكانوا أحياء أم امواتاً ، ولكن عليه ان يستعمل فكره فيما يؤثر عنهم ، فان وجده صحيحاً أخذ به ، وإن وجده فاسداً تركه . وحينئذٍ يكون ممن قال الله تعالى فيهم : « فبشّر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

فعسى ان يقتفي أثر الامام كثيرون ممن يقرأون هذا الكتاب ، فلا يصح فينا قوله المختوم به هذا السفر النفيس : « يا ويح الرجل الذي ليس له أمة . وأشد التعب ان ترى من حولك مرضى ولا تستطيع معالجتهم » .

لقد أبللنا يا سيدي الامام ، وعسى ان لا نبتلى بالنكسة ، فنم مستريحاً فان تعاليمك أثمرت . فللمؤلف ولدار العلم للملايين أجزل الشكر على هذه السلسلة الذهبية التي تحلّي الألباب والأذهان .

الاسلاك

لأميل حائك

أسلاك الكاتب اميل حائك شائكة ومكهربة في وقت معـــاً . تنظر الى صاحبها فتخاله بعيداً عنك وإن كان يحدثك وجهاً لوجه. انه معك، وإن لم يكن كلـّه فجلـّه. لا يجود لك إلا بمقدار ويحتفظ بالباقي لحين الحاجة. فهو لا يقتصد في الانتباه فقط بل يشحّ بالابتسامة ايضاً . فلا يتفضل عليك إلا بالنصف ، هذا اذا تكارم، واما النصف الآخر فيعلم الله متى يكون موعده ... عينان سابحتان في وجه غائم تشيع فيه بسمة حائرة. انك لست تدري ما تقول ابتسامته اذا كنت لا تعلم انها مدت هذه «الأسلاك» الملبسة بالمطاط ولم تعزلها كل العزل فظلت تكهرب.

ليس كتاب « اسلاك » بحديث العهد ، وقد يقول قارئه والمؤلف نفسه حين يطالعان كلمتي هذه : « تعيش وتفيق » ، أما انا وهذه عادتي فأجيبها : أأفاق صبٌّ من هوى فأفيقا . . !

وبعد فما لون هذا الكتاب ؟ انه كتاب نضال يا قارئي العزيز ، وقد قـال صاحبه حين دفعه الينا : هذه المختارات من المقالات ، وقد درجت في الصحف، لم تجمع في كتاب، يقدم الى المكتبة العربية بتواضع كبير، إلا اعتقاداً بأنه سيكون، في الغد ، حافزاً لانتاج أقوى ... الخ .

وهذا هو الواقع ، وقد نضجت فكرة كاتبها اليوم واكتنزت عبارته فوقفت على قدمين ثابتتين . مدّ اميل حائك أسلاكه في كل جبهة، فالحكمة، وإن كانت زاد طريق طويل، هي أول أسلاكه التي تطالعك . أليس لابن العشرين في الأدب العربي ما لابن الثمانين ؟ قد يوجد الحلم في الشبان والشيب ... وترى فيها نظرات وآراء في الأدب ، انه يريده نضالياً واقعياً « يعالج مشاكل الجماهير ، ويعبر عن آلامها وآمالها » . يعبر الاستاذ حائك عما يريد بتهكم مرّ وهزء موجع لعله وليد

تلك الشخصية التي رسمت لك بعض خطوطها الكبرى في مطلع كلمتي هذه . اقرأ شذراته تحت عنوان «الأدب والأديب» لترى كم عند هذا الشاب «الجنتلمان» من آراء تقف عندها واجماً مفكراً . فهو يشن غاراته من وراء اسلاكه التي يعتصم خلفها . ويقول كلماته في الأدب بصيغ «المراسيم» . يريده «ثورة ونوراً وتوجيهاً وعملاً» واذا كان غير ذلك «فهو أدب محدود الفائدة ضيق الأفق . تائه الفكرة، وقد يكون سيّىء القصد » .

لا يا اميل ، اذا طلبنا هذا من جميع الأدباء كنّا كمن يريد جميع الطيور بلابل وعنادل ... فهناك حد وسط لبعضهم. فليسوا كلهم يصلحون ان يدوروا في حلقة مفرغة من خيالاتهم الفلسفية ، أما قيل : الناس أجناس ؟

ولا تقف اسلاك اميل عند هذا بل تتجاوزه الى شؤون اخرى محلية تمس كلها الواقع ، ولا بدع فهو صحفي ، وميدان الصحافي هذا الواقع الراهن دون سواه ، وقد طغى حب اميل الواقع حتى بلغ الزبى فقال ، «لنفتح السجون ... إذن ، ولنختم المدارس ... بالشمع الاسود ! أقول هذا ، لا حباً بالسجن ... بل كرهاً للمدرسة ... مدرسة الشهادات » . لقد ساءته تلك العلوم النظرية التي لا تنفع صاحبها ، فيكون في الحياة غريباً عن اورشليم كما قالوا قديماً ، فقال ما قال: أما العلم في نظري فأرى ان يطلب بحسب المواهب لا بحسب أنانية الطالب .

وبعد، فان الاستاذ حائك سيكون كاتباً نبيه الشأن اذا اهتدى الى شخصيته ، بل فلنقل ان هذه الشخصية ، في كتاب أسلاك ، ما زالت نجمة سديمية والمستقبل كفيل ان يكشفها ويبلورها .

وأخيراً ما هي المآخذ على الأستاذ حايك ؟ وهنا لا بد من كلمة نوجهها الى القليلي الحظ من الأصول واللغة ، فنراهم مستخفين بها ، قائلين : المعاجم ! كتب الصرف والنحو !! لا أدري ماذا يريد هؤلاء . فأية أمة من أمم الأرض لا تحافظ أشد المحافظة على صيانة لغتها ؟ اننا لا نطلب من هؤلاء ثروة لغوية ولكننا نريد ان ننفي من نقودهم الدرهم الزيف، ولهم ، فيما بعد ، ان يدسوه حيث شاؤوا، اذا شاؤوا . أما من يريد ان يكون له شأن في الكتابة فهو مسؤول عن كل هذا .

ففي كتيب الاستاذ حائك اخطاء وافرة، في اللغة والاصول، بعضها طبيعي وبعضها اراده الكاتب هكذا . نراه يضع بعض الألفاظ بين قوسين حاسباً انها عامية وهي فصيحة مثل لفظة : بوز ، وقرض ، ولبط ، ونكع ، ونفضوا طوقهم الخ ... ثم نراه في موضع آخر يضع الكلمة العامية ولا يعلّمها بعلامة .

أما السريانية فما له ولها ، في قابل . لقد اخطأ في التعبير ، وقال ما لم يقل ولا يقال ، فليته ظل يستعين بالالفاظ العامية التي خلقت في تعابيره الكثيرة جواً أنيقاً طريفاً . . .

الفهرس

المعركة الأدبية في مصر	٥
أدب القصة بين العقاد والرافعي	١١
القصة المصرية بين الشبان والشيوخ	٢٢
أشياخ الأدب في مصر	٣٢
مجمع اللغة العربية الملكي	٣٩
الأدب والنقد في مصر	٤٣
طه حسين في آثار ثلاثة	٦١
حياتي لأحمد امين	٦٨
اليوم خمر لتيمور	٧١
توفيق يوسف عواد من الصبي الأعرج الى الرغيف	٧٣
قصص تقي الدين العشر	١٠٤
الباب المرصود لعمر فاخوري	١٣٩
الف ليلة وليلة لكرم ملحم كرم	١٥٥
وفاء الزمان وسجل التوبة لأمين الريحاني	١٢٦
ابو الهول وفنيانوس لشكري الخوري	١٧٣
الوعي القومي لقسطنطين زريق	١٧٦
مصطلح التاريخ لأسد رستم	١٨٨
الحب أقوى لرئيف خوري	١٩٧
مذكرات الأرقش لميخائيل نعيمة	٢٠٨
شفتان بخيلتان لرياض طه	٢٣٢
تاريخ الأدب العربي ح. فاخوري	٢٣٧
الفوضى العالمية على ضوء الانجيل للخوري حنا مارون	٢٤١
الرمزية والأدب العربي لأنطون غطاس كرم	٢٤٥
أعلام الحرية لقدري قلعجي	٢٤٨
الاسلاك لاميل حائك	٢٥١

شهـــادة حـــق

عنوان « في المختبر » قليل على هذا الكتاب . فهو مختبر ، ومستشفى ، ومصح ، وصيدلية . فمارون عبود لا يقصر فيه مقالاته على تحليـــل الأمراض ، واكتشاف الجراثيم ، وشرح اسبـــاب الضعف ، والركاكة ، وفقر الدم ، بل يتحرّى عوامل الداء ، ويدل على مسارب عدواه ، ويصف له الدواء الناجح ، ويعمل على توجيه المريض حتى يشفى ، ويجتاز طور النقاهة ، فيخرج من بين يدي « النطاسي البارع » يرفل بحلة من النشاط والعافية .

ولعل ايجابية مارون عبود في نقده هي سر قوته . فهو لا يقسو ليدمّر ، ولا يسخر متشفيا منكلا ، بل يضرب ليؤدب ، واذا جرح فليقأ دملا خبيثا ، ويبرىء الجسم المصاب . فبورك قلمه القلام ، وبوركت جرأته الادبية التي خدمت الادب اكثر من مجامعنا العلمية كلها .

جورج مصروعه

Bibliotheca Alexandrina
0436618